روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية

آرسكين كالدويل

طريق التبغ

@ketab_n
Follow Me
5.5.2016

نقلها إلى العربيّة الأستاذ منير البعلبكي

طريق التبغ

كنوز القصص الإنساني العالمي

للقاصّ الأميركي الشهير

آرسكين كالدويل

نقلها إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

Twitter: @ketab_n

طريق التبغ

Twitter: @ketab_n

دار العلم للملايين

شارع مار إلياس - بناية متكو - الطابق الثاني
هاتف: 306666 1 (961)+ فاكس: 701657 1 (961)+
ص. ب.: 1085 - 11 بيروت 2045 8402 - لبنان
internet site: www.malayin.com
e-mail: info@malayin.com

جميع الحقوق محفوظة: لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

Copyright© 2014 by
Dar El Ilm Lilmalayin,
Mar Elias street, Mazraa
P.O.Box: 11-1085
Beirut 2045 8402 Lebanon

Original English title: Tobacco Road
Author: Erskine Caldwell

طبع في لبنان

Twitter: @ketab_n

مقدمة

من الجميل أن يلتفت المرء إلى الوراء، عشرَ سنوات، وأن يكون في مقدوره أن يرى كيف استُهلّت رواية من الروايات.

والواقع أنّ ذكرياتي عن أوّليّة «طريق التبغ» لا تزال واضحةً نضرة العود.

كان ذلك في وقدة الصيف الشاوية في جورجيا، تحت هضبة الـ«بييدمونت»، وكنتُ أتمشّى في طريق مغبرّة، ثلّمَتْها عجلاتُ العرَبات، ونبتت على حواشيها الأعشاب البرّيّة.

هنالك كنتُ في مسقط رأسي، بين القُنن الصلصاليّة المتأكّلة، والكُثبان الرمليّة المقفرة ـ أرض عرفتُها عمري كلّه.

وكانت تحيط بي من أقطاري عناقيدُ شجَرات القطن المتخلّفةِ النموّ، الضامرة، الشعثاء، التي تحاول عبثًا أن تحقّق وجودَها في التربة المستنزَفة.

كانت الأرض موحشة.

وغيرَ بعيد جدًّا عَبْرَ الحقول كانت عِدّةٌ من بيوت الأجراء المزارعين، حقيرة متهدِّمة، أكواخ يتألف كلٌّ منها من غرفتين، ذات دعائم خشبيّة ملتوية

Twitter: @ketab_n

وسقوف منحرفة. وحول البيوت كانت جماعات من الكائنات البشريّة. فأمّا الأطفال فكانوا يلعبون على الرمل، وأمّا الشبّان والشابّات فكانوا متّكئين على جنَباتِ المنازل، وأمّا العجائزُ فكانوا قاعدين مجرّد قعود. كان كلّ امرئ منهم ينتظر القطن حتى ينضَج. وكان لهم بالقطن إيمان. لقد آمنوا به كما يؤمن بعض الناس بالله. كان لهم إيمان بالأرض وبالنبات النامي في الأرض. وعلى الرغم من أنهم خُدعوا في السنة الخالية، وطَوالَ سنواتٍ كثيرة قبل ذلك، فقد كانوا على يقين من أنّ الحقول سوف تُمطر وشيكًا ببراعم متعثّرة متشقّقة من قطنٍ أبيض متألّق.

ولكنّي مَشَيْتُ عَبْرَ ذلك الدرب نفسِه، وتمهّلتُ محدِّقًا إلى تلك الحقول نفسِها في الخريف الماضي، وفي عددٍ من فصول الخريف لستُ أعرفه على وجه الضبط، ولم أجد أيَّما رجل جنى مقدارًا من القطن من تلك النباتات المتخلِّفة النموّ كافيًا لأن يسدَّ حاجتَه إلى الغذاء والكِساء.

ولم يكن من العسير على المرء أن يظلّ على قيد الحياة أيامَ الصيف حين يكون الجوّ حارًّا بلسميًّا، وحين تراود رؤيا القطن مُخَيِّلاتِ القوم فيتطلّعون بأملٍ وشوق إلى الخريف القادم. وفي مَيْسور الإنسان أن يقعَ دائمًا على ثمر العُلَّيْق، والبصل البرّيّ، بل وعلى بعض الأرانب أيضًا.

ولكن ما إن يَحِلّ الخريف فالشتاء فأوائلُ الربيع حتى تتغيَّر الحال.

لقد مَشَيْتُ في ذلك الدرب في صميم فصل الشتاء، ورأيتُ الناس الجائعين الملتفّين بالأسمال البالية يذهبون إلى لا مكان ويأتون من لا مكان، ملتمسين الطعام والدفء، راغبين في أن يعرفوا ما إذا كانت أشياء من مثل الطعام والدفء لا تزال موجودةً في بقعةٍ ما من بِقاع العالم.

Twitter: @ketab_n

إنهم لم يلتمسوا شيئًا أكثرَ من الغذاء الكافي لأن يُمسِكَ عليهم الحياةَ حتى مَطْلَعِ الربيع، بحيث يكون في مَيْسورهم أن يزرعوا القطن للموسم الجديد.

وكان لهم من الإيمان بالطبيعة، بالأرض، وبالنبات الذي في الأرض، ما جعلهم لا يفهمون كيف يمكن للأرض أن تخونَهم أو تُخيّبَ رجاءهم.

ولكنّها خانتهم وخيَّبَتْ رجاءهم، فإذا هم في أماكنهم يَسلُخون صيفًا جديدًا في انتظار حَصادٍ خريفيٍّ لن يأتيَ أبدًا.

لقد وقع ذلك كلُّه مرّةً من قبل.

لا لهؤلاء الناس أنفسهم، بل لآبائهم وأجدادهم.

فقد رأى آباؤهم وأجدادهم التبغ يأتي ويزدهر على هذه الرُّقعة عيْنِها من رِقاع الأرض.

ولكنه يأبى، بعد موسمه، أن ينموَ في التربة المستنزَفة.

وظلّت الأرض مهمَلةً عدَّةَ سنوات.

ثم جاء القطنُ.

ونما القطن. وازدهر أجيالًا متعدّدة، ثم عاد هو بدوْره فاستنزف طاقةَ الأرض، فهو لا ينمو فيها بعدُ.

التبغ أوّلًا، ثم القطن. إنّ كلًّا منهما قد جاء وذهب.

ولكنَّ الشعب وإيمان الشعب بقيا.

آرسكين كالدويل

Twitter: @ketab_n

- 1 -

كان لوف بنسي يتخذُ سبيلَه، متثاقلَ الخُطى، إلى المنزل، عَبْرَ طريق التبغ المغطاة بالأخاديد وبالرمل الأبيض العميق، وقد حمل على ظهره كيسًا من لِفْتِ الشتاء. لقد كلّفه الحصولُ على ذلك اللفت كثيرًا من البلاء، واقتضاه أن يجوزَ الطريق الطويلة المتعِبة كلَّها حتى «فولر»، ذهابًا وإيابًا.

ذلك بأنّ لوف سمع في اليوم السابق أنّ رجلًا هناك كان يبيع العِدل الواحد من لِفْتِ الشتاء بخمسين سنتًا، فما كان منه إلّا أن انطلق في الصباح الباكر من ذلك اليوم، وفي جيبه نصفُ دولار ليشتريَ به لفتًا. لقد قطع حتى الآن سبعة أميال ونصفَ ميل ولا يزال أمامه ميلٌ ونصف قبل أن ينتهيَ إلى بيته قُرْبَ مستودع الفحم الحجري.

وكان أربعة نفر أو خمسةٌ من أسرة ليستر واقفين في الفِناء ينظرون إلى لوف عندما أنزل كيسه عن ظهره ووقف أمام البيت. لقد راقبوا لوف منذ أن رأوه، أوّلَ مرّة، قبل ساعة من الزمان، على الكَثيب القائم على مَبعدة ميلَيْن تقريبًا. حتى إذا غدا على مَقرُبةٍ منهم، استعدّوا لأن يَحُولوا بينه وبين حَمل العِدل إلى أبعدَ من ذلك.

Twitter: @ketab_n

وكان على لوف أن يُعيل زوجته، بالإضافة إلى نفسه، وكان حريصًا على أن لا يسمح لأيٍّ من أفراد أسرة ليستر بالاقتراب كثيرًا من كيس اللفت. وكان من دأبه إذا ما اقترب من منزل ليستر حاملًا شيئًا من اللفت، أو البطاطا الحلوة، أو أيَّ ضَرْبٍ من ضُروب الغذاء، أن يغادر الدربَ قبلَ نصف ميلٍ من مَوْقعِ المنزل، ويدورَ دورةً كبيرةً عَبْرَ الحقول، ولا يقربَ الدربَ من جديد إلّا إذا ضمنتْ له المسافة وقايةً كافية. أمّا اليوم فقد كان يبتغي أن يكلّمَ جيتر في أمرٍ ذي أهمّيّة كبيرة، فاجترأ على أن يدنوَ من المنزل أكثر ممّا فعل في أيِّما مرّة قُدِّرَ له أن يحمل فيها إلى بيته شيئًا من اللفت أو البطاطا الحلوة.

وكانت زوجة لوف، هي «بيرل» صغرى بنات جيتر ليستر. ولم تكن سنّها لِتزيدَ، عندما تزوّج منها في الصيف الماضي، على اثنتي عشرة سنة.

وراقب جيتر ليستر وذووه صهرَهم لوف مراقبةً دقيقة حين وقف في منتصف الطريق. لقد أنزل الكيس عن كَتِفه، ولكنه أمسك بِعُنُقِهِ بجُمْع كَفَّيْه القاسيتين. ولم يغيّرْ أحدٌ منهم موقعَه من الفِناء خلال العشرِ الدقائقِ الماضية. لقد تُرك أمرُ الخطوةِ التالية للوف وحده.

وإذا كان لوف قد وَفَدَ على المنزل ثم وقف، فذلك لأنّ ثَمَّةَ أسبابًا وجيهة دفعَتْه إلى ذلك. وإلّا لَما اجترأ على أن يقترب إلى مثلِ هذا المدى الذي يُسعف على إبلاغ الصوت. لقد أراد أن يُحدّث جيتر عن بيرل.

كانت بيرل تأبى أن تتكلم. كانت ترفض أن تقول كلمة، مهما بذل لوف من جهدٍ في إقناعها، ومهما استبدّ به الغضب لذلك. ليس هذا فحسب، بل لقد كانت تختبئ منه كلّما رجع من مستودع الفحم، حتى إذا عثر عليها أفلتت من قَبضته وفرّت إلى شَجَرات الرَّتَم حيث تحتجب عن البصر. وكانت تبيت هناك، الليلَ كلَّه، في بعض الأحيان، حتى يمضيَ لوف إلى عمله في صباح اليوم التالي.

Twitter: @ketab_n

ولم تكن بيرل تأبى الكلام لأنها لا تستطيعه، ولكنْ لمجرّد أنها لا تريد. وحين كانت في بيت أبيها، قبل أن يتزوجها لوف، كان من دأبها أن تجتنبَ سائرَ أفراد الأسرة، ونادرًا ما كانت تفتح فمها من مَطلعِ يومٍ من الأيام حتى انقضائه. وكانت أمُّها، إيدا، هي وحدها القادرة على التحدث معها، وحتى في تلك الحال لم تصطنع بيرل قَطّ غيرَ أحرفِ الجواب الإيجابيّة أو السلبيّة الأكثر عريًا. ولكنّ إيدا نفسها كانت كذلك. لقد بدأت تتحدث، طوْعًا لا كَرْهًا، خلالَ السنوات العشر الماضيات ليس غير. أمّا في ما قبل ذلك فقد أورثت جيتر البلاءَ نفسَه الذي تورِثُه بيرل، الآن، زوجَها لوف.

ووجّه لوف ضروبَ الأسئلة إلى بيرل، ورفَسها بقدَمه، وصبّ الماء على رأسها، وقذفها بالحجارة، وضربها بالعِصِيّ، وفعلَ كلَّ شيء خطر بباله وظنّهُ قادرًا على أن يجعلَها تتحدث معه. وكانت تبكي كثيرًا، وخاصة حين يوجّه لوف إليها إساءةً جدّيّة، ولكنّ لوف ما كان يعتبر ذلك محادثة. كان يريد منها أن تسأله ما إذا كان ظهرُه يؤلمُه، ومتى يعتزمُ أن يقصَّ شعره، ومتى ستمطر السماء من جديد. ولكنّ بيرل ما كانت لِتقولَ شيئًا.

لقد تحدّث إلى جيتر عدّةَ مرّات قبل اليوم عن متاعبه مع بيرل، ولكنّ جيتر لم يعرف ما خَطْبُها. فمنذ أن كانت طفلة صغيرة وهي على هذه الحال ـ كذلك قال. ولقد ظلّت إيدا معتصمةً بالصمت حتى السنوات القليلة الأخيرة. وما عجز جيتر، طَوالَ أربعين عامًا، عن التغلّب عليه، في زوجته إيدا، وُفّقَ الجوعُ إلى دحره. لقد حلّ الجوعُ عقدةَ لسانها، فهي لا تفتأ تشكو وتتظلم. ولم يحاول جيتر أن يقترحَ تجويع بيرل، لأنه كان يعلم أنها خليقةٌ بأن تمضيَ إلى مكانٍ ما التماسًا للطعام، وأنها سوف تجده.

Twitter: @ketab_n

ـ «يُخيَّل إليّ في بعض الأحيان أنّ الشيطان القديم قد ركبها»، كذلك قال جيتر غيرَ مرّة. «وفي اعتقادي أنه ليس عندها ذرةٌ من الدِّين. إنها سوف تدخل جهنّم بعد أن تموت، أنا على أتمّ اليقين من ذلك.»

وكان جيتر قد ألمع مرّةً فقال:

ـ «والآن، لعلّها غير سعيدة في حياتها الزوجية. لعلّها غير قانعة بما تقدّمه إليها.»

ـ «لقد عملتُ كلَّ ما أستطيع أن أفكّر فيه لأجعلَها راضية مسرورة. ففي كلّ أسبوع أذهب، يومَ دفع الأجور، إلى «فولر»، وأشتري لها شيئًا نفيسًا. أنا أحمل إليها السَّعوط، ولكنّها تأبى أن تأخذَ منه شيئًا. وأنا آتيها بقطعة صغيرة من الخام، ولكنّها ترفض أن تَخيطَها. يبدو وكأنها تريد شيئًا لا أملكه ولا أستطيع أن آتيَها به. وكم أتمنى لو أعرف ما هو ذلك الشيء. إنها فتاة صغيرة حلوة... إنّ غدائرها الشقراء المتدلّية حول عُنُقِها تكاد تُفْقِدُني صوابي في بعض الأحيان. أنا لا أدري ما الذي سيحلّ بي. إنّ أحدًا من الرجال ليس في حاجة إلى زوجته بقدر ما أنا في حاجة إلى بيرل.»

وكان جيتر قد قال:

ـ «أحسِبُ أنها لا تزال أصغر من أن تعرفَ قيمة الأشياء. إنها لم تكبُر بعدُ مِثْلَ إللي ماي وليزي بيلّ وكلارا وبناتي الأخريات. إنّ بيرل ليست غيرَ فتاة صغيرة. إنها لا تبدو وكأنها امرأة، حتى الآن.»

ـ «لو علمتُ أنها ستكون هكذا، لكان من الجائز أن لا أُبديَ مثلَ تلك الرغبة في الزواج منها. كان في إمكاني أن أتزوج امرأةً ترغب في أن تتزوج مني. ومع ذلك، فلستُ أزيد أن أفارق بيرل، الآن. يبدو وكأني تعوّدتُ أن أراها معي. وأنا واثق من أنّ ذهابَها سوف يحرمني رؤيةَ تلك الغدائر

Twitter: @ketab_n

الصفراء الطويلة المتدلّية على ظهرها، والتي تجعل المرء يحسّ وكأنه وحيدٌ مستوحش بطريقة ما. إنها من غير شكّ فتاة صغيرة حلوة، على الرغم من أنها تتصرف هذا التصرف دائمًا.»

وانقلب لوف إلى منزله تلك المرَّة، وأخبر بيرل بما قاله جيتر عنها، ولكنّها جلست على الكرسيّ ولم تبدُ عليها أقلّ أمارة تؤذن برغبتها في الإجابة. وبعد ذلك لم يدرِ لوف ما الذي ينبغي له أن يفعله. ولكنه أدرك منذ ذلك الحين أنها ما تزال فتاة صغيرة. ففي خلال الثمانية الأشهر التي انقضت على زواجهما ازداد طولُها ثلاث بوصات أو أربعًا، وازداد وزنها نحوًا من خمسة عشر رطلًا. ومع ذلك فإنّ وزنها لم يتعدّ مئة رطل إلّا قليلًا، على الرغم من أنها كانت تنمو وتمتلئ يومًا بعد يوم.

والواقع أنّ ما رغب لوف في أن يُدْلِيَ به إلى جيتر، الآن، هو رفضُ بيرل النومَ معه. لقد كاد ينقضي على زواجهما عام كامل وهي لا تزال تنام منفردةً، فِعْلَها منذ البداءة. كانت تنام وحدها، على الأرض، في فراشٍ من قشّ، وترفض أن تدع لوف يقبّلها أو يمسّها البتَّة. وكان لوف قد أخبرها أنّ البقرة لا تكون صالحة إلّا إذا وَلَدَت عجلًا، وأنّ السبب الذي حمله على زواجها هو رغبته في أن يقبّلها، ويلمس غدائرها الطويلة الصفراء ويضطجع معها. ولكنّ بيرل بدت وكأنها لم تسمع شيئًا من كلامه، أو تفهم شيئًا ممّا كان يتحدث عنه. وعلاوةً على رغبة لوف في تقبيلها والتحدث إليها، كان من همّه أن يرى إلى عينيها. ولكنّها أبت عليه حتى هذه المتعة. كانت عيناها الزرقاوان الشاحبتان تنظران أبدًا في اتجاه معاكس كلّما جاء ووقف إلى جانبها.

وكان لوف لا يزال واقفًا في منتصف الدرب، يتطلع إلى جيتر وسائر أفراد أسرته المجتمعين في الفِناء. كانوا ينتظرون منه أن يقوم بالخطوة

Twitter: @ketab_n

الأولى. وما همَّهم كثيرًا أن تكون تلك الخطوة ودّيّةً أو معادية، ما دام ثَمَّةَ في العِدل مقدارٌ من اللفت.

وكان جيتر يعجب من أين أتى لوف باللفت. ولم يخطر بباله قَطّ أنّ لوف اشتراه بماله. ذلك بأنّ جيتر كان قد انتهى منذ زمن طويل إلى هذا الاستنتاج: أنّ الطريقة الوحيدة التي تمكّن المرء من الحصول على شيء من الغذاء هي السرقة. ولكنه لم يوفَّق إلى أن يكتشف، هذا العامَ، حقلًا من حقول اللفت في أيِّما مكان ضمن دائرة يبلغ نصف قطرها خمسة أميال أو ستة. لقد زُرع في العام الماضي حقلٌ مساحته أكران اثنان في أراضي «بيبودي»، ولكن رجال «بيبودي» كانوا يُبعدون الناس عن الحقل بنيران بنادقهم. وفي هذا العام ذهبوا إلى أبعد من ذلك فلم يزرعوا اللفت على الإطلاق.

وقال جيتر:

ـ «لماذا لا تتقدّم إلى الفِناء بدلًا من أن تقف في هذه الطريق، يا لوف؟ إنه ليس من الحكمة أن تبقى هناك. تعالَ واسترِح قليلًا.»

ولم يُحِرْ لوف جوابًا، بل لم يُبْدِ حراكًا. كان يوازن بين الخطر المتمثل في الاقتراب من الفِناء، والسلامة المتمثلة في البقاء في موقفه من الطريق.

وطَوالَ الأسابيع القليلة الماضية كان لوف يفكّر في أن يأخذ بعض حبال الحراثة ويشدّ وَثاق بيرل، ليلًا، في الفراش. لقد جرّب كلّ ما استطاع أن يفكّر فيه حتى الآن ما عدا العنف، وكان لا يزال مصمّمًا على أن يجعلَها تسلك المسلك الذي اعتقده واجبًا على الزوجة. ولقد انتهى الآن إلى تلك النقطة التي احتاج فيها إلى نصيحة جيتر قبل أن يمضيَ قُدُمًا في إنفاذ خطته. وكان يعتقد أنّ جيتر خليقٌ بأن يعرف ما إذا كانت تلك الخطة محمودةً من الناحية العمليّة، ما دام قد كُتب عليه أن يتنازعَ مع إيدا عمرَهُ كلَّه أو معظمه.

Twitter: @ketab_n

لقد عرف أنّ إيدا تصرّفت ذات يوم مثلَ تصرّف بيرل الحاليّ... ولكنّ جيتر لم يُعامَل كما قد عومِل هو، لأن إيدا أنجبت له سبعة عشر ولدًا، على حين أنّ بيرل لم تبدأ بعد في إنجاب الولد الأول.

وإذا قال جيتر إنّ من الخير أن تُشَدَّ بيرل إلى الفراش فعندئذٍ يمضي قُدُمًا ويقوم بهذا العمل. إنّ جيتر لَيعرف عن هذه الأشياء أكثر ممّا يعرف هو. فقد سلخ جيتر أربعين سنة وهو زوج لإيدا.

وكان لوف يرجو أن يُبديَ جيتر استعداده للذهاب إلى منزله القائم قرب مستودع الفحم، ومساعدته على تقييد بيرل في الفراش. ذلك بأنّ بيرل كانت تقاوم في ضراوة كلّما حاول أن يُمسِكَ بها، حتى لقد صار يخشى أن لا يوفَّق إلى عمل شيء من غير مساعدة جيتر.

وفي الفِناء، وعند السقيفة الأماميّة، وقف جيتر وذووه ليروا ما الذي سيعمله لوف بعد ذلك. ولم يكن في المنزل، ذلك اليوم أيضًا، غيرُ قليلٍ من الطعام. كان بعضُ الحَساءِ المالح الذي صنعتْه إيدا بأن غلت بضعَ قِطَعٍ من شحم الخنزير، في قِدْرٍ من الماء، وبعض خبز الذرة، كلّ ما وجدوه على مائدتهم حين جلسوا للطعام. وما كان ذلك ليكفِيَهم جميعًا، ولقد اضطرّوا إلى إبعاد الجدّة العجوز عن المطبخ حين حاولَت الدخول إليه.

ووقفت إللي ماي خلف شجرة أَزْدَرَخْت، وراحت تنظر إلى لوف. لقد حرَّكت رأسها من جانبٍ من الشجرة إلى جانب محاوِلةً أن تلفتَ نظر لوف.

وكانت «إللي ماي» و«دْيُود» هما ولدي جيتر الوحيدَيْن الباقيين في البيت. لقد ذهب سائر الأولاد وتزوجوا. وغادر بعضهم البيت في كثيرٍ من الهدوء، وكأنهم يمضون إلى مستودع الفحم ليَرَوْا إلى قُطر الشحن. حتى إذا لم يرجعوا في مدى يومين أو ثلاثة عُلم أنهم فارقوا المنزل.

Twitter: @ketab_n

وكان دْيُود يقذف جانب البيت بكرة ثقيلة غير مستوية من كرات «البيسبول» ثم يلتقطها حين تنقلب إليه. وكانت الكرة تصيب البيت بمثل هزيم الرعد، مذبذبةً الألواح غير المتماسكة إلى درجة جعلت المنزل كلَّه يتمايل ذات اليمين وذات الشمال. لقد قذف الكرة قذفًا موصولًا، فهي ترتدّ عَبْرَ الفِناء الرملي إلى حيث كان يقف.

وكان المنزل ذو الغرف الثلاث ينهض متقلقلًا على أكداس من شظايا كلسيّة رقيقة وُضعت تحت الزوايا الأربع. وأُقيمت الحجارة واحدًا فوق آخر، وسُمِّرَتِ العوارضُ الخشبية، وشُدَّ المنزل كلُّه بعضُه إلى بعض. والواقع أنّ السهولة والبساطة اللتين بُني بهما غدتا الآن واضحتين. لقد انخفض منتصف البناء بين العتَبات، وانخفضت الشرفةُ فهي اليومَ أدنى ممّا كانت عليه من قبلُ بقدم أو أكثر. وانخفض السقف في الوسط حيث أُقيمت العوارض الداعمة في كثير من الإهمال. وبَلِيَتْ الكثرةُ الكبيرة من الألواح الخشبية، فكانت أجزاء منها تُبعثر في كلّ ناحية من نواحي الفِناء إثر كلّ عاصفة من العواصف. وكان من دأب أسرة ليستر أن تنتقل، حين يرشَح السقف، من زاوية في الغرفة إلى أخرى، حتى ينقطع المطر آخِرَ الأمر. ولم يُدهن المنزل ذات يوم قَطّ.

وكان جيتر يحاول أن يرقع طوق مطّاطٍ داخليّ متهرّئ. لقد قال إنه إذا وُفّقَ إلى إصلاح جميع دواليب السيارة العتيقة دفعةً واحدة فعندئذٍ ينقل حملًا من الحطب إلى أوغوستا ويبيعه. وكان الحطابون يحصلون على دولارين لقاء كلّ حملٍ من الصنوبر المجفّف ينقلونه إلى المدينة. ولكنّ السنديان الأسود الذي حاول جيتر أن يحمل الناس على شرائه للوقود لم يعد عليه في أيِّما يوم من الأيام بأكثر من خمسين أو خمسة وسبعين سنتًا. وكان إذا ما وُفّق إلى نقل حملٍ منه إلى أوغوستا، يعجز في أكثر الأحوال عن بَيْعه. لقد بدا وكأنّ أحدًا في تلك المدينة لم يكن من الحمق بحيث يشتري

Twitter: @ketab_n

حطبًا هو أصلب من أنابيب المياه الحديدية. وكان الناس يناقشون جيتر الراغب، في مثل عناد البغال، أن يبيع السنديان الأسود، ويحاولون إقناعه بأنه لا يَصْلُح البتّةَ وَقودًا. ولكنّ جيتر كان يجيب بأنه يريد أن يجرِّد أرضَه من ذلك السنديان الرديء استعدادًا لحَرْثها من جديد.

وكان لوف قد خطا، في تلك الأثناء، بِضْع خطوات نحو الفِناء، وجلس على طريق التبغ، واضعًا قدميه في القناة. لقد أبقى إحدى يديه قابضةً في إحكام على عنق الكيس المطوّقة بخيط غليظ من القنّب.

وواصلت إللي ماي اختلاس النظر من وراء شجرة الأَزْدَرَخْت محاوِلةً أن تلفِتَ انتباه لوف. وكلّما وجّه بصره في ذلك الاتجاه ردّت رأسها إلى الوراء لكي لا يراها.

وصاح جيتر عَبْرَ الفِناء:

ـ «أيّ شيء في ذلك الكيس، يا لوف؟ لقد رأيتك تُقبل من بعيد وهذا الكيس على ظهرك. مؤكّد أني أحبّ أن أعرف ماذا وَضَعْتَ في جَوْفِه. لقد سمعتُهُم يقولون إنّ بعض الناس حصلوا على شيء من اللفت في هذا العام.»

وأحكمَ لوف قَبْضَتَه على عنق الكيس منقِّلًا طَرْفهُ من جيتر إلى سائر أفراد الأسرة، واحدًا إثر واحد. فرأى إللي ماي تسترِقُ النظر إليه من وراء شجرة الأَزْدَرَخْت.

وسأله جيتر:

ـ «هل تعبتَ كثيرًا في الحصول على ما في جوف ذلك الكيس، يا لوف؟ يبدو وكأنك منقطع النَّفَس تمامًا.»

فقال:

ـ «أريد أن أقول لك شيئًا، يا جيتر. إنه يدور حول بيرل.»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ «ماذا فعلتْ تلك الصغيرة الآن؟ ألا تزال تعاملك معاملةً وضيعة؟»

ـ «إنها لا تزال كما كانت من قبل. كلّ ما في الأمر أني لم أعد أطيق هذه الحال. أنا لا أحبّ أسلوبَها هذا. ولم أَمِلْ مرّةً إليه. ولكن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ. وجميع الزنوج يسخرون مني بسبب الطريقة التي تعاملني بها.»

فقال جيتر:

ـ «إنّ بيرل مثل أمّها تمامًا. لقد كانت أمُّها تعمل، في زمانها، أعجبَ الأشياء.»

ـ «كلّما حاولتُ الاقترابَ، ولّت فِرارًا ولم ترجِع برغم دعوتي لها. والذي أحبّ أن أقوله الآن هو هذا: ما الحكمةُ في زواجي من امرأة إذا لم أحصُل على شيء من الفائدة؟ إنّ الله لم يُقدِّر للزواج أن يتّخذ هذه الوُجهة. إنه لا يريد أن يُعامَلَ الرجل مثلَ هذه المعاملة. مِنَ المستحسن أن تناكدَ المرأةُ الرجلَ لكي تحمِلَهُ على أن يعمل ما تريده، ولكنّ بيرل لا تهدف إلى ذلك في ما يبدو. إنها لا تقصد إلى مناكدتي، ولكنّ موقفها مني لا يختلف عن المناكدة في شيء. إني في هذه اللحظة بالذات أُحِسّ أني في حاجة إلى امرأة ليست على هذه الغاية من...»

فقال جيتر:

ـ «أيّ شيء عندك في ذلك الكيس، يا لوف؟ لقد سلختُ ساعةً أو أكثر وأنا أراقبك منذ أن وصلتَ إلى قمة تلك التلّة البعيدة هناك.»

فقال لوف، وهو ينظر إلى نساء الأسرة:

ـ «لِفت، وحقِّ الإلّه.»

ـ «ومن أين أتيت باللفت، يا لوف؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «أنت حريص على أن تعرف، إيه؟»

ـ «لقد كنتُ أفكّر ما إذا كان في إمكاننا أن نعقدَ صفقة، أنا وأنت، يا لوف. إنّ في استطاعتي الآن أن أقصِدَ إلى بيتك وأقولَ لبيرل، بطريقة ما، إنّ عليها أن تنام في الفراش معك. ذلك ما كنتَ تريد أن تحدّثني عنه، أليس كذلك؟ أنت تريد منها أن تنام في الفراش، أليس كذلك؟»

ـ «إنها لم تنم قطّ في سريري. إنها تنام كلّ ليلة على فراش القشّ الموضوع على الأرض. أظنّ أنّ في استطاعتك أن تجعلَها تكُفّ عن ذلك، يا جيتر؟»

ـ «يسرُّني كثيرًا أن أوفّقَ إلى حمْلها على أن تفعلَ ما لا تفعله. يعني، إذا استطعْتُ أنا وأنت أن نتفاهمَ على كيس اللفت، يا لوف.»

ـ «من أجل هذا جعلتُ طريقي من هنا ـ لكي أحدِّثَك عن بيرل. ولكنّي مع ذلك لن أدعك تأخذ أيًّا من أقراص اللفت هذه. كان عليّ أن أدفع خمسين سنتًا ثمنًا لهذا الكيس، وكان عليّ أن أمشيَ المسافة كلَّها من منزلي إلى فولر ذهابًا وإيابًا لكي أحصُل عليه. أنت والد بيرل. وإنَّ من واجبك أن تحملَها على أن تسلُكَ المسلَكَ الصحيحَ من غير أن تتقاضى ثمنًا. إنها لا تُلقي بالًا لكلّ ما أطلبُ إليها أن تفعله.»

ـ «وحقِّ الإلَه والمسيح، يا لوف، إنّ جميع أقراص اللفت الملعون التي قطفتُها هذا العام يتأكّلها الدّود. ولم تقع عيني على قرص لِفت جيّد واحد، هذا الربيع، منذ سنة كاملة. إنّ كلّ اللفت الذي جنيتُه يحتوي في جوْفِه على تلك الديدان اللعينة ذاتِ الأمعاء الخضراء، يا لوف. لأيّ شيء خلق الله ديدان اللفت؟ هذا ما لا أستطيع أن أفهمه. يُخيَّل إليّ أنه لم يوجِدْها إلّا نكايةً بالفقراء. لقد اشتغلتُ طولَ الخريف الماضي، في حَفْرِ قطعةٍ من الأرض لكي أزرعَ بعضَ أقراص اللفت فيها، ولكنّها لم تكد تنمو وتصبح

Twitter: @ketab_n

صالحةً للقطف والأكل حتى جاءت هذه الديدان اللعينة الخضراء الأمعاء وشقّت طريقها إلى قلبها. إنّ الله يكره الفقراء ويبيِّت لهم الشرّ. أنا لا أشكو، يا لوف، أنا أقول إنّ الله أعلمُ منّا كلِّنا بما ينبغي أن يُعمل باللفت. إنه سيُغدق علينا، في يومٍ من الأيام، الخير والنعمة، وعندئذٍ نحصُل كلُّنا، نحن الفقراء، على طعامٍ وافر نأكله، وكساء كثير نلبسه. فليس من الممكن أن تستمرّ الحال هكذا سائرةً من سيّئ إلى أسوأ، كلّ عام، كما حصل منذ نهاية الحرب الكبيرة. إنّ الله لا بدّ أن يضع حدًّا لذلك، في يوم من الأيام، ويحمل الأغنياء على إعادة كلّ ما أخذوه منا نحن معشرَ الفقراء. إنّ الله سوف يُنْصفنا. وهو لن يسمح للأشياء بأن تستمرَّ كما هي اليوم. ولكن علينا أن نكفّ عن سبِّه كلّما عجَزنا عن الحصول على شيء نأكله. إنه يبعث بكلّ من لا يُقلع عن ذلك إلى جهنّم، حيث يُقيم الشيطان.»

وسحب لوف كيسَ اللفت عَبْرَ القناة، ثم قعد من جديد. ووضع جيتر طَوْقَ المطّاط الداخليّ المهترئ جانبًا، وانتظر.

Twitter: @ketab_n

- 2 -

فتح لوف الكيس، واختار قرص لِفت كبيرًا، ونظّفه بكلتا يديه، وعضّه ثلاث عضات متواليات. ووقفت النسوة من أسرة ليستر في الفِناء وعلى الشرفة ورُحْن يحَدّقن إلى لوف وهو يأكل. وفارقت إللي ماي شجرة الأَزْدَرَخْت وجلست على جذع صنوبرة يابس، غير بعيد عن لوف. واحتفظت إيدا والجدّة العجوز بمكانهما عند الشرفة وراقبتا قرص اللفت في يد لوف، وقد غدا أصغر فأصغر إثر كلّ عضة.

وقال لوف:

ـ «لو كانت بيرل تشبه إللي ماي بعض الشَّبَه لَما عاملتْني هذه المعاملة. ولقد كنتُ جديرًا بأن آخذ إللي ماي منذ البدء لولا وجهها ذاك. ولكنّي كنت أعرف أنني لن أستطيع أن أنام الليل مرتاح البال وهي تضطجع إلى جانبي في الفراش، وأنا عالِمٌ كيف يبدو وجهها في النهار. إنّ بيرل جميلة، وهي فتاة مليحة يرغب المرء في أن ينام معها، ولكنّ المشكلة أني لا أستطيع أن أقنعها بمغادرة فراش القش اللعين المطروح على الأرض كلّما هبط الليل. يجب عليك أن تذهب إلى هناك وتفرض عليها أن تتصرف كما ينبغي، يا جيتر. لقد تزوجتُها منذ فترة تقارب السنة، وكان في إمكاني أن أجرف الفحم

Twitter: @ketab_n

في المستودع، طُولَ الليل والنهار، من غير أن أعود إلى منزلي. تلك ليست الطريقة التي ينبغي أن تُتَّبَع. لأنّ من حق الرجل أن يرغب في رؤية زوجته إلى جانبه في السرير، عندما تسقط العتمة. أنا لم أسمع في حياتي أنّ هناك امرأة تحبّ أن تنام على فراش قشّيّ ملعون، منطرح على الأرض، كلَّ ليلة من ليالي السنة بكاملها. إنّ بيرل عجيبة حقًّا من هذه الناحية.»

وهنا قال جيتر موجِّهًا الخطاب إلى دْيُود:

ـ «بحقّ الإلَه والمسيح، ألستَ تنوي أن تكفّ عن قذف ذلك البيت العتيق بهذه الكرة؟ لقد كدتَ تُسقط الألواح الخشبية وتقوّض دعائم البيت. ولا شكّ في أنّ هذا المنزل العتيق سوف يتداعى ويقع على الأرض، في يومٍ من الأيام، إذا لم تُقلع عن عملك هذا.»

وتناول جيتر طوق المطّاط الداخليّ كَرّةً أخرى، وحاول أن يُثبّت الرقعة على الجسم المطّاطيّ. وكانت السيارة العتيقة التي أسند ظهره إليها هي آخر ممتلكاته. ففي السنة الماضية ماتت البقرة، مخلّفةً إياه وحيدًا مع سيارته. وحتى ذلك الحين كان من دأبه أن يُكثر من التباهي بما يملك، ولكن حين ماتت البقرة انقطع عن ذكر السيارة انقطاعًا تامًّا. لقد بدأ يدرك أنه في الحق رجل فقير. فلم يبق عنده ما يستطيع أن يرهنه حين يُقبل الربيع ويحين أوان شراء سماد الطير وبزر القطن. لقد رفض المتاجرون بحطام الحديد، في أوغوستا، أن يشتروا سيارته. ولكنه لا يزال يملك شيئًا من الحطب يستطيع أن يبيعه: حطب تلك السنديانة النحيلة القاسية القائمة خلف المنزل. وإنما كان يحاول الآن أن يرقع طوق المطّاط الداخليّ لكي يستطيع أن ينقل حملًا من هذا الحطب إلى أوغوستا ذات يوم من أيام ذلك الأسبوع. لقد قالت إيدا إنّ الطحين كلَّه قد نفد، وكذلك اللحم. وها قد بدأوا يعيشون، منذ عدَّة أيام، على شيء من شحم الخنزير، حتى إذا نفد هذا أيضًا لم يجدوا ما يأكلونه.

Twitter: @ketab_n

وكان حمل الحطب خليقًا بأن يعود عليه في أوغوستا، بخمسين أو خمسة وسبعين سنتًا، إذا ما وجد رجلًا يشتريه. ويوم ماتت البقرة العجوز، حمل جيتر جثتها إلى مصنع السماد الكيماوي في أوغوستا وباعها بدولارين وربع الدولار. أمّا في ما بعد فلم يبق عنده ما يبيعه غير الحطب.

وقال جيتر:

ـ «كُفَّ عن ضَرْب الجدار بتلك الكُرة الملعونة، يا دْيُود. إنك لا تنقطع يومًا عن عمل شيء أحظره عليك. تلك ليست هي الطريقة التي يعامل بها الابن أباه الشيخ، يا دْيُود. ينبغي لك أن تبذل جهدك في مساعدتي، لا أن تعمل دائمًا نقيض ذلك.»

فقال دْيُود، وهو يلقي بالكُرة إلى جانب المنزل بكلّ قوّته ثم يتلقّفها في سرعة من على مستوى الأرض:

ـ «أوه، إذهب إلى الجحيم أيّها الغبيّ العجوز الذي جفّ ماؤه! إنّ أحدًا منا لا يسألك شيئًا.»

ودبّت الجدّة العجوز، أمّ جيتر، تحت السقيفة الأماميّة التماسًا لكيس الخيش العتيق، واتخذت سبيلها عَبْرَ طريق التبغ إلى الغابة لكي تجمع بعض الأغصان المَيْتة. ولم يلتفت أحدٌ إليها على الإطلاق.

إنهم لم يحتطبوا يومًا لا لموقد المطبخ ولا للمدفأة. فما كان جيتر ليقوم بهذا العمل، وما كان بقادرٍ على أن يُكره دْيُود على القيام به. وكانت الجدّة العجوز تعرف أنه لم يكن عندهم طعام يطبخونه، وأنّ من العبث الذي لا طائل تحته أن تمضيَ فتلتمس الأغصان المَيْتة وتُشعل بها النار في الموقد، ولكنّها كانت جائعة، وكانت ترجو دائمًا أن يمنّ الله عليهم بشيء إذا ما أشعلت النار في المطبخ أو عندما يحين وقت الطعام. وكاد الجوع يذهب

Twitter: @ketab_n

بعقلها منذ رأت أنّ ثَمَّةَ لِفتًا في كيس لوف. كان في استطاعتها بعض الأحيان أن تحتمل ألم الجوع في مَعِدتها حين تعلم أنْ ليس هناك ما تأكله، ولكنّها ما إن رأت لوف، أمامها، يُخرج أقراص اللفت من العِدل حتى عجزت عن أن تطيق النظر إلى طعام ليس يسمح لها أحدٌ بأن تمسّه.

وراحت تَعرُج عرجًا خفيفًا عَبْرَ الطريق وفوق حقل القطن القديم الذي لم يُزرع ولم يُحرث منذ ستة أعوام، أو سبعة. وفي البدء كان الحقل مغطًّى ببعض النباتات الشائكة، أمّا الآن فإنّ فروعًا صلبةً كثيرة العُقد من سنديان أسود حديث النشأة قد أخذت تغطي الأرض. لقد تعثرتْ وسقطتْ عدَّة مرّات في طريقها إلى الغابة، وكانت ثيابُها قد مُزِّقت من قبلُ تمزيقًا شديدًا حتى لقد صار من المتعذِّر تمييزُ المِزَق الجديدة من المِزَق القديمة في تنورتها وسترتها. والواقع أنّ تنورتها وسترتها هاتين غدتا أشبه بالخِرَق المتقطعة لكثرة ما نخَسَهما العَوْسَج والسنديان الأسود، في الأَجَمة، حيث كانت تجمع الأغصان المَيْتة للوقود. ولم يشترِ لها أحدٌ في يومٍ من الأيام ثيابًا جديدة. والواقع أنها بدت، وهي تَظْلَعُ في أسمالها السوداء، عَبْرَ الرّتَم الأسمر، وكأنها نُطّارٌ(*) عتيقٌ بالٍ.

وصفرت ريح شباط من خلال مِزَق الثوب الأسود مُديرةً إيّاها في الهواء حتى لقد بدت وكأنها ترتجف ارتجافَ المصاب بالشلل الاهتزازي. وكانت قد اتخذت من بعض المِزَق الطويلة السوداء جوربًا لفّته حول رجليها وعقدت أطرافه. وكان حذاؤها مصنوعًا من مِزَقٍ طوقٍ من أطواق الخيل شُدّت على قدميها ببعض الأشرطة. وكانت تخرج في طلب الأغصان المَيْتة، صباحًا، وظهرًا، ومساءً. حتى إذا رجعت إلى المنزل أضرمت النار في موقد المطبخ، وقعدت تنتظر.

(*) النُّطّار: الفزّاعة أو الخيّال المنصوب بين الزرع.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

وأزاحت إيدا عود السَّعوط من أحد جوانب فمها إلى الآخر، وتطلّعت في تَوْق إلى لوف وكيس اللفت. ثم إنها أحكمت تغطية صدرها بثوب الخام المتهدّل وقايةً لنفسها من ريح شباط الباردة الهابّة تحت سطح الشرفة. أمّا سائر أفراد الأسرة فكانوا إمّا قاعدين أو واقفين في الشمس.

ونزلت إللي ماي من جذع الصنوبر اليابس، وقعدت على الأرض. لقد اقتربت نحو لوف أكثر فأكثر، منسابةً فوق الرمل الأبيض القاسي.

وسأل جيتر صهره لوف:

ـ «هل تنوي أن تعمل معي ترتيبًا من أجل هذه الكمية من اللفت؟ أنا محتاج إلى اللفت حاجةً اللهُ وحده يعرف مقدارها!»

فقال لوف:

ـ «لن أعمل أيَّ ترتيب مع أيِّ إنسان!»

ـ «اسمع، يا لوف، ما هكذا يتحدث الناس. إنّ عينيّ لم تقع على قرص لِفتٍ جيّد منذ عام كامل. كلّ أقراص اللفت التي أكلْتُها كانت تعجّ بتلك الديدان الملعونة ذات الأمعاء الخضر. وأنا على ثقة من أني أحبّ أنْ أحصُلَ على بعض اللفت الجيّد الآن. إنّ الأقراص المدوّدة، كالتي أكلْتُها من قبل، لا تَصلُح طعامًا للبشر.»

فقال لوف وهو يلتهم قرص اللفت الرابع:

ـ «اذهبْ إذن إلى فولر واشترِ ما تريد منه. لقد قصدتُ أنا إلى هناك لكي أشتريَ هذه الكمية.»

ـ «اسمع يا لوف، ألم أُحسن دائمًا إليك؟ ما هكذا يتكلم الناس. أنت تعرف أني لا أملك فلسًا، وأني لا أدري من أين أحصُل على المال. إنّ عندك وظيفة طيّبة تقدّم إليك كومةً من المال. فينبغي أن تعقد معي صفقةً بحيث

Twitter: @ketab_n

يكون عندي شيء آكله، ولا أجوع حتى الموت. أنت لا تحبّ أن تقعد هناك وتراني أتضور من الجوع، أليس كذلك، يا لوف؟»

ـ «أنا لا أحصُل على أكثر من دولار واحد يوميًّا، في مستودع الفحم. إنّ أجرة البيت تستنفد معظم ذلك، في حين يستنفد الطعام البقيّة الباقية.»

ـ «لا بأس، يا لوف. أنا ليس في جيبي فلس، أمّا أنت فعندك.»

ـ «وماذا تريدني أنْ أعمل؟ إن الربّ يحبّنا حبًّا متساويًا، كما يقولون. وهو يعطيني نصيبي؛ أمّا إذا نَسِيَ أن يعطيَك نَصيبَك فمِن الأفضل أن تتحدّث إليه هو في ذلك. إنه ليس من شأني على الإطلاق. وإنّ عندي متاعب شخصية كثيرة. بيرل لا تريد مطلقًا أن...»

وهنا صاح جيتر:

ـ «ألا تريد أن توقِفَ قذْف تلك الكُرة اللعينة إلى البيت، يا دْيُود! إنّ هذه الضجة تكاد تفلق رأسي المسكين فَلْقًا!»

وقذف دْيُود الألواح القلِقة بكُرة البيسبول، أقوى ما يستطيع أن يقذف. فتساقطت قطعٌ من خشب الصنوبر على الفِناء، وهوت الجذوع المتهرّئة إلى الأرض، قُرْبَ المنزل. وبدا وكأنّ دْيُود كان يقذف الكرة كلّ حين بعزم أشدّ، وقوّة أعظم. وغيرَ مرّة، كادت الكرة أن تخترق جدران البيت الرقيقة.

وقال دْيُود:

ـ «لماذا لا تذهب إلى مكانٍ ما وتسرق كيسًا من اللفت؟ أنت لا تصلح لشيء غير ذلك. إنك تقعد هنا ولا تنقطع لحظةً عن السبّ واللعن لأنه ليس عندك شيء تأكله، ليس عندك لِفت. لماذا لا تذهب إلى مكان من الأمكنة وتسرق شيئًا؟ إنّ الله لن يبعث إليك بشيء. إنه لن يُنزل عليك اللفت من

Twitter: @ketab_n

السماء. وليس عنده متَّسَع من الوقت يضيِّعه في ممازحتك. لو لم تكن كسولًا إلى حدٍّ لعين لَقُمْتَ بعمل ما، بدلًا من أن تقعدَ وتجدِّفَ طُولَ النهار.»

فقال جيتر:

ـ «كلُّ أولادي يلومونني لأنّ الله يرى من المناسب أن أكون فقيرًا مُعْدَمًا يا لوف. إنهم وأمَّهم يقضون الوقت في لَعْني لأنه ليس عندنا شيء نقتات به. وما الذي أستطيع أن أعمله أنا في هذه الحال؟ وما ذنبي إذا كان الكابتن جون قرّر أن يقطع عنّا الأرزاق والسَّعوط؟ إنها غلطته، يا لوف. لقد عملتُ طُولَ عمري في خدمة الكابتن جون. لقد عملتُ في الحقول أكثر من أيّ أربعةٍ من زنوجه فكانت النتيجة أن جاء إلى هنا ذاتَ صباح وقال إنه لا يستطيع أن يسمح لي بعد اليوم بأن آخذ من المخزن شيئًا من الطعام والسَّعوط. وبعد ذلك، باع جميع البغال وذهب إلى أوغوستا ليقيم فيها. أنا لا أستطيع أن أكسب فلسًا لأنّ أحدًا لا يعطيني عملًا. وليس هناك من يحتاج اليومَ إلى مزارعين يستأجرون الأرض لقاءَ نسبة من الغلّة. ولم أجد قَطُّ عملًا بالأجرة أقوم به. بل إني لا أستطيع أن أزرع شيئًا لحسابي، لأنه ليس عندي بغل، ولأنه ما من رجل يرضى أن يبيعني بزر القطن وسماد الطير من غير أن يقبض الثمن نقدًا، وهكذا صرْتُ لا أحصُل على شيء من السَّعوط والأرزاق، إلّا بين وقتٍ وآخر حين أنقل إلى أوغوستا حملًا من الحطب. وطلب الكابتن جون من التجار في فولر أن لا يُعطوني أيَّ مقدار من السَّعوط والأطعمة على حسابه، ولستُ أدري أبدًا أين أجد ذلك بعد اليوم. ولقد كان في إمكاني أن أزرع شيئًا لحسابي في هذه الأرض لو وجدتُ من يوقّع السندات الخاصة بالسّماد نيابةً عني، ولكن ليس هناك رجلٌ مستعدٌّ لأن يُسْدِيَ إليّ هذه الخدمة أيضًا. ذلك ما أريد أن أعمله على وجه الخصوص في هذه اللحظة. فحين ينتهي الشتاء ويحين إشعالُ الرَّتَم في الحقول والشُّجَيْرات النامية في الغابات أجد نفسي، في الحقيقة، على وشك البكاء.

Twitter: @ketab_n

إنّ رائحة دخان الرَّتَم تكاد تخبّلني في هذه الفترة من السنة. وما هي إلّا أيام حتى يبدأ المزارعون في الحراثة. وهذا ما يجعلني أغتاظ أكثر ما يكون. وحين أستروح عَبَقَ تلك الأرض الجديدة وهي تتقلّب خلف المحاريث يستولي عليّ الضعف والارتجاف. إنه شيء في دمي: إحراقُ الرَّتَم وحراثة الأرض في هذا الفصل من السنة. لقد قمتُ بذلك نحوًا من خمسين عامًا، وكان أبي وأبو أبي من هذا النوع من الرجال أيضًا. نحن أبناء ليستر نحبّ من غير شكّ أن نثير الأرض ونحملها على الإنبات. أنا لا أستطيع أن أهاجر إلى مصانع القطن، كما يفعل الآخرون. إنّ للأرض سلطانًا كبيرًا عليّ.

«وفوق ذلك، فهذه الكومة من النساء والأولاد تخور طُولَ الوقت طالبةً الطعام والسَّعوط. وليس يخفّف من خُوارها أن تعلم أني لا أملك شيئًا أشتري به قوتًا ـ فهي تريد الطعام والسَّعوط على أيّ حال. ويخيّل إليّ، يا لوف، أنّ عليّ أن أنتظر حتى يمنّ الله علينا بشيء من عنده. يقولون إنه يهتمّ بمخلوقاته، وإني أنتظر أن يلتفت إليّ بعض الالتفات. ولست أظنّ أنّ في هذه المسافة الممتدة من هنا إلى أوغوستا رجلًا في مثل تعاستي. لا، ولا في الناحية الأخرى الممتدة من هنا إلى ماك كوي. يبدو لي وكأنّ لكلّ الناس ممتلكاتهم وأموالهم، ما عداي. ولست أعرف لذلك سببًا، لأني أعطي الربّ الكريم حقه دائمًا. لقد كنتُ أنا وإياه أمينين في تعاملنا، على شكل متواصل. ولقد آن له أن يتنبه إلى الورطة التي أنا فيها. أنا لا أعرف ما الذي ينبغي أن أعمله غير أن أنتظر التفاتةً منه نحوي. وليس يفيدني شيئًا أن أحاول استجداء السَّعوط والموادّ الغذائية لأنه ما من أحد من الناس على استعداد لإعطائي ما أريد. لقد حاولت ذلك في كلّ بقعة من بقاع هذه المنطقة، ولكنّ أحدًا لم يُلقِ بالًا لتوسّلاتي. لقد قالوا لي كلُّهم إنه لم يبقَ عندهم شيء على الإطلاق، ولكنّي لا أستطيع أن أفهم ذلك. وليس يبدو معقولًا أن يُكتب البؤس على كلّ من بقي في الريف ولم يذهب إلى مصانع القطن. ولنفرض أني رجل

Twitter: @ketab_n

آثم، ولكنّي لا أدري أيَّ خطيئة ارتكبتُ. أنا لا أذكر، في ما يبدو، أنّي اقترفتُ إثمًا كبيرًا. لا، ولم أكن من قبلُ على مثل حالي اليوم. وفي استطاعتي أن أذكر أنّ جميع التجار في فولر كانوا منذ فترة قصيرة يبتهجون بأن يدينوني، وأنّ جيوبي كانت طافحةً، دائمًا، بالمال. لقد بِيع رطل القطن بأكثر من ثلاثين سنتًا، وما كان أحد يأتي لجمع الديون. وفجأةً انقطع تجار فولر عن إعطائي شيئًا بالدَّيْن، وبعد فترة جاء منفّذ الأحكام واستولى على جميع ما أملك تقريبًا. أخذ آخِرَ قطعة من ممتلكاتي ما عدا تلك السيارة العتيقة والبقرة. لقد قال إنّ البقرة غير صالحة لأنها لن تلد بعد اليوم، وقال إنّ عجلات السيارة كلَّها مهترئة.

«والآن أنا لا أستطيع أن أستدين شيئًا، ولا أجد شغلًا بأجر، وليس ثَمَّةَ من يرغب في أن أعمل على أرضه لقاء نسبة من الغلّة. وإذا لم يُسارع الربّ إلى إغاثتي فقد تفوت فرصة إنقاذي من متاعبي.»

وتمهّل جيتر ليرى ما إذا كان لوف يستمع لكلامه. ولكنّ لوف كان قد أدار رأسه في اتجاهٍ آخر. كان يرنو في تلك اللحظة إلى إللي ماي، بعد أن وُفِّقَتْ آخِرَ الأمر إلى أن تفوز ببعض اهتمامه.

واقتربَت إللي ماي نحو لوف شيئًا بعد شيء. كانت تتحرك عَبْرَ الفِناء بأن ترفع ثقلها على يديها ورجليها وتزحف فوق الرمل الأبيض القاسي. وكانت تتبسّم للوف، وتحاول أن تجذب انتباهه جذبًا أقوى. ذلك أنها ما عادت قادرةً على أن تنتظر أن يأتيَ هو إليها، فقررت أن تمضيَ هي إليه. وكانت شَفَتُها الشّرْماء قد افترّت عن أسنانها، جاعلةً فمَها يبدو وكأنما لا شَفَةَ عُليا لها على الإطلاق. ولكنّها كانت في الثامنة عشرة الآن، وكانت قد بدأت تكتشف أنه لا يجوز أن يتعذّر عليها الفوز برجلٍ، على الرغم من مظهرها ذاك.

Twitter: @ketab_n

وقال ذُيُود لجيتر:

ـ «إنّ إللي ماي تعمل كما كان كلبُك العجوز يعمل حين يصيبه الجرَب. أنظر إليها كيف تحكّ عَجُزَها بالرمل. ولقد كان الكلب العجوز يطلق نفس الصوت الذي تطلقه إللي ماي، أيضًا. إنه أشبه بصوت خنزير صغير يصيح، أليس كذلك؟»

فقال جيتر:

ـ «وحقِّ الإلَه وحقِّ المسيح، أنا أريد بعضَ أقراص اللفت الطيّبة. أنا لم آكل شيئًا طَوالَ الشتاء غيرَ الطحين وقليلٍ من شحم الخنزير، وإني شديد الاشتياق إلى اللفت. إنّ جميع أقراص اللفت التي زرعتُها كانت تفور بالديدان الملعونة ذات الأحشاء الخضر. وعلى أيّ حال، فأين وجدت هذا اللفت، يا لوف؟ لعلَّكَ تُجري معي ترتيبًا ما حول ذلك. لقد كنتُ أعاملك دائمًا في أمانة وإخلاص، من أجل ذلك ينبغي أن تعطيَني هذا الكيس بعد أن رأيتَ أنه ليس عندنا ما نأكله. وثِقْ أنّ أولَ عمل سأقوم به صباحًا هو الذهاب إلى بيتك وإفهام بيرل أنّ عليها أن تُقلع عن معاملتك على هذا الشكل. إنّ من العار على الفتاة الصغيرة أن تسلك هذا المسلك ـ سوف أقول لها أن تمنحك حقوقك عليها. أنا لم أسمع عمري كلَّه بفتاة تنام على الأرض فوق حشيّة قشّ، برغم أنّ زوجها قد أعدّ لها سريرًا. إنّ بيرل لن تلبثَ أن تكفّ عن حماقتها هذه بعد أن أحدّثها في الأمر. فليست هذه هي الطريقة التي يُعامَلُ بها رجلٌ تجشّم مشقّة الزواج. لقد آنَ لها أن تفهم ذلك، أيضًا. سوف أذهب إلى هناك صباحًا، قبل أن آتيَ أيَّ عمل آخر وأسألها أن تنام معك في السرير.»

ولم يُلقِ لوف بالًا إلى كلام عمّه. كان يراقب إللي ماي وهي تنساب نحوه عَبْرَ الفِناء. حتى إذا غدت أقرب إليه بعضَ الشيء مدّ يده إلى الكيس،

Twitter: @ketab_n

وأخرج قرص لِفت آخر، وراح يقضمه قضَمات كبيرة. ولم يُعْنَ بمسح التراب عن القرص، هذه المرَّة.

وأزاحت إيدا عودَ السَّعوط إلى الزاوية الأخرى من شفتيها، وراحت تراقب إللي ماي ولوف فاغرةَ الفم.

ووقف دْيُود يراقب إللي ماي أيضًا.

وقال دْيُود:

ـ «سوف تملأ إللي ماي نفسها رملًا إذا لم تُقلع عن هذا العمل. ويخيّل إليّ أنّ كلبك لم يحكّ جلدَه الجَرِبَ في يومٍ من الأيام، حكًّا متواصلًا بقدر ما تفعل هي. وكذلك لم يكن يصرخ طُولَ الوقت كما تفعل هي.»

فقال جيتر:

ـ «وحقِّ الإلَه والمسيح، أنا أريد شيئًا من اللفت. وفي استطاعتي أن أمضغ كيسًا كاملًا، تقريبًا، من الآن حتى يحين وقت النوم.»

Twitter: @ketab_n

- 3 -

كانت توسّلات جيتر الموصولة المكرورة، من أجل اللِّفت، قد أخذت تترك في نفس لوف أثرًا متناقضًا شيئًا بعد شيء. كان لا يعي أنّ ثَمَّةَ رجلًا يوجّه إليه الخطاب. كان معنيًّا بإللي ماي ليس غير.

وقال ذيُود وهو يَكِزُ أباه بقدمه:

ـ «إللي ماي تُجهد نفسها كثيرًا من أجل لوف، أليس كذلك؟ وإذا لم تأخذْ حِذْرَها فقد ينفجر أحد أمعائها.»

وكان طَوْقُ المطّاط الداخليّ الذي حاول جيتر ترقيعه، على وشك أن يتفتّت. وكانت الدواليب نفسُها في حالٍ أكثر اهتراءً. وكانت سيارة فورد، التي بلغت من العمر أربعة عشر عامًا في تلك السنة، تبدو وكأنها عاجزة عن أن تنهض متماسكةً على دواليبها الأربعة ريثما يعيد جيتر الطوق المطّاطيّ إلى العجَلة، وبالتالي فهي أشدّ عجزًا عن التماسك ريثما تُثقَل بالسنديان الأسود في رحلة إلى أوغوستا. وكان غطاء السيارة قد فُقد منذ سبع سنوات أو ثماني سنوات، وكان حائلها الواقي، الذي لم يبق غيرُه، مشدودًا إلى جسمها بسلك حديدي صدئ. وكانت جميع النوابض (الراسّورات) والأنسجة المصنوعة من شعر الخيل قد اختفت من الوسائد. وكان الغلمان

Twitter: @ketab_n

قد نزعوا المقاعد وفكّكوها ليروا أيّ شيء في داخلها، ولم يحاول أحدٌ أن يجشّم نفسه عَناء إعادتها إلى وضعها السابق.

ولم تتحسّن هيئة السيارة عندما غودر جهاز التبريد منذ عدَّة سنوات، في بعض الطريق. فوضع جيتر مكانه صفيحة صَدِئة من صفائح شحم الخنزير، بعد أن ثقب أعلى المحرّك، وشدّها إلى أنبوب الماء. ولم يكن في طاقة تلك الصفيحة أن تسدّ مسدّ جهاز التبريد، ولكنّها كانت على أية حال خيرًا من لا شيء. وكان من عادة جيتر، إذا ما اعتزم الذهاب إلى مكان ما، أن يملأ صفيحة الشحم حتى الشَّفَة، ويثب إلى السيارة فيسوقها حتى يفيض الماء، ويقف المحرّك متميزًا من شدّة الحرارة. وعندئذٍ يترجّل جيتر ويبحث عن نُهير يملأ الصفيحة من مائه كَرّةً أخرى. وكانت سائر أجزاء السيارة في حالٍ مثل هذه. وكان الدجاج قد اتخذ منها مَجْثَمًا له ـ يومَ كان عند آل ليستر دجاجٌ يبحث عن مَجْثَم ـ فإذا هي منقّطة مرقّشة كالدجاجة البرّيّة. والآن، بعد أن لم يبقَ في الفِناء دجاج ما، لم يجشّم أحدٌ نفسه مشقّة تنظيف السيارة. إنّ جيتر لم يفكّر يومًا في أن يعمل عملًا كهذا، وكذلك لم يفكّر أحدٌ غيرُه البتَّة.

وكانت إللي ماي قد جرّت نفسها من أقصى الفِناء إلى أقصاه. وكانت قد انتهت الآن إلى أن تصبح في متناول لوف، وتقعد قريبًا من كيس اللفت. وكانت أجرأ منها، في أيِّما وقتٍ مضى، أيضًا، وقد أفلحت في حَمْل لوف على النظر إليها من غير أن يزعجَه مشهد شَفَتِها الشَّرْماء. وكان في شَفَة إللي ماي شَقٌّ عرْضُه رُبْعُ بوصة يَقسم جانبًا من فمها إلى قسمين غير متساويين. وكان الشَّقُّ ينتهي فُجاءةً تحت مِنْخَرِها الأسفل تقريبًا. وكانت لِثَتُها العليا واطئة. وبسببٍ من أنّ لِثاتِها كانت متّقدة الاحمرار فقد جعلها الشَّرم الذي في شَفَتها تبدو وكأنّ الدمَ يقطُر من فمها بغزارة. وكان جيتر يقول، طَوالَ الخمسة عشر عامًا الماضيات، إنه سوف يخيط شَفَة إللي ماي، ولكنه لم يوفَّق حتى الآن إلى شيء من ذلك.

Twitter: @ketab_n

والتقط ذُيُود قطعةً من الخشب متهرّئة كانت قد سقطت من جدار المنزل، وقذف بها أباه، من غير أن يكفّ عن التحديق إلى إللي ماي ولوف. لقد أذهلَتْه أعمالُهُما بقدر ما أذهله مسلكُ إللي ماي.

وقال جيتر:

ـ «ماذا تريد الآن، يا ذُيُود؟ ماذا دهاكَ حتى أخذْتَ ترشقني بالقِطع الخشبيّة على هذا الشكل؟»

فقال ذُيُود:

ـ «إللي ماي تمزح وتعبث.»

وتطلّع جيتر عَبْرَ الفِناء حيث كان لوف وإللي ماي جالسين جنبًا إلى جنب. وحجب جذعُ إحدى شَجَرات الأَزْدَرَخْت عن ناظره جزءًا ممّا كان يجري هناك، ولكنه استطاع أن يرى أنها كانت تجلس على رجلي لوف الممدودتين، مباعدةً ما بين ساقيها عند ركبتيه، وأنه كان يقدّم إليها قرص لِفتٍ من الكيس المنطرح أمامه.

وقال ذُيُود:

ـ « إللي ماي تمزح وتعبث، أليس كذلك؟»

فقال جيتر:

ـ «أحسِبُ أني أخطأت في تزويج بيرل للوف. إنّ بيرل لم تُجعَل قَطُّ لتكون زوجة لوف. إنها لا تُعنى بحاجات لوف، ولا تبالي مطلقًا بما يمكن أن يقوله الناس. وهي ليست الفتاة الجديرة بأن تكون زوجة للوف. إنها غريبة الأطوار. وأحسِب أنها تفضّل أن تذهب إلى أوغوستا مثلَ غيرِها من الفتيات. إنّ أيًّا منهن لم تكن راضية عن البقاء هنا. إنهنّ لسن مثلي، لأني أفضّل الأرض على العمل في مصنع من مصانع القطن اللعينة. إنك لا تستطيع أن

Twitter: @ketab_n

تشمّ هناك عَبَق نار الرَّتَم، وعندما يحين أوان حرث الأرض وزرعها ينقبض صدرُك ولكنك لا تدري ما الذي يؤلمك تمامًا. لقد حدَّثني الناس عن هذا الحنين إلى الربيع في مصانع القطن، ولستُ أذكر كم مرّةً فعلوا. ولكن حين يبقى الرجل في أرضه فإنه لا يحسّ مثلَ هذا الإحساس في هذه الفترة من السنة، لأنه يستطيع أن يستروِحَ هنا عَبَق الرَّتَم المشتعل، ويحسّ أنّ النسيم العليل الهابّ عَبْرَ الحقول المحروثة يتغلغل في بدنه. وهكذا بدلًا من أن يوجع الحنينُ قلبَه دون أن يدري ما الخلل الذي في جسمه، كما يحدث في مصانع القطن، يشعر المرء هنا، على الأرض، أنه أحسن حالًا ممّا كان في أيّ وقتٍ مضى. إنّ فصل الربيع لن يسمح لك بأن تخدعه بالاختباء في داخل مصنعٍ قَذِر. إنه يعرف أنّ عليك أن تقيم على الأرض لكي تظلّ في صحة جيّدة. وسبب ذلك أنّ البشر هم الذين بنوا المصانع. لقد خلق الله الأرض، ولكنك لا تراه أبدًا يبني مصنعًا من مصانع القطن اللعينة. من أجل هذا تراني أعقل من أن أذهب إلى هناك مثلَ سائر الناس. إني سأبقى حيث أراد الله أن أكون.»

وقال ذُيُود:

ـ «إللي ماي تعمل وكأنها زوجة لوف.»

وحوّلت إيدا ثقل جسدها من إحدى قدمَيْها إلى الأخرى. كانت واقفةً في مكانها عينِه من السقيفة الأماميّة، ذلك المكان الذي اتخذَتْه منذ أن وفد لوف على الفِناء. وكانت قد سمّرت عينَيْها فترةً طويلة من الزمن على لوف وإللي ماي.

وقال جيتر:

ـ «لعلّ الله أراد أن تجريَ الأمور على هذا الشكل. لعلّه يعرف عن ذلك أكثر ممّا نعرف نحن غير المخلّدين في الأرض. إنّ الله داهية عجوز.

Twitter: @ketab_n

أنت لا تستطيع أن تخدعه! إنه يهتم بتفاصيل صغيرة لا نقف نحن البشر لحظةً واحدة ونفكّر فيها. وهذا هو السبب الذي من أجله لن أترك الأرضَ وأذهب إلى أوغوستا لأعيش في مصنعٍ من مصانعها اللعينة. لقد وضعني الربّ هنا، وهو لم يقلْ لي قَطُّ أن أرحلَ إلى هناك. من أجل ذلك بقيت في أرضي هذه. ومَن يدري؟ فلعلّي إذا حاولتُ نقل أمتعتي إلى هناك لأعمل في المصانع كلّفني الذهاب والإياب ثمنًا غاليًا آخِرَ الأمر. وقد يغضب الربّ لعملي ذاك، ويحكم عليّ بالموت. وقد يدعني، من ناحية ثانية، أبقى هناك حتى يأتيَ أجَلي الطبيعي ولكنه يزعجني طُولَ الوقت بأشياء شيطانية صغيرة. تلك هي الطريقة التي يُنزِل بها عقابَه في بعض الأحيان. إنه يدَعُنا نعيش، في هدوء كثير، ويُزعجنا عند كلّ خطوة حتى نقولَ يا ليتنا مِتنا منذ زمن بعيد ودُفنّا في التراب. لهذا السبب لا أريد أن أسارع إلى المصانع كما فعل كلّ من كان عائشًا حول فولر. لقد ذهبوا إلى هناك، فاجتاحهم جميعًا أسفٌ شديد على الأرض التي فارقوها. ولكنهم لا يستطيعون العودة. إنّ عليهم أن يبقوا هناك، الآن. ذلك هو القِصاص الذي أنزله الله بهم بسبب مغادرتهم الأرض. إنه سوف يزعجهم عند كلّ خطوة يخطونها، إلى أن يأتيَهم الموت.»

وقال دْيُود:

ـ «أُنظر إلى هذا المزاح الذي تقوم به إللي ماي. إنها تُحسن هذا الفنّ منذ عهدٍ بعيد على ما يظهر!»

فصاح جيتر عَبْرَ الفِناء:

ـ «بحقِّ الإلـه وحقِّ المسيح، يا لـوف، مـاذا تخبرني عن هـذا اللفت الذي في الكيس؟ أهو محشوٌّ بالديدان اللعينة ذاتِ الأمعاء الخضر كاللفت الذي عندي؟ أنا مشتهٍ منذ الربيع الماضي ان آكل شيئًا من اللفت الجيّد. ولو لم يَبِع الكابتن جون جميعَ بِغاله ويمتنع عن إعطائي السماد على حسابه

Twitter: @ketab_n

لخرجتُ بمحصولٍ ضخم من اللفت، هذا العام. ولكنه حين باع البغال، وانتقل إلى أوغوستا قال إنه لا يريد أن يعرّض نفسه للإفلاس بأن يتركنا نحن العاملين في أرضه لقاءَ نسبةٍ من الغلّة نشتري السماد على حسابه في فولر. لقد قال إنّ من العبث أن تحاول إدارةَ مزرعةٍ بعد اليوم، سواء أكان عندك محراث واحد أم خمسون محراثًا. وقال إن في استطاعته أن يكسب مقدارًا أكبر من المال إذا أدار مزرعته من غير محاريث. وهذا هو السبب الذي جعلَنا لا نجد حاجتنا من الطعام والسَّعوط أبدًا. وتقول إيدا إنها مضطرّة إلى شيء من السَّعوط تتنشّقه بين حينٍ وحين لأنّ ذلك يخفف من حدّة الجوع، في ما يقولون، وهو شيء صحيح في الواقع. وأنا كلّما بعتُ حملًا من الحطب اشتريت دزّينة من جِرار السَّعوط ولو لم يكن معي مال أشتري به شيئًا من الطحين واللحم، لأنّ السَّعوط شيء لا يستغني عنه الإنسان. فحين يصيبني ألم شديد في البطن، أسارع إلى تنشّق قليلٍ من السَّعوط، فلا أحسّ بالجوع طَوالَ ذلك النهار. ليس هناك ما هو أحسن من السَّعوط لإبقاء الإنسان على قيد الحياة.

«ولكنّي لم أستطِع أن أزرع شيئًا من اللفت هذه السنة. لم يكن عندي بغل، ولم يكن عندي سماد. أوه، كان عندي بضعة أثلام صغيرة مدوّدة، هناك في الحقل، ولكنّ المرء لا يستطيع أن يدير أيّ مزرعة إذا لم يكن عنده بغل يحرثها به. إنّ المِجرفة لا تصلُح إلّا للقطن أو للذرة. ومن إضاعة الوقت أن تحاول زرع اللفت بالمجرفة. وأحسب أنّ هذا هو السبب الذي جعل تلك الديدان الملعونة ذات الأحشاء الخضر تدخل إلى قلب كلّ قرص من أقراص ذلك اللفت. لم يكن عندي بغل أحرث الأرض به؛ لذلك طلعتْ كلُّها مدوّدة.

«هل كنتَ منتبهًا لِما قلته لك، يا لوف؟ إنك لم تعطني أيّ جواب عن ذلك اللفت، حتى الآن. إنّ شهوتي إلى اللفت شديدة إلى درجة أوجعتْ

Twitter: @ketab_n

بطني. ويُخيَّل إليّ أني أحبّ لِفْتَ الشتاء بقدر ما يحبّ الزنجيّ البطّيخ. أنا لا أرى أيَّ فرْقٍ بين الأمرين. إنّ اللفت هو أطيب شيء ذُقْتُه في حياتي.»

ولم يرفع لوف بصره إليه. كان يقول شيئًا لإللي ماي، ويُصغي لِما كانت تقول.

وكان لوف يُخبر جيتر دائمًا أنه لا يريد أن تكون له أيّ علاقة بإللي ماي لأنها مشرومة الشَّفَة. ويوم أقبل على جيتر يخطب ابنته بيرل، قال إنه قد يفكّر في الزواج من إللي ماي إذا أخذها جيتر إلى أوغوستا وعهد إلى أحد الأطباء في أن يخيط فمها. وقلّب جيتر المسألة ودرسها مليًّا، وقرّر أنّ من الخير أن يدعَ لوف يأخذ بيرل لأنّ نفقات إجراء عمليّة التجميل قد تزيد على الفائدة التي سوف يحصُل عليها من ذلك الزواج. في حين أنّ إعطاءه بيرل كان يمثّل آنذاك ربحًا صافيًا بالنسبة إلى جيتر. لقد قدّم إليه لوف بعض الدُّثُر والأغطية ونحو غالون من زيت الماكينات، هذا عدا أجره الأسبوعيّ الكامل، وهو يبلغ سبعة دولارات. وكان جيتر محتاجًا إلى المال أكثر من حاجته إلى أيّ شيء آخر، ولكنّ الأشياء الأخرى كانت تعوزه أيضًا.

وكان جيتر قد اعتزم أن يأخذ إللي ماي إلى أحد الأطباء منذ بلغت الثالثة أو الرابعة من العمر، حتى إذا جاء رجلٌ في مُقبِلات الأيام لخطبتها لم يكن ثَمَّةَ ما يحمله على الزهد فيها. ولكنّ أحوالًا كانت تنشأ دائمًا فتَحول دون إنفاذ ما عزم عليه من أمر. وكان يقول لنفسه، كلّما فكّر في هذه المسألة، إنه لا بدّ سيأخذها إلى الطبيب في يومٍ من الأيام.

وحين تزوج لوف من بيرل قال إنه يحبّ إللي ماي أكثر من حبّه أختها، ولكنه لم يُرِدْ أن يَبْنِيَ بفتاةٍ ذاتِ شَفَةٍ شَرْماء. لقد عرف أنّ الزنوج سوف يسخرون منه. وإنما كان ذلك في الصيف الماضي، قبل عدَّة أسابيع من إحساسه بحبٍّ غامر نحو بيرل، حبٍّ جعله يعمل كلّ ما يستطيع أن

Twitter: @ketab_n

يفكّر فيه لكي تكفّ عن النوم على الأرض، فوق حشيّةٍ من قشّ. وكانت غدائر بيرل الطويلة الشقراء المتدلّية على ظهرها، وعيناها الزرقاوان الشاحبتان توقع الدُّوار في رأس لوف. لقد اعتقد أن ليس ثَمَّةَ فتاة أجمل منها في العالم. وعلى أية حال، فما من رجل قُدّر له يومًا أن يرى بيرل إلّا خامرهُ مثل هذا الاعتقاد. لقد كان من المتعذِّر عليها أن ترتديَ ملابسها، بل أن تشوّه نفسها، على نحوٍ يجعلها مبتذَلة أو عاديّة. لقد كان جمالُها يزداد تألقًا يومًا بعد يوم.

ولكنّ رغبات لوف ظلّت موضع الإهمال. وكانت بيرل آنذاك أشدّ عزمًا منها في أيِّما وقت مضى على أن تجتنبه ما وَسِعَها ذلك. والآن وقد جرّت إللي ماي نفسها عَبْرَ الفِناء كلِّه، وانتهت إلى أن تقعدَ على رجليه، راح لوف يفكّر في إللي ماي وحدها. ففي ما عدا شَفَتِها الشَّرْماء كانت إللي ماي لا تقلّ جاذبية عن أيِّما فتاة قد يقع عليها المرء في الكُثبان المحيطة ببلدة فولر. لقد أدرك لوف ذلك إدراكًا تامًّا. لقد جرّبهنّ جميعًا، بيضاوات وزنجيّات.

وقال ذُيُود مجيبًا والدَه:

ـ «إنّ لوف لا يفكِّر في اللفت، الآن. إنه يريد أن يصيدَ إللي ماي بصنّارته. إنه لا يبالي الآن بالعاهة التي في وجهها، فهو لا يعتزم تقبيلها. إنّ أحدًا لن يقبّلها، ولكن هذا لا يعني أنّ أحدًا لن يرغب في أن يعابثها. لقد سمعتُ الزنوج، منذ فترة قريبة، يتحدثون عن ذلك هناك، في الطريق غيرَ بعيد عن مَنشرة الخشب العتيقة. لقد قالوا إنّ في استطاعتها أن تفوز بأيّ رجل ترغب فيه، إذا ما خبّأت وجهها عنه.»

فقال جيتر مغضبًا:

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ «كُفَّ عن قذف هذا البيت القديم بتلك الكُرة. إنك إن لم تفعل جديرٌ بأن تشقَّ الحائط. ولن يحتمل البيت العتيق طويلًا بعد اليوم. إنّ الطريقة التي تقذف بها كُرَتَك ستُجْبِره على الانهيار في يومٍ من الأيام. إني أقولها بصراحة: كنتُ أتمنى لو كان لك نصيب أكبر من الإدراك.»

وأطلّت الجدّة العجوز عائدةً من الحقل، وهي تظلع بعض الشيء، وعلى ظهرها كيسٌ مليء بالأغصان المَيْتة. لقد جرجرت قدميْها عَبْرَ الرمل العميق الذي يغطي طريق التبغ، وسحبتهما فوق رمل الفِناء القاسي، غيرَ ناظرةٍ ذاتَ اليمين أو ذاتَ الشمال. حتى إذا بلغت درجات البيت الأماميّة طرحت الحمل عن ظهرها، وقعدت لتستريح لحظةً قبل أن تمضيَ إلى المطبخ. كانت آنّاتها، وهي تفرك جانبيها، أعلى من المألوف. وإذ قعدت على الدرجة الدنيا، ورجلاها في الرمل وصدرُها يكاد يمسّ ركبتيها الحادّتين، بدت أكثرَ من أيّ وقتٍ سلفَ أشبهَ ما تكون بكيس من الخِرَق السوداء الوَسِخة رُبط في غير إحكام. ولم تُلْقِ بالًا لأحد مِمّن كان حولها، ولم يحسّ أحدٌ أكثر من إحساس عابر أنها ذهبت إلى مكانٍ ما ثم عادت منه. ولو أنها قصدَت إلى الغابة ولم ترجع، إذن لَما عرف أحدٌ طَوالَ أيام عديدة أنها قضت نَحْبها.

وراقب جيتر صهره لوف من زاوية عينه فيما كان يحاول أن يُلصق رقعةً جديدة بالطّوق المطّاطيّ المتشقّق. لقد لاحظ أنّ لوف كان على بُعد عدَّة يارداتٍ من كيس اللفت، فانتظر متذرّعًا بالصبر بينا كانت الشُّقّة تتسع أكثرَ فأكثر كلَّ دقيقة. لقد نسِيَ لوف أهمِّيَّةَ كيس اللفت البالغة وضرورةَ صيانته. وما دامت إللي ماي تشعّث شعره بيديْها فهو خليقٌ بأن ينسى كيس اللفت. لقد جعلتْه ينسى كلَّ شيء.

وقال دْيُود:

Twitter: @ketab_n

ـ «ما تظنُّ أنهما سيعملان بعد هذا؟ لعلّ لوف يودّ أن يأخذَها معه إلى مستودع الفحم ويُبقيها هناك طُولَ النهار.»

وأحكمتْ إيدا، التي ما برحت واقفةً على السقيفة الأماميّة، في مثل جمود العمود، شَدَّ ثوبها على صدرها. كانت ريح شباط الباردة محتمَلة تحت أشعّة الشمس، أمّا عند السقيفة الأماميّة وفي الظلّ، فكانت تنفذ إلى العظام مباشرةً. وكانت إيدا قد أصيبت سنواتٍ عدّةً بداء البلّاغرا(*)، وكثيرًا ما قالت إنها تشكو البرد في كلّ حين إلّا في صميم الصيف.

وقال دْيُود:

ـ «إنه يريد أن يُولِدَها غلامًا. وهو يستعدّ لهذا العمل في هذه اللحظة، أيضًا. إنه ما كان يتركها تقترب منه إلى هذا الحدّ في الأيام الماضية. لقد سبق أن قال إنه لن يقترب من إللي ماي اقترابًا يمكّنه من أن يمسّها بعصًا من العِصِيّ، أبدًا، وذلك لأنه لا يحبّ النظر إلى وجهها. ولكنه لا يُلقي بالًا إلى هذا، الآن، أليس كذلك؟ وأنا أراهن أنه لا يرى شفَتَها الشَّرْماء في هذه اللحظة. ولو أنه رآها إذن لما اهتمّ بها أيَّ اهتمام.»

وكان عددٌ من الزنوج قد انتهوا إلى طريق التبغ في سبيلهم إلى فولر. وكانوا على مَبعدةِ بِضْعِ مئاتٍ من الأقدام عندما لاحظوا، أولَ ما لاحظوا، آلَ ليستر ولوف في الفِناء. ولكنهم لم يلاحظوا ما كان لوف وإللي ماي يعملانه في الجانب الآخر قرب شجرة الأَزْدَرَخْت، إلّا عندما أمسوا أمام المنزل تقريبًا. فكفّوا عن الضحك والكلام، وتمهّلوا في السير حتى كادوا يقفون من غير حراك.

(*) داء غير مُعْدٍ ينشأ عن سوء التغذية، ويؤدّي إلى خشونة في الجلد، واضطرابٍ عصبيّ خطير، وإسهال. (المعرِّب)

Twitter: @ketab_n

وناداهم دْيُود في صوتٍ عالٍ، مسمّيًا إياهم بأسمائهم. ولكنّ أيًّا منهم لم ينبس ببنت شَفَة. لقد وقفوا وتأمّلوا.

وقال واحد منهم:

ـ «مرحبًا، كابتن لوف!»

ولم يسمع لوف. وما عاد آل ليستر يأبهون للزنوج. وكان من عادة الزنوج المارّين بالمنزل أن يُلقوا نظرةً على أفراد أسرة ليستر، ولكن فئة قليلة جدًّا منهم كان عندها ما تقوله. لقد تحدثوا في ما بينهم عن آل ليستر، وهزئوا بهم. وكانوا يتحدثون إلى سائر الناس البيض، متمهّلين عند بيوتهم. وكان لوف واحدًا من الرجال البيض الذين يحبّون التحدث معهم.

وأدار جيتر أنبوب المضخّة في صِمام الطوْق المطّاطيّ وحاول أن يملأه هواءً. كانت المضخّة صدِئة، وكان المِكبَس ملويًّا، وكان الأنبوب مثقوبًا من أَدناه ثَقْبًا جعل الهواء يفرّ قبل أن يجد فرصة للوصول إلى الصِّمام. وكان معنى ذلك أنّ جيتر سوف يحتاج إلى أسبوع كامل لكي يضخّ ثلاثين رطلًا من الهواء في دولاب سيارته. ولقد كان في مَيْسوره أن يزوّد الدواليب بمقدار أكبر من الهواء لو أنه حاول أن ينفخها بفمه.

وقال جيتر:

ـ «يبدو أني لن أستطيع الذهاب بحمل الحطب إلى أوغوستا قبل الأسبوع التالي. كم أتمنى لو كان عندي بغل. كان في استطاعتي أن أنقل إلى هناك حملًا من الحطب، كلَّ يوم تقريبًا، لو كان لي بغل. في آخر مرّة قدتُ فيها هذه السيارة إلى أوغوستا انفجر كلٌّ من هذه الدواليب اللعينة قبل أن أصل إلى هناك وأعود. ويُخيَّل إليّ أنّ أحسن ما يمكن عمله هو حشوها بقشور الأثمار والحبوب ثم ركوبها على هذه الحال. ذلك ما نصحني

Twitter: @ketab_n

أحد الرجال بأن أصنعه، وأحسب أنه كان على صواب. إنّ هذه الدواليب والأطواق المطّاطيّة الداخليّة لم تعد صالحةً للعمل.»

وتقدّم الزنوج الثلاثة بِضْعَ خطوات إلى الأمام ثم وقفوا من جديد. لقد ظلّوا من الفِناء على مدى النظر، وانتظروا لكي يرَوْا أيَّ شيء كان يعمله لوف. وبعد أن أجابهم على أوّل كلام وجّهوه إليه أدركوا من لهجته أنه في شغل شاغل، فليس ينبغي لهم أن يزعجوه.

وكان دْيُود قد طرح كُرة البيسبول جانبًا ومشى بِضْعَ خطًى قرّبَتْه من إللي ماي ولوف أكثرَ من ذي قبل. ثم إنه قعد على الأرض على مقرُبةٍ منهما، وانتظر ليرى ما الذي سيعملانه بعد. وكان لوف قد كفّ عن أكل اللفت، ولم تأكل إللي ماي غيرَ جزء من قرص.

وقال دْيُود:

ـ «هؤلاء الزنوج يعتقدون أنّ لوف لن يقدِم على عمل شيء. لقد قالوا هناك في منشرة الخشب العتيقة إنّ أحدًا لا يمكن أن يقرب إللي ماي، إلّا بعد أن يهبط الليل. وأحسب أنّ لوف سوف يقول الشيء نفسه بعد ذلك.»

Twitter: @ketab_n

- 4 -

وفي عناية، وضع جيتر المضخة جانبًا، وانسلّ خِلسةً إلى زاوية المنزل. ودعّم قدميه، واستند إلى الحائط المتهرّئ وأنشأ ينتظر. لقد كان في مَيْسوره أن يرى كلّ شيء، من موقعه ذاك. فإذا تطلّع إلى أمام رأى إللي ماي ولوف تجاهه، وإذا ما أراد أن يرى إيدا الواقفة في السقيفة الأماميّة لم يكلّفه ذلك أكثر من التفاتة صغيرة. لم يكن عنده الآن ما يعمله غير الانتظار. وكان لوف يبتعد أكثر فأكثر عن كيس اللفت.

وأزاحت إيدا عود السَّعوط، كَرّةً ثانيةً، إلى الزاوية الأخرى من فمها. لقد راقبت لوف وإللي ماي منذ اللحظة الأولى، وكلّما اقترب أحدهما من الآخر تعاظم اطمئنانها وهدوؤها. وكانت تنتظر، أيضًا، لكي تطلب إلى لوف أن يبعث ببيرل إليها حتى تراها قريبًا. إنّ بيرل لم تزر بيت أبيها منذ أن زُفَّت إلى بعلها.

وكانت بيرل تشبه إيدا منظرًا ومسلكًا إلى درجة تجعل كلّ امرئ يدرك للنظرة الأولى أنهما أمّ وابنتها. وحين تزوجت بيرل من لوف قالت لها إيدا إنّ عليها أن تفرّ من منزله قبلَ أن تحمل ولدًا، وتقصد إلى أوغوستا فتعيش في بعض المصانع. بَيْدَ أنّ بيرل لم تكن تملك الشجاعة التي تمكّنها من

Twitter: @ketab_n

الفِرار وحدها. كانت خائفة. ولم تكن تدري ما الذي سيحلّ بها في مصانع القطن، وكانت أصغر من أن تفهم الأشياء التي سَمِعَتْها عن الحياة هناك. وبرغم أنها كانت بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من العمر، فقد كانت لا تزال تخاف الظلام، وكثيرًا ما قطّعت معظم ساعات الليل تبكي وتنشج فيما هي تستلقي مرتجفة في حشيّة القش الموضوعة على الأرض. وكان لوف معها في الغرفة، وكانت الأبواب موصَدة، ولكنّ زحْف الظلمة بدا وكأنه يحمل إليها شعورًا بالاختناق لا يُحتمل. ولم تُخبر قَطّ أحدًا بمبلغ خوفها من الليالي المظلمة، ولم يعرف أحدٌ السبب الذي يدعوها إلى ذلك البكاء كلِّه. وظنّ لوف أنّ مردّ ذلك إلى شيء في دماغها. فلم يكن ذيُود على كثيرٍ من العقل، وكذلك كان واحد أو اثنان من أولاد جيتر، فكان طبيعيًّا أن يفكّر لوف أنّ زوجته مصابة بالعلّة نفسها. والحقّ أنّ بيرل كانت أرجح عقلًا من أيٍّ من أفراد أسرة ليستر، وهو شيء وَرِثَتْه، كما وَرِثَتْ لونَ شعرها وعينيها، من أبيها. وكان أبوها ذاك قد مرّ بالمنطقة ذات يوم ثم لم يرَ أحدٌ وجهه بعد ذلك. ولقد أخبر إيدا أنه أقبلَ من كارولينا، في طريقه إلى تكساس. كان هذا كلّ ما عَرَفَتْهُ عنه.

ولكنّ بيرل كانت قد أخذت تفقد شيئًا من خوفها. فبعد أن انقضت ثمانية أشهر على مقامها في بيت لوف غدت أكثر شجاعة، شيئًا بعد شيء، حتى لقد اجترأت على أن تفكّر في أن تفرّ ذات يوم إلى أوغوستا. إنها لم تُرِدْ أن تعيشَ في التلال. ولم يكن مشهد مستنقعات «سافاناه» الموحلة من جانب، وغبارُ مستودع الفحم الأسودُ من جانب آخر، يَعْدِلان جمالًا تلك الأشياء التي رأتها ذات يوم في أوغوستا. لقد قصدت إلى تلك المدينة مرّةً مع جيتر وإيدا، ورأت بعينيها الاثنتين فتيات يضحكن خالياتِ البال. إنها لم تدرِ أكنّ يعملن في مصانع القطن أم لا، ولكنّ ذلك ما كان ليقدّم أو ليؤخر بالنسبة إليها. فهناك في طريق التبغ لم تفترّ شفتا إنسانٍ عن ابتسامةٍ قَطّ.

Twitter: @ketab_n

وهناك كان على الفتيات أن يقتلعن الأعشاب المؤذية من حول القطن في الصيف، وأن يجنينه في الخريف، وأن يحتطبن في الشتاء.

وغادر جيتر موقفه عند زاوية المنزل وراح يتمشّى وئيدًا عَبْرَ الفِناء. لقد رفع إحدى قدميه، وأبقاها معلّقةً في الهواء بِضْعَ ثوانٍ، ثم أراحها أمامه على الأرض. على هذا النحو كان يتعقب الأرانب في كثيرٍ من الأحيان في الغابات والأدغال. كان يتّفق أن تكون قاعدة في أَرومة شجرة مقطوعة مجوّفة، أو في حُجر في إحدى الوهاد، فيزحف جيتر إليها في سكونٍ شديد إلى درجة تجعلها لا تدري مطلقًا كيف وقعت في شرَكِ الصائد. لقد كان الآن يزحف لينقضّ على لوف.

حتى إذا انتهى جيتر إلى وسط الفِناء، وثب فجأة وثبةً هائلة حطّته، في مثل لمح البصر، فوق كيس اللفت. كان في مَيْسوره أن ينتظر بِضْعَ دقائق أخرى، وينتهي إليه بمثل السهولة التي اعتاد أن يقبض بها على الأرانب. ولكن لم يكن لديه، الآن، وقت حتى يضيّعه. فقد كان تَوْقُه إلى الحصول على اللفت أعظم جدًّا من تَوْقِه في أيِّما وقتٍ مضى إلى اقتناص الأرانب.

وفي يأس، طوّق الكيس بكلتا ذراعيه، وهصره هصرًا مُحْكَمًا جعل عُصارة اللفت تنبجس في مختلف الجهات من خلال نسيج الخيش المتهدّل. وطفرت العُصارة إلى عينيه، فكادت تُعميه. ولكنّ ذلك وقع في قلب جيتر مَوْقِعًا أشبهَ بموقع المطر في السماء، بل مَوْقعًا أطيبَ وأعذب.

وخطت إيدا خطوةً واحدة إلى الأمام، مقيمةً توازنها على واحد من أعمدة السقيفة الأماميّة. وهبّ ذيُود واقفًا على قدمَيْه، ممسكًا بشجرة الأَزْدَرَخْت القائمة خلفه.

والتفت لوف في الوقت المناسب، فرأى إلى جيتر يختطف الكيس ويعانقه بذراعيه. وحاولت إللي ماي أن تُبْقِيَ لوف حيث هو، ولكنه وُفّق إلى

Twitter: @ketab_n

الإفلات من يديها. ووثب نحو جيتر وكيس اللفت. فما كان من إللي ماي إلّا أن سارعت إلى الإمساك به في ضراوة، من قدمه، فهوى على الأرض الصلبة معفِّرًا وجهه بالتراب.

وكان كلٌّ من أفراد أسرة ليستر، وقد اعتصموا جميعًا بالصمت، مستعدًّا للعمل المشترك في غير ما إبطاء. واقتحم ڈيُود الفِناء في اتجاه والده. وهبطت إيدا درجات الشرفة، وجرت خلفها الجدّة العجوز. لقد تحلّقوا كلُّهم حول جيتر وكيس اللفت، وانتظروا. وكانت إللي ماي ما تزال متشبّثة بقدم لوف، رادّة إياها إلى وراء كلّما وُفِّق إلى أن يقترب، متلوّيًا، بضعة إنشات من جيتر. وهكذا لم تصل رؤوس أصابع لوف إلى أبعد من نقطة تقع على بُعد ثلاثة أقدام من الكيس.

وقال ڈيُود:

ـ «أنا لم أكذب مطلقًا في ما قلتُه لكَ عن إللي ماي، إيه؟ هل كان ما قلتُه صحيحًا، يا بابا؟»

فقطّبت إيدا جبينها وقالت:

ـ «أُسكت يا ڈيُود. ألا ترى أن والدك لا يجد متّسعًا من الوقت للتحدّث في أيّ شيء؟»

ودفع جيتر ذقنه فوق قمّة الكيس، وحدّق النظر إلى لوف. كانت عينا لوف جاحظتين ملتهبتين. لقد فكّر في السبعة الأميال ونصف الميل التي مشاها ذلك الصباح على طُولِ الطريق إلى الجانب الآخر من فولر، ذهابًا وإيابًا، فأرمضَ قلبَهُ ذلك المشهدُ الذي بَصُرَ به الآن.

وكانت إللي ماي تبذل جهدها لتردّ لوف إلى موقعه السابق. وكان هو يحاول الإفلات لكي يستنقذ كيسَ اللفت ويصدَّ آل ليستر عنه. إنَّ الشيء

Twitter: @ketab_n

الذي كان يحذره حين انتهى إلى بيت ليستر قد حدث بأسرع ممّا كان يتوقع حتى لقد غدا لا يدري ماذا يفعل. وكان حذره ذلك قبل أن تبدأ إللي ماي في التزحلق بعجيزتها الجرداء فوق الفِناء الرملي متخذةً سبيلها إليه. لقد أدرك الآن مبلغ الحماقة التي تكشّف عنها إذ فقدَ صوابه، وفقد ما اشتراه من اللفت أيضًا!

وكان الزنوج الثلاثة يُتْلِعون أعناقهم لكي يرَوْا كلّ شيء. لقد راقبوا إللي ماي ولوف في حماسة متعاظمة حتى هبط جيتر، فُجاءة، على كيس اللفت، فهم الآن يتساءلون ما الذي سيقع بعد ذلك في فِناء الدار.

وعثرت إيدا والجدّة على عَصَوَيْن كبيرتين ثقيلتين، وحاولتا أن تَقْلِبا لوف على ظهره لكي يكون في مَيْسور إللي ماي أن تَبلُغَه من جديد. وكان لوف يبذل غايةَ جهده لحماية كيسه، لأنه عرف جيّدًا أنه إذا ما وُفّق جيتر إلى أن يبتعد عنه عشرين خطوة فلن يكون في مقدوره أن يُمسك به قبل أن يلتهم أقراص اللفت كلَّها. كان جيتر شيخًا عالي السنّ، ولكنه كان قادرًا على أن يعدو مثل الأرانب، ساعةَ يشاء.

وقالت إيدا:

ـ «لا تخف من إللي ماي، يا لوف. إنّ إللي ماي لن تؤذيك. إنها هائجة جدًّا، ولكنّها ليست من ذلك النوع الفظّ الغليظ. إنها لن تؤذيك.»

ونَخَسَتْه إيدا بالعصا وأكرهَتْه على أن يكفّ عن محاولاته إلى الابتعاد عن إللي ماي. ولكزت أضلاعه بأقصى ما تستطيع من عنف وهي تعَضُّ شفتَها السفلى بأسنانها.

وقال دْيُود:

Twitter: @ketab_n

ـ «يبدو وكأنّ هؤلاء الزنوج سوف يُقبِلون على الفِناء لمساعدة لوف. ولكن إذا حاولوا ذلك فسوف أسحقهم بإحدى الصخور. ليس من شأنهم أن يساعدوا لوف.»

فقالت إيدا:

ـ «إنهم لا يفكّرون في المجيء إلى هنا. إنّ الزنوج أعقل من أن يتدخلوا في شؤون البيض. إنهم لا يجرؤون على الاقتراب.»

ولم يقترب الرجال الملوّنون. لقد ودّوا لو يهرعون لنجدة لوف، لأنهم كانوا أصدقاءه، ولكنهم كانوا أكثر اهتمامًا بمعرفة ما الذي ستعمله إللي ماي منهم بإنقاذ أقراص اللفت.

وتصبّب العرق من إللي ماي كما يتصبّب من صبيّ الحراثة. وغطّى التراب جسم لوف فهي تحاول أن تُزيله عنه بطرف ثوبها لكي تعاود عملها. وحاول لوف أن يَثِبَ وثبة أخيرة يائسة نحو الكيس. فوُفِّق إلى أن يدنوَ منه قدمًا واحدًا تقريبًا. ولكنّ إيدا ضربَتْه على رأسه بعصاها السنديانيّة ضربةً قويّة طرحَتْه أرضًا وهو يئنّ أنينًا واهنًا. وفي وثبة واحدة، انقضّت إللي ماي عليه. والواقع أنّ رشاقتها الهِرِّيّة المهتاجة كادت تذهب بعقله. وكانت إللي ماي قد قطعت أنفاسه إذ سقطت بثقلها كلِّه على مَعِدَتِه العزلاء. وراحت تفحص جسده بركبتيها فحصًا موجعًا أشبه برفس البغال فهو لا يقوى على التنفس من غير أن يحسّ آلامًا حادّة في رئتيه. لقد جعلَتْه أعجزَ من أن يدافع عن نفسه. وفيما أمسكت إللي ماي به، مسمّرة ذراعيه إلى الأرض، وقفت إيدا فوقه، وفي يدها عمودها السنديانيّ الثقيل، وهي على أتمّ الاستعداد لأن تضربه على رأسه إذا ما حاول كَرَّةً ثانية أن ينهض أو أن ينقلب على مَعِدته. وانتظرت الجدّةُ العجوز في الجانب الآخرَ رافعةً عصاها فوق رأسها مهدِّدة

Twitter: @ketab_n

باللجوء إليها عند الحاجة. كانت تتمتم طَوالَ الوقت، ولكنّ أحدًا لم يلتفتْ البتَّةَ لِما كانت تحاول أن تقوله.

وقال جيتر:

ـ «هل يوجد دود ملعون أخضر الأمعاء في جوف أقراص اللفت هذه، يا لوف؟ وحقِّ الإلّه والمسيح، إذا كانت مدوّدة، فلن أعرف ما الذي سأعمله بها. لقد غَثِيَتْ نفسي لكَثرة ما أكلتُ من اللفت المدوّد، بل إني لأصرِّح بأني كدتُ أفقد دِيني. من العار على الإلّه أن يدع الدود اللعين الأخضر الأمعاء يدخل إلى أجواف اللفت. إننا نحن جماعة الفقراء نُغَشّ في جميع الصفقات. ومَن يدري فلعلّ الربّ لم يُرِدْ للبشر أن يأكلوا اللفت على الإطلاق. لعلّه شاء أن يُزرع اللفت ليكون طعامًا للخنازير. ولكنه لم يَضعْ لنا، في هذه الأرض، شيئًا مكانه. إنّ اللفت هو وحده الذي ينمو، هنا، في فصل الشتاء.»

وكانت إللي ماي ولوف قد انقلبا على نفسيهما عشر مرّات أو أكثر، مثل الخنافس. حتى إذا كفّا نهائيًّا عن ذلك كان لوف هو الأعلى وكانت إللي ماي تحته. وكانت إيدا قد لحقت بهما عَبْرَ الفِناء، وكذلك الجدّة العجوز، ووقفتا مستعدَّتين لضرب لوف بعمودَي السنديان إذا ما بدت عليه أوّل أمارة تؤذن بمحاولته النهوض قبل أن تُطلق إللي ماي سراحه.

وفيما كان الآخرون في الزاوية القصوى من الفِناء، هبّ جيتر، على حين غرّة، واقفًا وضمّ كيس اللفت إلى مَعِدَته ضمًّا محكمًا وولّى هاربًا عَبْرَ طريق التبغ إلى الغابة القائمة خلف حقل القطن القديم. ولم يتمهّل ليلتفت، من فوق كتفه، إلى وراء، إلّا بعد أن أمسى على مَبعَدة نصف ميل تقريبًا. وما هي إلّا لحظة، حتى اختفى في الغابة.

Twitter: @ketab_n

وضحك الزنوج حتى كادوا يعجَزون عن الوقوف في وضع مستقيم. ولم يضحكوا على لوف، ولكنّ مسلك آل ليستر هو الذي بدا هزليًّا جدًّا في أعينهم. لقد زوّدهم وجه إيدا الصارم وعزم إللي ماي الهائج، بمشهدٍ ما كان في وُسْع أيٍّ منهم أن ينظر إليه من غير أن يضحك. وانتظروا حتى هدأ رَوْع القوم، ثم اتخذوا سبيلهم، في تؤدة، نحو فولر وهم يتحدثون عمّا شهدوه في فِناء آل ليستر.

ورجعت إيدا والجدّة العجوز إلى الشرفة، وجلستا على درجاتها، لكي تراقبا إللي ماي ولوف. لم يعدْ ثَمَّةَ خوف من أن يفرّ لا بل إنه لم يحاول الفِرار، الآن، ولو مجرّد محاولة.

وقال دْيُود:

ـ «كم صندوقًا من الفحم يُفرغ قطار الشحن رقم 17 كلَّ صباح في المستودع يا لوف؟ يبدو لي أنّ قُطُرَ الشحن تكاد تستهلك ضعف ما تستهلكه قُطُرُ المسافرين من الفحم. إنّ سائقي قُطُرِ الشحن لا يكفّون عن إلقاء كُتَلٍ ضخمة من الفحم إلى أكواخ الزنوج القائمة في محاذاة الخط الحديدي. وأحسب أنّ هذا هو السبب الذي من أجله يستهلكون مقدارًا من الفحم أكثر من ذلك الذي تستهلكه قُطُرُ المسافرين. إنّ قُطُرَ المسافرين تنطلق في سرعة أكبر، ولذلك لا يجد السائقون الزنوج فرصةً لإلقاء الفحم إلى الأكواخ الزنجية. ولقد رأيت مقدارًا من الفحم يكاد يملأ صندوقًا كاملًا يُقذف به من بعض الشاحنات، دفعةً واحدة. وجماعة السكة الحديدية لا يعرفون شيئًا عن ذلك، إيه؟ ولو أنّهم عرفوا، إذن لأجبروا السائقين على الإقلاع عن ذلك. وأنا أراهن أنّ أولئك السائقين يقذفون على طُول السكة الحديدية كمّيّة من الفحم أكبر من تلك التي تحرقها الماكينات تقريبًا. وهذا هو السبب الذي

Twitter: @ketab_n

يجعل الزنوج في غير حاجة إلى تشقيف الحطب. إنهم كلّهم يُشعلون فحم السكة الحديدية في أكواخهم.»

وكان لوف يلهث إلى حدٍّ لم يمكّنه من أن يقول شيئًا.

ـ «لماذا لا تشعل في بيتك فحمًا حجريًّا بدلًا من الحطب، يا لوف؟ إنّ أحدًا لن يكتشف ذلك. وأنا لن أشيَ بك، إذا أردت أن تعمل شيئًا من هذا. إنه أسهل جدًّا من تشقيف الحطب كلَّ يوم.»

وشرعت الجدّة العجوز، القاعدة قرْب كيسها المليء بالأغصان الميْتة، تثنّ كَرَّةً أخرى وتفرك جنبيها بجُمْع كفَّيْها. ثم إنها نهضت، ورفعت الكيس فوق كَتِفها ودخلت البيت قاصدةً إلى المطبخ، وهناك أضرمت النار في الموقد، وقعدت إلى جانبها ريثما تأتي على العيدان اليابسة. كانت واثقة من أنّ جيتر لن يحمل إليها أيَّ قرص من أقراص اللفت. إنه سوف يمكث في الغابة ويلتهم آخِرَ قرص منها. وفيما هي تنتظر أن تخمد النار تطلعت إلى وعاء السَّعوط الموضوع على الرفّ، ولكنه كان فارغًا ما يزال. لقد انقضى عليه نحوٌ من أسبوع وهو فارغٌ، وما كانت إيدا لتُرْشِدَها إلى الموضع الذي خُبّئ فيه الوعاء المليء. والواقع أنها لم تكن تفوز بشيء من السَّعوط إلّا حين تعثر مصادفةً على الإناء مخبوءًا في مكانٍ ما، فتأخذ منه مقدارًا قبل أن ينهرها واحد من أفراد الأسرة. ولقد ضربها جيتر فطرحها أرضًا، مرّاتٍ عديدة، بسبب من ذلك، وقال إنه سوف يُميتها إذا ما قبض عليها تسرق السَّعوط كَرَّةً أخرى. وكانت تمرّ بها أحوال تودّ فيها لو تموت شرط أن يسمحوا لها، مرّةً واحدةً على الأقلّ، بأن تأخذ كلّ ما تحتاج إليه من سَعوط.

وقال دْيُود:

ـ «لماذا لا يُطلق الميكانيكيّون صفّاراتهم أكثرَ ممّا يفعلون يا لوف؟ انهم يكادون لا يطلقون تلك الصفّارات بالمرّة. ولو كنت أنا سائق شاحنة

Twitter: @ketab_n

لجعلت الصافرة تزعق طُولَ الوقت. إنّ الصفّارات ترسل صوتًا لا يقلّ عذوبة عن الصوت الذي يرسله زمّور السيارة.»

وقعد دْيُود على أرومة الصنوبرة المقطوعة إلى أن نهض لوف وترنّح عَبْرَ الفِناء متجهًا نحو طريق التبغ. وتلفّت لوف حوله من كلّ جانب، رجاءَ أن يجد جيتر مختبئًا في مكان قريب، برغم أنه كان على يقينٍ من أنّ جيتر قد مضى إلى غابة الصنوبر القائمة خلف حقل القطن القديم، وأنّ من العبث إضاعة الوقت في محاولة البحث عنه وإلقاء القبض عليه. لقد فات أوان ذلك.

ولم تبرح إللي ماي مكانها. كانت مستلقية على ظهرها، وكان العرق قد ألصق شعرها بجبينها وعنقها، وكان ثوبُها القَرَنْفُليّ المخطّط قد التوى تحت كتفيها ورأسِها على نحوٍ صار معه وسادة تضطجع عليها. وبدا فمُها وكأنه قد مُزِّق، وبدت لِثَتُها العليا ذات الحمرة القانية أشبهَ شيء بجرح موجِع يقطر دمًا، تحت مِنْخَرِها الأيسر. وارتعشت شَفَتُها المشرومة، وارتعد جسدُها كلّه.

وقال دْيُود:

ـ «ينبغي أن تعطيني تلك الـوِزْرة حين تصبح في غنًى عنها. أنا لا أذكر أني لبست وِزْرة جديدة منذ فترة طويلة من الزمان. وأبي يقول إنه سوف يشتري لكلٍّ منا، أنا وهو، وِزْرة جديدة في يومٍ من الأيام، عندما يبيع مقدارًا كبيرًا من الحطب، ولكنّي لا أثق مطلقًا بما يقول. إنه لن يبيع شيئًا من الحطب. أو قلْ إنه لن يبيع أكثر من حمل واحد في كلّ مرّة، على الأقلّ. أنا لم أسمع بإنسان يبيع مقدارًا من الأكاذيب أكثر منه. وفي ظني أنه يكذب، ولن يحمل الحطبَ إلى أوغوستا. إنه كسولٌ إلى درجة تجعله لا ينهض عن الأرض إذا زلّت به القدم. وذاتَ مرّة شَهِدْتُه يمكث نحوًا من ساعة كاملة في المكان الذي وقع فيه. إنه أكسلُ ابنِ زانيةٍ عرَفْتُه في حياتي!»

Twitter: @ketab_n

ومضى لوف إلى وسط الطريق ووقف هناك مترددًا، وقد باعد ما بين رجليه حفظًا لتوازنه، وأخذ جسدُه يتمايل إلى أمام وإلى وراء كالشارب الثَّمِل. ثم إنه أخذ ينفُض الرملَ عن ثيابه، ومن على شعره. لقد نَفَذَ الرمل إلى جيوبه وحذائه. وحتى أُذُناه كانتا مليئتين به.

وتساءل دُيُود:

ـ «متى ستشتري لنفسكَ سيارة، يا لوف؟ إنكَ تكسِبُ كومةً من المال في مستودع الفحم، فيجب أن تشتريَ سيارة فخمة ضخمة كتلك التي يملكها الرجال الأغنياء في أوغوستا. سوف أعلّمك كيف تسوقها. أنا أعرف كلّ شيء عن السيارات. إنّ سيارة «فورد» التي عند أبي لم تعد جميلة الآن. ولكنْ حين كانت في حال جيّدة كنتُ في بعض الأحيان أقودها في سرعة تكاد تطيّر الدواليب عن جوانبها. ينبغي أن تختار واحدةً رُكّبَ لها زمّور جميل كبير. فالصفّارات والأبواق تُحدث صوتًا لطيفًا، أليس كذلك يا لوف؟ متى ستشتري لنفسك سيارة؟»

ووقف لوف في وسط الطريق نحوًا من ربع ساعة. ومن فوق الرَّتَم الأسمر الحاني الرأس راح يتطلع إلى الغابة التي كان جيتر مختبئًا فيها. وبعد أن انتظر حتى لم يعد يعرف ما الذي يجب أن يعمله، قرّر آخِرَ الأمر أن يَمضيَ إلى بيته وإلى مستودع الفحم. وكان من عادة بيرل أن تقيم في المنزل إلى أن يبلغه، فما إن يدخلُه حتى تَفِرّ من الباب الخلفيّ ثم لا تعود إلّا بعد أن يغادر البيت. وحتى لو اتفق مَرّةً أن بقيَت في الغرفة عند دخوله فإنها ما كانت تنظر إليه أو تحدّثه حديثًا ما. كان في مَيْسوره ان يرنو إلى شعرها الأشقر الطويل متدليًا على ظهرها، ولكنّ ذلك كان كلّ شيء. كانت لا تدعه يقترب منها قربًا يمكّنه من النظر إلى عينيها. وإذا ما حاول أن يفعل ذلك فعندئذٍ تفرّ من غير ريب إلى غَيْضَة الرَّتَم.

Twitter: @ketab_n

وراقبته إيدا ودْيُود حتى غاب عن ناظريهما خلف قمّة الكَثيب. ثم أدارا ظهريهما وتطلّعا إلى إللي ماي في الفِناء.

ومضى دْيُود إلى أَرومة الصنوبرة المقطوعة وقعد عليها ليراقب النمل الأحمر وهو يدبّ فوق مَعِدَة أخته وثدييْها. واختلجت عضلات رجليْها وظهرها اختلاجًا عصبيًّا فترةً من الزمان، ولكنّ ذلك الاختلاج ما لبث أن تلاشى تدريجيًّا، فهي مستلقيةٌ في سكون كامل. كان فمها مفتوحًا بعض الشيء، وكانت العاهة التي تشوّه شفتَها العليا تبدو أعرض من المعتاد وأعمق. لقد جفّ العَرَقُ على جبينها وخدَّيْها، وقلّمت لطخات من الوسخ بَشْرَتَها البيضاء الشاحبة.

وطَوالَ ساعة تقريبًا، نامت تحت أشعّة شمس شباط الدافئة، نومًا عميقًا. حتى إذا أفاقت كانت ذراعها اليمنى لا تزال على فمها، حيث وضعها دْيُود عندما غادر الفِناء لكي يحصل على بعض أقراص اللفت قبل أن يلتهمها أبوه كلَّها.

Twitter: @ketab_n

- 5 -

وهناك في مخبئه من الغابة، أخذ ضمير جيتر يؤنّبه. كان حجاب الرَّتَم الأسمر البالغ ارتفاعه أربعة أقدام يَحولُ دون رؤيته من المنزل أو من الطريق. لقد هدأ جوعه مؤقتًا، وامتلأت جيوب وِزْرَتِه بأقراص اللفت، ولكنّ إدراكه المتباطئ أنه سرق طعام صهره ما لبث أن أرمض جسدَه وروحَه. لقد سرق من قبل، سرق الطعام وسرق كلّ ما أمكنته الفرصة من أخذه، ولكنه كان في كلّ مرّة ـ شأنه الآن ـ يندم على ما فعل حتى يُوفّق إلى إقناع نفسه بأنه لم يأتِ أمرًا منكَرًا إلى حدٍّ فظيع. وكان هذا الصنيع يقتضيه بِضْع دقائق حينًا، وبضعة أيام حينًا، بل بضعة أسابيع حينًا آخر قبل أن يتيقّن أنّ الربّ عفا عنه، وأنه لن يعاقبَه عقابًا شديدًا.

وكان صوت دْيُود المنطلق خلفه في الغابة أشبه بصوت الله يدعوه إلى القصاص. وكان دْيُود قد سلخ نصف الساعة الأخيرة وهو يخبط في الغابة ضاربًا الشُّجَيْرات النامية حول الدّوْح بِعَصًا من السنديان الأسود محاولًا أن يعثر على جيتر قبل أن يلتهم اللفت كلَّه.

وكان يتخلّل صيحات دْيُود صمتٌ غائر يلفّ الغابة من حول جيتر. واستشعر جيتر الحقارة والندم. وفي عناية مسح شفرة السكّين التي قشر

Twitter: @ketab_n

بها أقراص اللفت، ووضعها في جيبه. ثم إنه وثب وفرّ من الغابة مندفعًا نحو شجَرات الرَّتَم. كان في مَيْسوره أن يرى سطح منزله وأعالي شَجَرات الأَزْدَرَخْت، ولكنه ما كان قادرًا على أن يعرف أَذَهَبَ لوف إلى بيته أم لا.

ورآه دْيُود حالما خرج من الغابة وتقدّم نحو شَجَرات الرَّتَم، فصاح راكضًا عَبْرَ الحقل لكي يقطع الطريق على والده:

ـ «هاي! إلى أين أنت ذاهبٌ الآن؟»

ووقف جيتر وانتظر حتى ينتهي دْيُود إليه. ثم إنه أخرج من جيبه نصف دزينة من أقراص اللفت الصغرى ووضعها في يدَي دْيُود المبسوطتين.

وسأله دْيُود:

ـ «ما الذي جعلك تفرّ وتحاول أن تأكلَ الأقراص كلَّها من غير أن تعطيَني قرصًا واحدًا؟ إنك لست الشخص الوحيد الذي يحبّ اللفت. ولم تكن أنت، هذا الأسبوع، أكثر جوعًا مني. انك لَخسيسٌ كالحيّة العجوز في بعض الأحيان. لماذا لم تُرد أن تترك لي قرصًا واحدًا؟»

فقال جيتر:

ـ «الربّ لا يحبّ السرقة. إنه لا يُعنى بمستقبل أولئك الذين يسرقون. إنّ عليهم أن يتدبّروا أمرهم بأنفسهم في الآخرة. والآن ينبغي لي أن أصالح الربّ الطيّب وأعترفَ له بخطيئاتي. لقد أتيتُ عملًا مُنْكَرًا اليوم. والله لا يحبّ لعباده أن يعملوا شيئًا من هذا. إنه يُهمل الخُطاة ولا يبالي بهم. والسرقة هي أسوأ عملٍ يمكن للمرء أن يعمله، تقريبًا.»

فقال دْيُود:

Twitter: @ketab_n

ـ «أنت تتكلم هكذا كلّما سرقتَ شيئًا، ولكنك لا تحافظ على كلامك بعد ذلك أبدًا. إنك تحاول بموقفك هذا أن تجتنب إعطائي كمّيّة إضافيّة من اللفت. أنت لا تستطيع أن تخدعني.»

ـ «من الإثم أن تقول شيئًا كهذا عن رجل حاول طُولَ حياته أن يكون على وِفاقٍ مع الإلّه الطيّب. إنّ الله صاحبي، وهو لا يحبّ أن يسمع الناس يتحدثون عني بمثل هذه اللهجة. ينبغي أن لا تتكلم هكذا يا دْيُود. أليس عندك دماغ؟»

فقال دْيُود:

ـ «أعطني بعض الأقراص الأخرى. عبثًا تحاول أن تحتفظ بها كلّها بأمثال هذه الأقوال. إنّ ذلك لن يفيدك شيئًا. وأنا لا أبالي بما تقول. إني اليوم أعقل من أن أُخدع.»

فقال جيتر وهو يَعُدّ الأقراص الباقية في جيوبه:

ـ «لقد أخذتَ خمسة حتى الآن، أليس كذلك؟ أنت لا تحتاج إلى أكثر من ذلك.»

وأقحم دْيُود يده في أقرب جيوب أبيه إليه وانتزع منها أكبرَ عدد من الأقراص اتسعت له قبضة يده. ولكزَه جيتر بمِرْفَقَيْه ولكنّ دْيُود لم يبالِ بذلك. كان أضعف من أن يصيبه بأيّ أذى.

فقال جيتر:

ـ «هذا كلّ ما سأعطيك إياه. إني سآخذ الأقراص الباقية وأقدّمها إلى إيدا وإللي ماي. وأحسِب أنهما تتضوّران من الجوع بقدر ما كنتُ أتضوّر تقريبًا. ولا ريب في أنهما تنتظران أن أحمل إليهما حصّتهما. هل ذهب لوف؟»

Twitter: @ketab_n

فقال دْيُود:

ـ «لقد رجع إلى مستودع الفحم منذ مدة طويلة.»

ومضيا عَبْرَ شَجَرات الرَّتَم قاصدَيْن إلى المنزل. وقبل أن يبلغا الطريق بفترة غير يسيرة، كان في مَيْسورهما أن يريا إيدا وإللي ماي تنتظرانهما في الفِناء. أمّا الجدّة العجوز فكانت رابضةً عند المدخل، وقد أخذها الخوف من أن تذهب إلى أبعد من ذلك.

وقال دْيُود:

ـ «أحسِبُ أنّ النسوة جائعات أيضًا. لقد كان بطن إللي ماي يخرّ طُولَ الليلة البارحة. ولقد أيقظني ذلك الخرير، صباحَ اليوم، حين عاودَها من جديد.»

وجلست إللي ماي وإيدا على درجات السُّلَّم حين ظهر دْيُود وجيتر للعيان. لقد انتظرتا بفارغ صبر، فيما شقّ دْيُود وجيتر طريقهما عَبْرَ غياض الرَّتَم. حتى إذا اقتربا أكثر فأكثر ارتقت إيدا درجة أخرى من درجات السُّلَّم. وجثمت الجدّة العجوز في مدخل البيت، متشبثة بالدرابزون بكلتا يديها. إنّ أحدًا لم يكن أكثر منها جوعًا.

وكان ثَمَّةَ امرأة أخرى في السقيفة الأماميّة أيضًا. كانت جالسة في الكرسيّ الهزّاز يندفع بها إلى الأمام آنًا، ويرتدّ بها إلى الوراء آنًا، وكانت تُنْشِدُ بأعلى صوتها إحدى التراتيل. وكانت كلّما بلغت أرفع طبقة تقدر عليها لزمَتْها حتى ينقطعَ منها النَّفَس. ثم تعاود الإنشاد من جديد.

ووثب جيتر فوق القناة وتقدّم مجتازًا الفِناء، ودْيُود في إثره. وما إن رأى إلى المرأة الجالسة في الكرسيّ الهزّاز حتى أشرق وجهُه، وأسرع الخطى حتى كادت قدمُه تزلّ به.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

وقال جيتر حين رأى بيسّي رايس على السقيفة:

ـ «ليتمجَّد اسمُ الربّ! لقد عرفتُ أنّ الله سيبعثُ ملاكه ليمسح خَطاياي. أيّتها الأخت بيسّي، إنّ الربّ يعرف ما أحتاج إليه معرفةً جيّدة. إنه يطلب مني أن أُقلعَ عن حياتي الآثمة، أليس كذلك؟»

واندفعت إيدا وإللي ماي إلى جيوب جيتر وانتزعتا في سرعةٍ يائسة ما تبقّى فيها من اللفت. وطرح جيتر ثلاثةً من الأقراص الصغرى على السقيفة في اتجاه الباب. فركعت الجدّة العجوز على ركبتيْها وضمّت الأقراص إلى صدرها، ثم راحت تقضمُها بلِثَتِها التي لا أسنان لها.

وقالت المرأة المبشّرة:

ـ «لقد كلّفَني الربّ أن آتيَ إلى بيت ليستر. وكنتُ في منزلي أكنس المطبخ حين جاءني جلّ شأنه وقال لي: أيّتها الأخت بيسّي، إنّ جيتر ليستر يقترف الآن عملًا آثمًا. اذهبي إلى بيته وصلّي من أجله في الحال قبل أن يفوت الأوان، وحاولي أن تحمليه على الإقلاع عن أعماله الشرّيرة. فنظرْتُ إلى وجه الرّبّ وقلْت له: يا ألهي، إنّ جيتر ليستر آثمٌ كبير، ولكنّي سأصلّي من أجله إلى أن يعود الشيطان إلى الجحيم. ذلك ما قلتُه له، وها أنا ذي هنا. لقد جئتُ لأصلّي من أجلك وأجل أسرتك، يا جيتر ليستر. لعلّ أوان التوبة والعودة إلى الله لم يَفُتْ بعد. إنّ أمثالَك من الناس هم الذين ينبغي أن يكونوا صالحين، بدلًا من أن يَدَعوا الشيطان يُغريهم بارتكاب الآثام على اختلاف أصنافها.»

فصاح جيتر وهو يرقص حول كرسيّ بيسّي:

ـ «لقد كنت أعلم أنّ الربّ الطيّب لن يتركني أزِلّ وأقع في مخالب الشيطان! كنتُ أعلم ذلك! كنتُ أعلم ذلك! لقد كنتُ دائمًا إلى جانب الله،

Twitter: @ketab_n

حتى في أحلك الساعات، وكنت أعرف أنه سوف يُبعدني عن جهنّم قبل أن يفوت الأوان. أنا لستُ آثمًا بالفطرة، أيّتها الأخت بيسّي. ولكنّ الشيطان العجوز هو الذي يتحرّش بي دائمًا ويدفعني إلى أن أعمل بعض الأشياء الصغيرة غير الصالحة. ولكنّي لن أفعل ذلك. أنا أريد أن أدخل الجنة عندما أموت.»

فقالت المرأة المبشِّرة:

ـ «ألا تنوي أن تعطيَني قرصًا من اللفت، يا جيتر؟ لم يكن عندي ما يكفيني من الطعام في المدَّة الأخيرة. فقد اجتاح الضيق الصالحين والطالحين على السواء، وإن كنت أفكّر في بعض الأحيان أنّ ذلك ليس عادلًا جدًّا. فالصالحون من الناس لا ينبغي أن يُمتحَنوا بالعسْر والضيق دائمًا، كما يُمتحَن الأشرار المستحقّون ذلك.»

فقال جيتر وهو يقدّم إليها مقدارًا من اللفت تَخَيَّره من بين الأقراص الكبيرة الرّيّا:

ـ «طبعًا، يا بيسّي. أنا أعرف أنّكِ تحبّين أن تأكلي قدْرَ ما نحبّ أن نأكل تقريبًا. وكم أتمنى لو كان عندي ما أعطيكِ إياه لتأخذيه معكِ إلى البيت. فحين كنتُ غنيًّا، كنتُ أعطي الأخ رايس ملء حضنٍ كاملٍ من الدجاج والبطاطا الحلوة في وقت واحد. أمّا اليوم فليس عندي غير حَفنة من أقراص اللفت الصغيرة التي لا تساوي شيئًا. ولكنّي لستُ مستحِيًا بها. إنّ الله هو الذي أطلعها. وما يعملُه الله يكفيني. أليس الأمر كذلك، بالنسبة إليكِ أيضًا؟»

ووزّعَت الأخت بيسّي بسَماتٍ سعيدة على جيتر وأفراد أسرته. كانت تبتهج كلّما قُدّر لها أن تصلّي من أجل أحد الخاطئين وتنقذه من قبضة الشيطان لأنها كانت هي نفسها خاطئة قبل أن يطرح الأخ رايس الشيطان

Twitter: @ketab_n

من قلبها ويتخذَها زوجةً له. وكان زوجها قد توفي، فهي تُتمّ عمله في تلك الكُثبان الرملية. وحين مات بعْلها في الصيف الماضي قدّمت إليها شركة التأمين ثمانمئة دولار، فآثرَت أن تدَّخِرَها لتنهض بأعباء رسالته التبشيرية يوم تصبح في أمسّ الحاجة إليها. وهكذا أودعت المالَ مصرفًا من مصارف أوغوستا.

وكان بعض الناس في الكُثبان الرملية يقولون إنّ نوعَ الدِّين الذي تبشّر به ما كان ينسجم مع المسلك الذي أراد الله لرجال الدين أن يسلكوه في القول والعمل. وكانت بيسّي كلّما سمعت شيئًا من ذلك تُجيب بأنّ الناس لا يعرفون عن دينِ الله أكثرَ ممّا يعرف المبشِّرون الذكور . إنّ الكَثرة الكبيرة منهم لا تنتسب إلى أيِّما طائفة على الإطلاق، في حين أن سائرهم معمدانيّون متعصّبون. وبيسّي تكره المعمدانيّين المتعصبين بمثل الشدة التي تكره بها الشيطان.

ولم يكن لدى بيسّي كنيسة تجمع شمل أتباعها، ولم يكن ثَمَّةَ جماعة منظَّمة تدعمها. كانت تنتقل من بيت الى بيت في الكُثبان الرملية، وبخاصة فوق القُنّة التي تمتدّ طريقُ التبغ على طولها، وتصلّي من أجل الناس الذين يحتاجون إلى الصلاة ويريدونها. وكانت قد تجاوزت الخامسة والثلاثين، وأشرفت على الأربعين، وكانت أملح وجهًا من معظم النسوة في الكُثبان الرملية، لولا أنفها.

لقد عجز أنف بيسّي عن أن ينمو كما ينبغي. لم يكن فيه عظم، ولم يكن له رأس. كان منخراها مكشوفين، ولقد قال دْيُود يومًا إنه حين ينظر إلى أنفها يُخيَّل إليه وكأنه ينظر من طرف بندقية ذات أسطوانتين. وكانت بيسّي شديدة الحساسية حول هذه الظاهرة، فهي تحاول أن تذودَ الناس عن التحديق إليها والتعليق على ما يرون.

Twitter: @ketab_n

وكانت إيدا قد حدّثت بيسّي حديثَ كيس اللفت الذي انتزعه جيتر من لوف. وكانت بيسّي قد أقبلت على نيّة الصلاة من أجل خطايا جيتر بوجهٍ عامّ، ولكنّها سَعِدت بأن تجد خطيئة معيّنة تسند صلاتَها إليها. وكانت تقول دائمًا إنّ الصلاة تعود على المرء بنفعٍ أعظم إذا ما اقترف إثمًا يندَى له الجبين خجلًا.

ومع ذلك، فقد آثرت أن تلتهم، قبل كلّ شيء، جميعَ أقراص اللفت التي قدَّمها جيتر إليها.

وقال جيتر:

ـ «كنت أتمنى لو كان لوف هنا لكي ألتمس منه العفو. وأحسِب أنني سوف أذهب إلى منزله في ساعةٍ مبكرة من صباح الغد وأُظهر له عظيم أسفي لِما حدث. وأرجو أن لا يكون مُغْضَبًا إلى درجة تحمله على محاولة ضربي بالعصا. إنّ له خُلُقًا لعينًا حين يستولي عليه الغضب استيلاء جدّيًّا.»

وقالت بيسّي وهي تزدرد آخِرَ قرص من أقراص اللفت:

ـ «فلنُقِمْ صلاةً صغيرة.»

فقال جيتر:

ـ «ليتمجّد الربّ! أنا سعيدٌ جدًّا بحضورك في هذه الساعة، أيّتها الأخت بيسّي، لأني محتاج إلى الصلاة أكثر ممّا احتجتُ إليها في أيِّما وقت مضى. لقد اقترفتُ اليومَ إثمًا... والربّ ينفض يده من أولئك الذين يرتكبون خطيئة السرقة. أنا أدري ما الذي جعلني شرّيرًا إلى هذا الحدّ. وأحسِب أنّ الشيطان العجوز عاد كَرَّةً ثانية فبسط سلطانه عليّ.»

وركع القوم جميعًا ما عدا إللي ماي وذُيُود، اللذين قعدا على درجات السُّلَّم يأكلان ويراقبان.

Twitter: @ketab_n

وقالت بيسّي:

ـ «أتعلمون أنّ هناك أناسًا يكرهون الركوع والصلاة في الهواء الطلق؟ إنهم لا يحبّون أن أصلّي من أجلهم على الشرفة أو في الفِناء. إنهم يقولون: «أيّتها الأخت بيسّي، ألا نستطيع أن ندخل إلى المنزل بدلًا من أن نبقى هكذا عُرضةً لأنظار الناس جميعًا؟» وهل تعلمون بماذا أجبْتُهم؟ إني أقول لهم: «أيّها الإخوة، وأيتها الأخَوات، أنا لا أخجل من الصلاة ههنا في الهواء الطلق. أريد أن يعرف جميع السائرين في هذه الطريق أنني من عباد الله الصالحين. أنا لا أجد غضاضة في أن يراني الناس أصلّي. والحقّ أنّ الشيطان العجوز هو الذي يُغري الناس بالبقاء في المنازل بعيدًا عن الأنظار.» تلك هي الطريقة التي أذود بها عن حوض الإلّه. أنا أركع وأصلّي في الطريق العريض بمثل الجهارة التي أصلّي بها في مدرسة أو اجتماع معقود في الهواء الطلق. أنا لا أستحي أن أصلّيَ في فِناءٍ أو تحت شُرفة. إنّ الشيطان العجوز هو الذي لا يفتأ يُغري الناس بالانزواء في المنازل بعيدًا عن الأنظار.»

وقال جيتر:

ـ «ليتمجَّد اسمُ الربّ!»

وقالت:

ـ «فلنستعدَّ للصلاة.»

وحنت إيدا وجيتر رأسيهما، وأغمضا عينيهما. وركعت الجدّة العجوز عند مدخل البيت، ولكنّها لم تُغمض عينيها. لقد حدّقَت إلى أمام، إلى حقل الرَّتَم الأسمر.

ـ «يا إلّهي الحبيب، ها أنا ذي أقف مرّة ثانية بين يديك لأرفع صلاةً صغيرة من أجل قوم خاطئين. لقد كلَّفَني ليستر وأفرادُ أسرته أن أصلّيَ من

Twitter: @ketab_n

أجلهم كَرَّةً أخرى. إنّ الصلاة الماضية عادت عليهم بنفع كبير. ولو لم يقع جيتر في مخالب الشيطان، اليوم، لَما كان ثَمَّةَ داعٍ لأداء صلاة جديدة ولمّا تنقضِ على تلك التي مضت غير فترةٍ قصيرة. ولكنّ جيتر أرخى قِيادَهُ للشيطان، فاقترف خطيئة كبيرة. لقد سرق من لوف جميع أقراص اللفت التي كانت معه، ولم يردّها إليه. لقد أُكِلَت كلُّها الآن، فليس من سبيل إلى أن تُرَدَّ إلى لوف. وهذا هو السبب الذي يدعونا للصلاة من أجل جيتر. ينبغي أن تحمِلَه على الإقلاع عن السرقة. أنا لم أرَ رجلًا أسرقَ منه في حياتي كلِّها. ويبدو لي أنه يسرق بمثل الطبَعيّة التي يشرب بها الواحد منّا كوب ماء. ولكنّ جيتر يريد أن يتوب، وإن بدا وكأنه سوف يمضي ويرتكب سرقة جديدة حالما نفرغ من أداء هذه الصلاة لأجله. ينبغي أن تحمله، هذه المرَّة، على أن يُقلع عن السرقة إلى الأبد. فليس من الحكمة أن تدعَ الرجل يكرّر ارتكاب عملٍ آثم، طُولَ أيام عمره، على هذه الشاكلة. ينبغي أن تضع حدًّا لذلك، وأن تَحولَ بينه وبين الإقدام على هذا الصنيع بعد اليوم. إنك لن تدع الشيطان العجوز يعلّمك ما الذي يجب أن تعمله، أليس كذلك؟ ما هكذا يتعيّن على الربّ أن يفعل. إنّ على الربّ أن يأمر الشيطان بالابتعاد، وبالكفّ عن إغراء الطيّبين من الناس.

«والأخت إيدا اشتدّت عليها وطأة ذات الجنب من جديد. ينبغي أن تعمل شيئًا من أجلها هذه المرَّة. إنك في المرَّة الماضية لم تساعدها على الإطلاق. إنها لا تستطيع أن تقوم بجميع أعمالها المنزلية حين يكون داؤها خطيرًا إلى هذا الحدّ. وإذا ما شفيتَها منه فعندئذٍ تجتنب الشيطانَ إلى الأبد. أليس كذلك، أيّتها الأخت إيدا؟»

ـ «أجل، يا إلَهي!»

Twitter: @ketab_n

ـ «وأمّ جيتر العجوز تشكو ألمًا في جانبيها. إنه لا يُعفيها لحظة واحدةً. إنها راكعةٌ لك الآن، ولكنّها تعاني من الأوجاع ما يجعلها غير قادرة على أن تركع مرّات كثيرة بعد اليوم.

«وكذلك يجب أن تبارك إللي ماي. إنّ لإللي ماي تلك الشَّفَة المشرومة التي تجعلها بشِعة إلى حدٍّ فظيع. فلو كان في استطاعتك أن تعمل...»

فقال جيتر:

ـ «لا تنسَي أن تصلّي من أجل بيرل، أيّتها الأخت بيسّي. إنّ بيرل في حاجة إلى الصلاة من أجل شيء فظيع.»

ـ «وأيّ خطيئة ارتكبَتْها بيرل، أيّها الأخ جيتر؟»

ـ «ذلك ما أراد لوف أن يحدّثني عنه اليوم. هو يقول إنّ بيرل لا تخاطبه، ولا تدعه يمسّها. وحين تسقُطُ العتَمة تنام على الأرض فوق فراشٍ من قشّ. وهكذا يضطرّ لوف إلى أن ينام وحده، بعد أن يعجز عن إقناعها بأن تهتمّ بأمره بعضَ الاهتمام. وهو شيء لا يليق بزوجةٍ أن تصنعه، ويجب على الربّ أن يجعلَها ترعوي عن ذلك. إنّ للوف بعض الحقوق. وليس من شأن المرأة أن تنام فوق الأرض على مثلِ ذلك الفراش اللعين، مهما كان الأمر.»

فقالت بيسّي:

ـ «لعلّها تعرف جيّدًا ما تفعلُه، أيّها الأخ جيتر. لعلّ بيرل على وشك أن تضع غلامًا صغيرًا، وجائزٌ أن تكون هذه هي الطريقة التي فضّلَت أن تستعملَها لإخبار الأخ لوف بذلك.»

ـ «لا ليس الأمر كذلك، أيّتها الأخت بيسّي. لوف يقول إنه لم ينمْ معها قَطّ حتى اليوم. بل إنه يقول إنه لم يمسَّها مجرّد مسّ، أيضًا. وذلك ما يُقلقه إلى هذا الحدّ اللعين. إنه يريدها أن تنامَ في السرير معه وتكفّ عن النزول

Twitter: @ketab_n

إلى تلك الحشّية الملعونة كلّ ليلة. إنّ بيرل تحتاج إلى أن يُصلّى من أجلها لكي تُقلع عن النوم وحْدَها على الأرض.»

ـ «أيّها الأخ جيتر، إنّ الفتيات الصغيرات مثلَ بيرل لا يعرفن كيف يعِشْن الحياة الزوجية كما نعرف نحن النساء الناميات. من أجل ذلك يُخيَّل إليّ أنها قد تُغيّر أسلوبَها هذا إذا حدَّثْتُها أنا بنفسي، بدلًا من أن أكلّف الربّ القيامَ بهذه المهمّة. وأحسِب أنني أعرف أكثر منه ما الذي يجب أن يُقالَ لها لأنّي كنتُ امرأة متزوجة حتى الصيف الماضي، عندما تُوُفِّي زوجي السابق. ويُخيَّل إليّ أنّي أعرف كلَّ شيء عن هذه المسألة. وأغلبُ الظنّ أنّ الله لن يعرف أيّ شيء ينبغي أن يقوله لها.»

ـ «ذلك قد يُفيد بعض الشيء. ولكنْ لو كنتُ أنا من النوع الذي يقوم بالصلاة لكلّمتُ الله بطريقةٍ ما عن تلك المسألة، ولعلّه أن يساعِدَها قليلًا. لعلّه شاهد قبل اليوم فتيات من هذا النوع، على الرغم من أني لا أعتقد أنّ في البلاد كلِّها فتاةً واحدة تعاند زوجها وتأبى أن تنام معه في السرير كما تفعل بيرل.»

وتناول دُيُود كُرَةَ البيسبول وراح يقذف بها سقفَ الشرفة ثم يلتقطها حين تنقلب إلى الفِناء... كانت الكرة تزعزع الألـواحَ الضيقة المتهرّئة، فتتساقط بعض أجزائها على الفِناء. وجلست إللي ماي منتظرةً أن تسمع بعض الصلوات الإضافية عندما ختمت بيسّي وجيتر حديثهما عن بيرل.

وقالت بيسّي:

ـ «جائزٌ أن لا أؤذي أحدًا إذا أشرتُ إلى هذه المسألة.»

فقال جيتر:

Twitter: @ketab_n

ـ «هذا صحيح. حدِّثي الربّ عن ذلك. إنكما معًا يجب أن تَصلا إلى نتيجة في هذه القضية.»

ـ «والآن، يا إلَهي، إنّ عندي شيئًا خاصًّا أصلّي من أجله. أنا لا ألتمس مِنّةً من مِنَنِكَ إلّا إذا كان عندي أمرٌ أودّ من صميم قلبي لو يتحَقق. وهكذا أسألك، الآن، أن تشمل بيرل بنعمتك. أريد منك أن تحمِلَها على الإقلاع عن النوم في حشيّةِ قشٍّ مطروحة على الأرض في حين يضطرّ لوف إلى أن ينام وحده في السرير. إحمل بيرل على أن تذهب إلى السرير، أيّها الربّ، واجعلها تبقى حيث ينبغي لها. إنها لا تملك حقّ النوم في حشيَّةِ قشٍّ موضوعة على الأرض ما دام لوف قد أعدّ لها سريرًا. والآن، أكرِهْها على الإقلاع عن هذا الصنيع، وضَعْها في السرير حين يهبط الليل. لقد كنتُ أنا امرأة صالحة لزوجي السابق. أنا لم أنم يومًا في حشيّة قشٍّ مبسوطة على الأرض. والأخت إيدا لا تفعل شيئًا مثلَ هذا، أيضًا. وحين أتزوج رجلًا آخر، فلستُ أنوي أن أصطنع هذه الطريقة، كذلك. سوف أندسّ في السرير كلّما فعل زوجي الجديد ذلك. وهكذا قُلْ لبيرل أن تكفّ عن تلك العادة. نحن النساء نعرف ما الذي يجب أن نعمله، ولكنّ بيرل أصغر من أن تعرف. ليس عليك إلّا أن توعز إليها بضرورة الإقلاع عن ذلك. لو كان...»

فسألها جيتر:

ـ «ما ذاك الذي قلتِهِ أيّتها الأخت بيسّي عن مسألة الزواج؟ ألم أسمعْك تقولين إنّكِ سوف تتزوجين رجلًا جديدًا؟ من هذا الذي ستتزوجينه؟»

ـ «حسنًا، أنا لم أقرر بعد. منذ مدة وأنا أبحث عن رجل. ويبدو وكأنني لا أستطيع، في هذه اللحظة، أن أقرّر. أنا أريد رجلًا أصاب ثروة وممتلكات، ولكن يبدو وكأنّ أيًّا من رجال هذه المنطقة لم يعد يملك شيئًا. لقد أمسى الناس كلُّهم فقراء.»

Twitter: @ketab_n

فقال جيتر:

ـ «والآن، لولا إيدا لكان هناك...»

فتضاحكت وقالت:

ـ «أيّها الأخ جيتر، هل تريد أن تُطْبِقَ فمَك؟ إنك تجعلُني مضحكة جدًّا حين تتحدث على هذه الشاكلة! وفوق ذلك، كيف عرفتَ أنك تعجبني؟ لقد صرتَ شيخًا كبيرًا، أليس كذلك؟»

فقال جيتر:

ـ «أحسِبُ أنّ من الأفضل أن تُتِمّي الصلاة. إنّ إيدا تغضب كلّما حدّثْتُها عن رغبتي في الزواج من امرأة أخرى.»

ـ «... نَجِّنا من الشيطان، واحفظ لنا مكانًا في السماء. آمين!»

Twitter: @ketab_n

- 6 -

وفجأةً قال جيتر:

ـ «لقد نسيتِ أن تصلّي من أجل دْيُود نسيانًا تامًّا. لقد تركتِ دْيُود جانبًا يا بيسّي، ودْيُود لا يقلّ عن سائر أفراد أسرتنا آثامًا وخطايا.»

ووثبتْ بيسّي وراحت تعدو إلى الفِناء. ثم إنها أمسكت بذراع دْيُود وجرَّتْه إلى الشرفة، وركعتْ قرب الكرسيّ، وحاولَتْ أن تُرَكِّع دْيُود إلى جانبها.

وقال دْيُود مُغْضَبًا:

ـ «لا أريد أن أفعل ذلك. أنا لا أريد أن يُصلَّى من أجلي. أنا لم أعمل شيئًا... بابا هو الذي سرق كيس اللفت وحده. لقد حمله وانطلق به إلى الغابة.»

وأمسكت بيسّي بيديه وربّتت على ذراعيه دقائقَ عديدةً من غير أن تنطق بكلمة. ثم وقفت إلى جانبه، وطوَّقَتْ خصره بذراعيها. وضمَّتْه ضمّةً شديدة جعلت الدمَ يندفع إلى رأسه.

Twitter: @ketab_n

ـ «يجب أن أصلّيَ من أجلك يا دْيُود. لقد أنبأني الربّ أنكم جميعًا، يا أبناءَ ليستر، آثمون. وهو لم يستثنِكَ أنت. كما لم يستثنِ إللي ماي.»

ونظر دْيُود إلى وجهها. لقد توسّلَتْ في صدقٍ وحرارة كافيين لترغيبه في أن يُصلّى من أجله، ولكنه لم يتمالك نفسه عن إقحام نظراته في مِنْخَرَيْها.

وقالت:

ـ «ممّ تضحك، يا دْيُود؟»

فحاول كَتْمَ ضحكِه، وقال وهو يلوي رأسَه حتى لصار في مَيْسوره أن يرى إلى ما وراءه:

ـ «لا شيء!»

فقالت:

ـ «ليس في الصلاة ما يُضحك يا دْيُود. إننا جميعًا مضطرّون إليها، عاجلًا أو آجلًا.»

واستشعر الضيق وهو ملتصق بها على هذا النحو. وأثار تربيتُها على ذراعيْه وكتفَيْه عصبيّته، فلم يستطع أن يقف ساكنًا.

فقال جيتر:

ـ «كفاكَ قفزًا ووثْبًا، يا دْيُود! ما الذي يؤلمك؟»

وأحكمت بيسّي تطويق خصره بذراعيْها، وابتسمت له:

ـ «إركعْ إلى جانبي ودعْني أصلّي من أجلك. سوف تفعل هذا، أليس كذلك يا دْيُود؟»

Twitter: @ketab_n

ووضع ذراعيْه حول عنُقها وراح يفركُها كما كانت هي تفركُه. ثم قال وهو يحاول أن يكتم ضحكه من جديد:

ـ «وبعد كلِّ شيء، وما الذي أخسره إذا فعلتُ؟»

فقالت:

ـ «لقد عرفتُ أنك ترغب في أن أصلِّيَ من أجلك، يا ذيُود. إنّ الصلاة تساعدك على التطهّر من آثامك، كما فعل جيتر.»

وركعا على أرض السقيفة، قرب الكرسيّ. وواصل ذيُود فرْك كتفَيْها، فيما ظلّت بيسّي مطوِّقةً خصره بذراعيها. وكان جيتر جالسًا خلفهما على الأرض، مستندًا إلى جدار المنزل، مترقبًا أن يسمع الصلاة من أجل ذيُود.

ـ «يا إلَهي الحبيب، أسألك أن تنجِّيَ الأخ ذيُود من الشيطان وأن تحفظ له مكانًا في السماء. هذا كلُّ ما هنالك. آمين.»

وكفّت بيسّي عن الصلاة، ولكنّها لم تبذل، لا هي ولا ذيُود، أيَّما جهدٍ للنهوض على الأقدام.

وقال جيتر:

ـ «المجدُ للربّ، ولكن لقد كانت تلك صلاة قصيرة لعينةً بالنسبة إلى آثِمٍ مثلِ ذيُود!»

ـ «ذيُود لا يحتاج إلى مزيدٍ من الصلاة. إنه ما يزال صبيًّا. وهو ليس آثِمًا مثلنا نحن الكبار. إنه ليس آثمًا مثلَك، يا جيتر.»

فقال جيتر:

ـ «حسنًا، لعلّكِ على صواب. ولكنّ ذيُود يسبِّني ويسبُّ أمَّه طُولَ النهار. إنه لا يحترم أيًّا منا. لعلّ ذلك ما يجب أن يكون. ويكن يبدو لي أني

Twitter: @ketab_n

أذكر كلمة في الكتاب المقدّس تقول إنّ على الولد أن لا يسبّ أمّه وأباه كما يسبّ سائرَ الناس. أنا لم أسمع أحدًا يقول لي العكس، ولكن لا يبدو لي أنّ من حقّه أن يفعل ذلك. لقد رأيتُه يضايق إللي ماي ويعذّبها بإحدى العِصِيّ أيضًا، وأنا أعرف أنّ هذا ليس عملًا صالحًا. هذا إثم، وينبغي أن يُصلَّى من أجله.»
فقالت بيسّي وهي تداعب شعر دْيُود:

ـ «إنّ دْيُود لن يعودَ إلى مثل ذلك كَرَّةً أخرى. إنه ولدٌ ممتاز، من غير شكّ. وفي إمكانه أن يصبح مبشِّرًا حسنًا أيضًا. إنه شديد الشبَه بزوجي السابق في أيام صباه. وأكاد أحسُّ أنه ليس ثَمَّةَ كبير فرق بينهما الآن.»

واستدارت إيدا لترى ما الذي يفعلُه دْيُود على الشرفة. كان هو وبيسّي لا يزالان راكعيْن إلى جانب الكرسيّ، وقد طوّق كلٌّ منهما الآخر بذراعيْه.

وقال جيتر:

ـ «دْيُود في السادسة عشرة اليوم. يعني أنه أصغر من إللي ماي بسنتين. حسنًا، إنه في وقتٍ قريب سيتزوج في ما أعتقد. فقد تزوج سائر أولادي الذكور في سنٍّ مبكرة، كما فعلَت الإناث أيضًا. وحين يصبح لدْيُود امرأة، لا يبقى معي أحد من أولادي باستثناء إللي ماي. ولستُ أعتقد أنها سوف تجد في يومٍ من الأيام رجلًا يتزوجها. وكلُّ ذلك بسبب ذلك الفم الذي لها. ولقد فكّرتُ دائمًا بأن آخذَها إلى أوغوستا وأكلّف أحد الأطباء بأن يخيط شَفَتَها. وعندئذٍ يكون في إمكانها أن تتزوج سريعًا، لأنها قوية الأنوثة. والواقع أنه ليس لها علّة، باستثناء ذلك الشَّرْم في شَفَتها. ولولا ذلك لخُطِبَت بمثلِ السرعة التي خُطِبَت بها بيرل. إنّ الرجال هنا، في فولر، كلَّهم يحبّون أن يتزوجوا البنات اللواتي لا تزيد أعمارهن على الحاديةَ عشرةَ أو الثانية عشرة، كما كانت بيرل يومَ زِفافها. وإيدا كانت على وشك أن تبلغ الثانيةَ عشرةَ حين تزوَّجتها.»

Twitter: @ketab_n

وقالت بيسّي:

ـ «لقد قضى الله بأن نتزوّج كلُّنا. لقد أنشأنا على هذه الشاكلة. ذلك ما كان زوجي السابق يقوله. كنت أقول إنّ الرجل في حاجة إلى امرأة، فكان يجيبني قائلًا: إنّ المرأة في حاجة إلى رجل. لقد كان زوجي السابق مثل الربّ الإلّه من هذه الناحية. كانا كلاهما يؤمنان برأي واحد في قضية الزواج.»

فقال جيتر:

ـ «يخيّل إليّ أنّ الربّ أراد لنا كلّنا أن نتزوج. ولكنه لم يُدخل في الحساب امرأةً ذاتَ شَفَةٍ مشرومة كالتي لإللي ماي. أنا لا أعتقد أنه كان عادلًا في حقِّها حين شقّ شَفَتَها على هذا الشكل. ذلك هو النقد الذي أوجِّهه، ولم أوجِّه غيرَه من قبل، إلى الربّ. ولكن تلك هي الحقيقة. إذ أيُّ فائدة تُرتجى من شَرْمٍ كهذا؟ أنت لا تستطيع أن تبصق منه، أو أن تصفر من خلاله، أليس ذلك صحيحًا؟ لقد كان عملُه ذاك دناءة، مجرّد دناءة!»

ـ «ينبغي أن لا تتكلم هكذا عن الربّ. إنه يعرف السبب الذي من أجله عملَ ذلك. انه يعرف كلَّ شيء. وهو ما كان ليفعل ذلك لو لم يكن يهدف إلى غرضٍ طيّب. إنه يعرف لماذا يخلق الرجال والنساء. لقد جعل وجه إللي ماي على هذه الصورة لسببٍ وجيه في ذهنه. لقد كان ثَمَّةَ سببٌ من أكثر الأسباب وجاهةً في العالم، حمله على أن يقوم بذلك العمل.»

ـ «وما ذلك السبب؟»

ـ «لعلّه لا ينبغي لي أن أصرّح بهذا، يا جيتر.»

ـ «إنه ليس سرًّا بينكِ وبين الإلّه، أليس كذلك أيّتها الأختُ بيسّي؟»

ـ «لا. ليس بيننا أسرار. ولكنّي أعرف.»

Twitter: @ketab_n

ـ «تعرفين ماذا؟»

ـ «لماذا جعل شَفَتَها شَرْماء.»

ـ «ألستِ تريدين أن تُخبريني؟»

ـ «أيّها الأخ جيتر، لقد فعل ذلك بشَفَتِها لكي يُنْقِذَ جسدها الطاهر من الرجال الأشرار.»

ـ «أيّ رجال؟ لا يوجد هنا غيري أنا.»

ـ «أراد أن ينقذَها منك أنت، أيّها الأخ جيتر.»

ـ «أنا لست شرّيرًا. إني قد أقترف الآثام في بعض الأحيان ولكنّي لم أكن في يومٍ من الأيام شرّيرًا.»

ـ «كلُّ ذلك سواءٌ في نظر الربّ. إنه لا يميّز بين هذا وذاك.»

ـ «ما الذي فعلتُهُ؟ أنا لا أدري كيف يمكن أن تكون هناك علاقة بين سَرِقَة بضعةِ أقراص من اللفت لا تساوي شيئًا ومقدارٍ من البطاطا الحلوة من حين إلى حين وبين وجه إللي ماي.»

ـ «أيّها الأخ جيتر، لقد شرم الربّ شَفَتَها لكي يُنقذ جسدَها الطاهر من أن تدنّسه يداك. فقد علم أنها ستكون آمنة في هذا البيت حين خَلَقَها على هذه الصورة. وعَلِمَ أنك كنتَ في يومٍ من الأيام آثِمًا كبيرًا، وأنكَ قد تعود سيرتَك الأولى إذا...»

فقال جيتر:

ـ «هذا هو الصواب. لقد كنتُ في زماني آثمًا كبيرًا. وأحسِب أني كنت في يومٍ من الأيام أكبرَ خاطئ في البلاد كلِّها. خذي مثلًا أبناء بيبودي. هناك

Twitter: @ketab_n

عَبْرَ الحقل. إني أظنّ أنهم كلَّهم تقريبًا أنصاف أولادي، بطريقةٍ من الطرق. ثم إنني اعتدت أن ...»

ـ «إنتظرْ حتى أنتهيَ من اتهامك يا جيتر، قبل أن تبدأ في إطلاق أكاذيبك.»

ـ «هذه ليست أكاذيب، يا بيسّي. لقد أخبرتُكِ في هذه اللحظة أيّ خاطئ كبير كنتُ. ففي ذات يوم وفد على هذه المنطقة رجلٌ وامرأته. لقد أقبلا من ...»

ـ «كما قلتُ لكَ، إنكَ لم تُخْفِ شيئًا من ذلك عن الربّ الإلَه.»

ـ «ولكن هنري بيبودي لم يعرف شيئًا من ذلك...»

ـ «كان يعرف أنه قد يخطر في بالك أن تلوّث شرف إللي ماي. إنّ الربّ يعرف كلّ شيء، وإنّ عنده أسبابًا كافيةً يبني أعماله عليها. لقد عرف أنك كنتَ طَوالَ سنواتٍ عديدة آثمًا كبيرًا، وأنه لو سألك أن تَقْلَعَ عينيْكَ لأنهما أغضبتاه لَما أطعْتَه.»

ـ «إنّ النظر بعينيَّ إلى شَفَتِها المشرومة لا يُغضب أحدًا. وهو لا يبالي بعينيّ. لماذا يريد أن أقتلعهما؟»

ـ «كما قلتُ لك من قبل. لو أمَرَكَ الله بأن تقلع عَيْنَيْك لأنهما تُغضبانه لَما أطَعْتَهُ. ذلك هو الدليل على أنكَ كنت خاطئًا كبيرًا. أو لو أنّه أمَرَكَ بأن تقطع يَدَكَ، أو أُذُنَيْكَ، للسببِ نفسِه لَما أطعته. وقد عرف أنه لو أمرك بأن لا تقرب إللي ماي لما اقتلعتَ الشرَّ من جذوره، نزولًا عند إرادته، وهذا هو السبب الذي من أجله جاء بإللي ماي إلى الدنيا وفي شَفَتِها ذلك الشَّرْم. لقد بدا له أنها ستكون في نجوةٍ من آثمٍ مثلِك، لأنك لن تحبَّ وجهها على تلك الصورة.»

Twitter: @ketab_n

فقال جيتر:

ـ «لِيَتَمَجَّدِ اسمُ الربّ. لا شكّ في أنكِ فتحتِ عينيَّ على أسلوب الربّ. أنا ما كنتُ أعرف شيئًا عن ذلك، من قبل. ولو أني عرفْتُه لألجمْتُ نفسي عن مغازلة زوجة بيبودي. وعندئذٍ لا يكون ثَمَّةَ داعٍ لأن تبدو إللي ماي على صورتها الحاضرة، هذا ما تريدين أن تقوليه، أليس كذلك؟»

ـ «ذلك ما قلتُه تمامًا. الربّ يعرف الناس أكثر ممّا نعرفهم نحن.»

ـ «لقد كنتُ في زماني آثمًا كبيرًا، في ما أحسب. وأنا لم أعرف قَطُّ أنه كان ينبغي عليّ أن ألجم نفسي قبل اليوم. ولعلّ الأوان لم يَفُتْ، الآن. أنا لا أريد، طبعًا، أن أسلّم نفسي، للشيطان.»

والتفتت بيسّي إلى دْيُود كَرَّةً أخرى، مبتسمةً له، مُحْكِمَةً تطويق عُنُقه بذراعيها. ولم يعرف دْيُود ما الذي يتعيّن عليه أن يعمله بعد ذلك. لقد سرّه أن يلمسها، أن يجسّها، ورغب في أن تعانقه فترةً أخرى كما قد فعلَت. لقد أحبّ أن يحسّ بذراعيها تطوّقانه في إحكام، وتفرُكان جسدَه. ومع ذلك فلم يكن قادرًا على أن يؤمن بأن بيسّي تضمّه إلى صدرها لأيِّما سبب واضح كلَّ الوضوح. لقد كفّت عن الصلاة منذ خمس عشرة دقيقة، ومع ذلك فهي لم تأتِ بحركة تدلّ على أنها تريد أن تطلق سراحَه وتدعوه إلى النهوض.

وقال جيتر وهو ينحني إلى أمام، مضيّقًا عينيه تحت حاجبيه الأسودين الكثيفين:

ـ «هاي، أيّتها الأخت بيسّي، ما الذي تفعلانِه أنتِ ودْيُود هناك؟ منذ نصف ساعة تقريبًا وأنتما مقرفصان، يشدّ أحدكما الآخر إلى صدره.»

ورجا دْيُود أن لا تأمره بالنهوض، لأنه أحبّ أن يحسّها تشدّه إلى صدرها، وتهصره بذراعيها.

Twitter: @ketab_n

وحاولت بيسّي أن تنهض، ولكنّ دْيُود حال بينها وبين ذلك. فعاوَدت القعود إلى جانبه، على الأرض، وأخذت تُمِرّ أصابِعَها خلال شعره.

وقال جيتر وهو يهزّ رأسه:

ـ «وحقِّ الشيطان، أنا لم أرَ مبشِّرةً تسلكُ هذا المسلك من قبلُ. يُخيَّل إليّ أنكِ لا تريدين أن تقومي بأيّ صلاة أخرى اليوم. أنتِ ودْيُود تتعانقان ويحتكّ أحدكما بالآخر. قولا خِلاف ذلك إن استطعتما. وحقِّ الربّ والمسيح إنكما لن تستطيعا أن تقولا خلافَ ذلك!»

ونهضت بيسّي واستوت على الكرسيّ. وحاولت أن تُبعد دْيُود، ولكنه وقف تجاهها منتظرًا أن تمسّه بيديها.

وقالت:

ـ «لقد خاطبَني الربّ. قال لي إنّ عليَّ أن أقترن بزوج جديد. أنا لا أستطيع أن أطوّف وحدي كثيرًا، ولعلّي إذا تزوّجتُ من رجلٍ ما ، أصبح قادرة على أن أبشّر أكثر وأصلّي أكثر. ليس هذا فحسب، بل إن الربّ سوف

Twitter: @ketab_n

يجعل منه مبشِّرًا أيضًا، وعندئذٍ نستطيع أن نضرِبَ معًا في البلاد، ونبشّر بالإنجيل!»

ـ «إنه لم يقلْ لكِ أن تتزوجي دْيُود، هل قال لكِ ذلك؟ دْيُود ليس مبشِّرًا. إنه ليس من التعقل بحيث يُصبح من هذه الفئة. إنه لا يعرف بأيّ شيء يبشّر عندما تحين الساعة التي يضطرّ فيها إلى أن يقفَ ويقولَ كلمة.»

فقاطعَتْه قائلة:

ـ «دْيُود جديرٌ بأن يُصبح مبشِّرًا ممتازًا. إنه سوف ينجح في الكِرازة والصلاة مثلَ زوجي السابق تمامًا، ومن الجائز أن يفوقَه نجاحًا. في استطاعةِ الربّ واستطاعتِي أن نُرِيَه كيف ينبغي له أن يعمل. التبشير ليس صعبًا على الإطلاق إذا فَهِمه المرء.»

ـ «كم أتمنّى لو كنتُ في صبايَ الأول... إذن لكان من الجائز أن أقوم أنا بعمليّة التبشير معكِ. ومع ذلك ففي استطاعتي أن أنهض بهذا العبء الآن، لولا إيدا. إنها لا تريدني أن أضيع وقتي مع النساء، بعد اليوم. أنا أعرف أنّ في استطاعتي أن أبشّر وأصلّي كأيّ إنسان آخر. فليس هذا هو الذي يُمْسِكُني عن تلك المهمّة. إنها إيدا. إنّ في رأسها فكرة عجيبة تُخيِّل لها أنني سوف أراود النساء عن أَنفسهن في يومٍ من الأيام. حسنًا، أنا لا أقول إني لن أفعل إذا ما سنحت لي نصف فرصة...»

فقالت بيسّي:

ـ «أنا في حاجة إلى رجل أصغر منك سنًّا. إنّ دْيُود أصلحُ مَن يبشِّر معي ويعيش إلى جانبي. أليس كذلك يا دْيُود؟»

فقال:

ـ «تريدين أن أذهب معكِ إلى البيت، الآن؟»

Twitter: @ketab_n

فقالت:

«ينبغي أن أصلّي، قبل كلّ شيء، لكي أعرف يا دْيُود وحين أعودُ إلى هنا في المرَّة القادمة، سأُخبرك. ينبغي أن تنتظر حتى أستشير الربَّ في أمرك. إنّ له أفكاره الخاصة في المبشِّرين، وخاصّةً إذا كانوا يعتزمون الزواج من المبشِّرات.»

وهبطت بيسّي درجات السُّلَّم، وراحت تعدو فوق رمل الفِناء الأبيض القاسي. حتى إذا بلغت طريق التبغ تلفّتت، وراحت تتأمل، طَوالَ عدَّة دقائق، أفرادَ أسرة ليستر الواقفين على السقيفة الأماميّة.

ثم إنها انطلقت عَبْرَ الرمل الأبيض العميق إلى بيتها القائم على مَبْعَدَةِ ميلَيْن، عند مُنْحَدَر الجُرُفِ، فوق الـ «سافاناه».

وكان بيتها ذاك يتألف من ثلاث غرف وعنبر للذرة. وكان ينهض عند حافة الجُرُف حيث تنحدر الأرض نحو وادي نهر سافاناه السبخ. وكان المنزل المغطّى بألواح لم تُدهن في يومٍ من الأيام يقوم في توازنٍ قلِق على ثلاث ركائز من الحجارة الدقيقة. أمّا الركيزة الرابعة فقد سقطت منذ عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة على نحوٍ جعل إحدى زوايا البيت تنحني إلى الأرض.

وقال جيتر:

ـ «حسنًا، إنّ في رأس الأخت بيسّي فكرةً معيّنة. ويبدو لي أنها تريد أن تتزوج دْيُود. أنا لم أرَ في حياتي رجلًا وامرأة يتعانقان ويتمسّح أحدهما بالآخَر كما كانا يفعلان: إنّ شيئًا لا بدّ أن يَنْتُجَ عن ذلك. إنّ شيئًا سوف يحدث من غير شكّ.»

Twitter: @ketab_n

وحاول ڈيُود أن يكتم ضحكه. ووقف خلف شجرة أَزْدَرَخْت فلم يكن في مَيْسور أحدٍ أن يراه. وراقبتْه إللي ماي من خلف أَرومة الصنوبر متبسّمة لأنها كانت قد سمعت ما قالته بيسّي.

وجلس جيتر وأنشأ يتأمّل حقل الرَّتَم الأسمر، متسائلًا ما إذا كان في مَيْسوره أن يستعير بغلًا من مكانٍ ما، ويجنيَ بعض المحاصيل تلك السنة. لقد حلّ موسم الحرث، وهذا ما أثار قلقه وعصبيّته. إنه ما كان يريد أن يقعدَ على الشرفة عاطلًا عن العمل، ويدَعَ الربيع يمرّ من غير أن يحرثَ الأرض ويستروِحَ عبيرَ العشب المحروق. وكان قد انتهى إلى أنّ في مَيْسوره على الأقلّ أن يحرق العشب في حقله، على الرغم من أنه لمّا يعرف بعدُ السبيل إلى أن يحصل على بغل وبزر قطنٍ وسَماد طير. وكان خليقًا به أن ينطلقَ الآن ويُضرمَ النار في الرَّتَم. ولكنه استشعر الراحة في مجلسه ذاك، وفي مَيْسور الرَّتَم أن ينتظر حتى اليوم التالي. كان ثَمَّةَ مُتَّسَعٌ من الوقت ما يزال. ولن يلبثَ الزرع أن ينموَ حالما يُلقي البذور في الأرض.

والآن وقد أمسى وحده، عاوده الهمّ من جديد لِما بَدَرَ منه نحو لوف. لقد أراد أن يعمل شيئًا يُصْلِحُ ما أفسده ذلك الحادث. وكان يرجو أن يَمْضِيَ إلى المستودع صباح اليوم التالي فيُبدي للوف عظيمَ أسفِه ويَعِدُهُ بأن لا يسرِقَ شيئًا بعد اليوم أبدًا، وهكذا يغفر له لوف ولا يحاول أن يرشقَه بقِطَعٍ عريضة من الفحم. وفي الوقت نفسه يكون في مَيْسوره أن يعرّج على بيت لوف ويتحدث إلى بيرل. إنه سوف يقول لها إنّ من الواجب عليها أن تُقلع عن النوم على الأرض وأن تبذل اهتمامًا أكبر بحاجات لوف. لقد كان يعرف بالتجربة أنّ ممّا يُزعج الرجل أن يحتمل المرأة طُولَ النهار، وأسوأ من ذلك أن تتركَه ينام وحده حين يهبط الليل.

وتساءلت إيدا:

Twitter: @ketab_n

ـ «ألا تعتزمُ أن تنقل شيئًا من الحطب إلى أوغوستا؟ لقد نفد السَّعوط منذ مدّةٍ لم أعد أذكرها. وكذلك نفد الطحين كلُّه، ونفد اللحمُ أيضًا. ليس في البيت ما يؤكل.»

فقال جيتر:

ـ «أنا أفكّر في أن أنقل حملًا إلى هناك، غدًا أو بعد غد. لا تستعجلي. إنّ المرء يحتاج إلى وقتٍ طويل حتى يستعدَّ للقيام برحلة إلى هناك. يجب أن أفكّر في مصالحي. دعيني وشأني.»

ـ «أنت رجل كسول، تلك هي علّتك. ولو لم تكن كذلك لكان في استطاعتك أن تنقل حملًا كلّ يوم، ولكان في استطاعتي أن أحصُل على السَّعوط حين أكون في أمسّ الحاجة إليه.»

فقال جيتر:

ـ «ينبغي أن أفكّر في استغلال هذه الأرض. أنا لستُ حطّابًا ولكنّي مزارع. وأولئك الحطّابون الذين ينقلون أحمالهم إلى أوغوستا ليس عندهم مزرعة يهتمّون بها مثلي. أنا أتوقّع أن أجنِيَ نحوًا من خمسين بالةَ قطنٍ هذا العام إذا استطعتُ أن أستعير البغال وأوفّق إلى شراء بزور القطن وسماد الطير، في فولر، من غير أن أدفع ثمنها نقدًا. وحقِّ الإلَه، وحقِّ المسيح، إني مزارع. أنا لستُ حطّابًا لعينًا.»

ـ «تلك هي الطريقة التي تتحدث بها في مثل هذا الوقت من كلّ سنة، ولكنك لا تبدأ عملك البتَّة. وها قد انقضت سبعُ سنين أو ثمانٍ لم تشقّ فيها ثَلْمًا واحدًا. ولقد طالما سَمِعْتُكَ تتحدّث عن رغبتك في حراثة الأرض من جديد، حتى صرتُ لا أؤمن بكلمة ممّا تقول. تلك كذبةٌ كبيرة عتيقة مُبالَغ فيها. وأنتم الرجالُ كلُّكم هكذا. وفي هذه المنطقة مئةُ رجلٍ مثلِك، ليس لهم

Twitter: @ketab_n

من عمل غيرُ الكلام. إنّ الآخرين يطوفون في البلاد ويشحذون. أمّا أنت فأكسل من أن تقوم حتى بهذا العمل.»

فقال جيتر:

ـ «إسمعي يا إيدا، سوف أبدأ العمل في الصباح. وحالما أُحرق جميع الحقول سأذهب فأستعير بعض البغال. في وُسعي أنا ودْيُود أن نجنِيَ بالةً من كلِّ أَكْرٍ من الأرض، إذا استطعتُ أن أحصُل على البزور وسماد الطير.»

وهنا غادرت إيدا الشرفة قائلة:

ـ «بفّ!»

Twitter: @ketab_n

- 7 -

لم يذهب جيتر إلى مستودع الفحم ليرى لوف. وكذلك لم يذهب إلى منزل لوف ليتحدث إلى بيرل.

كان من دأب جيتر أن يرسم في ذهنه خططًا مفصّلة جدًّا لكلّ ما يعتزم عمله، ولكنه ما كان ليحقق شيئًا من ذلك، لسببٍ من الأسباب. ومرّت الأيام، وكان أسهل عليه أن يقول إنه سوف ينتظر إلى الغد. حتى إذا أشرق صباح اليوم التالي أرجأ العمل، دائمًا، إلى وقتٍ أكثر ملاءمة. وكانت الأمور قد جرت على هذا النحو الهيّن اليسير منذ شبّ جيتر عن الطوق، تقريبًا، ومع ذلك فقد اتخذ أُهبته، من جديد، لإحراق الأعشاب في حقله، وحراثة أرضه. لقد أراد أن يزرع شيئًا من القطن.

وكان رَتْقُ شَفَة إللي ماي واحدةً من تلك المسائل التي كان جيتر قد رجا، منذ خمسة عشر عامًا، أن يحققها. كان يقول، عدَّةَ مرّات في كلّ عام، إنه سوف يأخذها إلى طبيب في أوغوستا، حتى إذا بذل جهدًا في سبيل الذهاب إلى هناك لم يتقدم إلى أبعد من المخزن القائم عند مفترق الطرق، حيث كان يعترضه، في كلّ مرّة، شيء يضطرّه إلى تعديل خططه.

Twitter: @ketab_n

وفي خلال تلك السنوات كلِّها وصل جيتر إلى أوغوستا مرّتين أو ثلاث مرّات وليس في نيّته غيرُ إجراء العمليّة لإللي ماي. ولكنّ شيئًا كان يخطر بباله، كلَّ مرّة، في آخر دقيقة، شيئًا يظنّ أنه في حاجة إليه أكثر من حاجة إللي ماي إلى عمليّة. وكان ذلك الشيء هو، حينًا، حبال المحراث التي لم يبق في مَيْسوره الاستغناء عنها يومًا واحدًا، برغم أنه ما كان عنده بغل يستخدمها عليه. وكان السَّعوط هو ما يحتاج إليه أمسّ الاحتياج، حينًا آخر، فهو يعرّج على المخزن، وينفق آخر فلسٍ ممّا انطوت عليه جيوبُه من مالٍ نَزِرٍ، ثم ينقلب مع إللي ماي إلى البيت من غير أن يحقق شيئًا.

ولم تحتجّ إللي ماي. فما كان في مَيْسور أحد أن يُقنعها أنّ شفتها الشَّرْماء يمكن أن تُخاط على نحوٍ لا يُبقي منها غير ندبة لا تُلحظ إلّا بعد إنعام النظر. لقد اعتادت تلك الثغرةَ الضيقة في فمها حتى لقد غدا من المتعذّر عليها أن تؤمن بأنّ في مستطاعها أن تبدو، في يومٍ من الأيام، على غير صورتها المألوفة.

وكانت إللي ماي، كلّما اعتزم جيتر أن يذهب بها إلى المستشفى، وخاطبها في ذلك، تقف خلف زاوية المنزل، أو خلف إحدى شَجَرات الأَزْدَرَخْت المتناثرة حول المنزل وتبتسم مكشّرة. لقد تحدّث أفراد الأسرة عن شَفَتِها المشرومة حديثًا يكاد يكون موصولًا، حتى لقد غدت تؤمن بأنّ كلام جيتر عن العمليّة لم يكن غيرَ أسلوب جديد من أساليب التندّر بها والسخرية من هيئتها. وكانت تبقى مكانها خلف البيت أو خلف شجرة الأَزْدَرَخْت حتى يُغيّر موضوع الحديث. ولا تظهر للعيان إلّا بعد أن تثق من أنّ أحدًا لن يتكلم عنها شيئًا إضافيًّا.

وكان جيتر قد قال لها ذات يوم:

ـ «ليس من الإثم أن تكوني هكذا يا إللي ماي. الله هو الذي خلقكِ على هذه الشاكلة، وعلى هذه الصورة شاء هو أن تكوني. ويُخيَّل إليّ في

Twitter: @ketab_n

بعض الأحيان أنّ من الإثم تغيير شيء، لأنّ معنى ذلك تقويض ما عمله هو وصُنْعُه من جديد.»

وقالت إيدا:

ـ «حسنًا، كلُّ ما أريد قوْلَهُ إنّ ممّا يُخجِل أنه لم يجعل دْيُود أشْرَمَ بدلًا من إللي ماي. إنّ تلك الصورة لا تليق بالصبايا، فالنساء لا يصلحن لشيء غير الزواج والعمل في خدمة الرجال، وحين تكون أيّ امرأة مصابة بتلك العاهة فعندئذٍ ينفر جميع الرجال من استعمالها. ولو كان دْيُود هو الأشرم لهانت المسألة. إنّ وجوه الرجال ليست محطّ الأنظار مثل وجوه النساء.»

ومنذ عدَّة سنوات ذهبت إللي ماي إلى المدرسة لتلتحق في صف السنة الأولى، ولكنّها ما لبثت أن رجعت إلى البيت قبل الظهر ثم لم تذهب إلى المدرسة كَرَّةً ثانية. لقد قال لها المعلم إنها بلغت سنًّا لا تمكّنها من تلقّي الدروس مع الأطفال الصغار، ولكنّ السبب الحقيقي لإقصائها عن المدرسة هو أنّ الصِّبْيَةَ والبنات ضحكوا من شَفَتِها المشرومة ضحكًا كثيرًا حتى أمسوا عاجزين عن حفظ دروسهم. وهكذا انقلبت إللي ماي إلى البيت ولم تعد إلى المدرسة بعد ذلك قَطّ. ولم يقصِد دْيُود إلى المدرسة، في يومٍ من الأيام، أيضًا، فقد قال جيتر إنه محتاج إليه ليساعده في العمل.

ولكن إذا كان جيتر غير مبالٍ بحاجة إللي ماي إلى عمليّة فقد كان حريصًا جدًّا على شيء واحد في الحياة فهو يحاول أن يعمله بكلّ ما أوتي من قوة في العقل والجسد. وكان ذلك الشيء هو حراثة الأرض. ففي هذه السنوات الست أو السبع الماضية، نادرًا ما مرّت لحظة لم يفكّر خلالها في ذلك، ولم يحاول أن يكتشف طريقة تمكّنه من زرع القطن. وحين هاجر الكابتن جون منذ سبع سنوات إلى أوغوستا، بدا لجيتر وكأنّ أبواب الزراعة أُوصدَت في وجهه، ولكنه أبى أن يطّرح النضال من أجل حراثة الأرض كلّ ربيع، وزرعها قطنًا.

Twitter: @ketab_n

وما كان في مَيْسور جيتر أن يفكّر في فقدان أرضه وممتلكاته من غير أن يعتبر ذلك كارثةً تقع مسؤوليتها على عاتق الإنسان. ولقد ذهب يومًا إلى أنه هو المسؤول عن هذا البلاء، ولكنه لم يشكّ لحظةً في أنّ الوضع الذي انتهى إليه هو من صنع الآخرين. ولم ينحِ باللائمة على الكابتن جون بقدر ما أنحى بها على غيره من الناس. فقد عامله الكابتن جون دائمًا معاملة حسنة، وعمل من أجله أكثر مما عمل أيُّ امرئ آخر. وحين اضطرّ جيتر إلى أن يشتريَ من محالّ فولر بأكثر من القيمة التي يستطيع دفعها، أجاز له الكابتن جون أن يواصل ذلك، ولم يضع في أيِّما يوم من الأيام حدًّا لا يجوز لجيتر أن يتخطّاه في استدانته. ولكنّ النهاية ما لبثت أن حلّت. فلم يعد ثَمَّةَ أيُّما ربح في زراعة القطن على طريقة الكابتن جون البالية، فغادر المزرعة، وانتقل إلى أوغوستا. وبدلًا من أن يحاول تلقين مزارعيه الانسجام مع طرائق الزراعة الحديثة الأكثر وفرًا، وهو ما ظنّه منذ البدء عملًا مستحيلًا، باع الأدوات الزراعية كلَّها ورحل. ولو أنه استثمر أرضه وحيواناته وأدواته استغلالًا عاقلًا إذن لمكّن جيتر وعشراتٍ غيره ارتبطت مصائرُهم بالكابتن جون، من أن يُنتجوا قوتَ يومهم من الحنطة، ومحاصيل وافرة يبيعونها ابتغاء الربح. ولقد كان إنشاء التعاونيات والمزارع التعاونية خليقًا بأن ينقذهم جميعًا.

وانتهى جيتر إلى الدَّرْك الأسفل من الفقر. لقد انتُزِعت وسائل العيش منه، فهو يتردّى في مهاوي الجوع شيئًا بعد شيء.

وكانت الأرض التي من حوله ملكًا لجدّ جيتر. ولخمس وسبعين سنة خلت كانت أخصبَ الأراضي في الجزء الغربيّ الوسطيّ من جورجيا. وكان جدُّه قد جرّد القسم الأعظم من الأرض لزراعة التبغ. وكانت التربة صالحة آنذاك لزراعة التبغ أكثر من صلاحها لأيّ شيء آخر. كانت رمليّةً دلغانية، وكانت القُنّة مرتفعة جافّة. ولا يزال في مَيْسور المرء، حتى اليوم، أن يرى مثاتٍ من عنابر التبغ، المتهدِّمة، المرقَّعة بالطين، في ما تبقّى من المزرعة.

Twitter: @ketab_n

كان بعضها ما يزال قائمًا، ولكنّ كثرتها الكبيرة كانت متهرّئة منطرحة على الأرض.

وكانت الطريق التي يعيش جيتر عليها هي طريق التبغ الأصلية التي أنشأها جدُّه. وكان طولها يبلغ نحوًا من خمسة عشر ميلًا، وتمتدّ في اتجاهٍ جنوبيٍّ شرقيٍّ من سفوح تلال بييدمونت، حيث تبدأ الكُثبان الرملية، حتى الروابي الشاهقة المحيطة بالنهر. وكانت الطريق تُصطَنَع لدحرجة براميل التبغ الضخمة التي عُبِّئت فيها الأوراق بعد أن عولجت وجُفِّفت في العنابر الخشبية التي سُدَّت شقوقُها بالطين. ولقد دُحرجت آلافٌ من تلك البراميل على طُولِ القُنّة التي تربط ما بين سلسلة الكُثبان الرملية، فأنشأت طريقًا ثابتًا ممهَّدًا يمتدّ مسافة خمسة عشر ميلًا. وكانت جماعات من الزنوج تدفع البراميل في بعض الأحيان إلى السفن البخارية الراسية في النهر، على حين كانت أزواج من البغال تجرّها إلى هناك، أحيانًا أخرى. ولكنّ غارب القُنّة كان يُلزَم دائمًا لأنّ تنكّبه يؤدي إلى سقوط البراميل في الجداول الجارية في محاذاة الطريق إلى النهر. فلا يكاد يصيبها البلل حتى تفسد أوراق التبغ وتفقد قيمتها كلَّها.

وانقضت خمس وسبعون سنة على ذلك وطريق التبغ لا تزال قائمة. وعلى الرغم من أنها كانت قد أخذت تمّحي في كثيرٍ من المواضع فإنّ الانخفاضات والتجاويف أحدثت فيها شكلًا سرمديًّا سوف يبقى ما بقيَت الكُثبان الرملية. وكانت ثَمَّةَ عشرات من طرق التبغ في الجانب الغربي من وادي سافاناه، فأمّا بعضها فلم يكن طوله يعدو الميل الواحد، وأمّا بعضها الآخر فكان يمتدّ خمسة وعشرين ميلًا أو ثلاثين ميلًا حتى سفوح تلال بييدمونت. وكان كلّ من يمرّ عَبْرَ الحقول خليقًا بأن يقع على ست طرق أو ثماني طرق في مسيرة يوم واحد. والحقّ أنّ الإقليم كان من الناحية الطوبوغرافية أشبه شيء بسعفة النخل. فأمّا وادي سافاناه فكان يشكّل

Twitter: @ketab_n

الساق، فهو عريض في القسم الأدنى ثم يتفرّع أوردةً، شيئًا بعد شيء، في القسم الأعلى. وعلى ضفة الوادي جرت الجداول كالتجاويف التي في سعف النخل، على حين تقوم الكُثبان الرملية وسطها كالدرز أو التخريم، وتنهض طُرُق التبغ على غوارب القُنن.

وورث والد جيتر نحوًا من نصف مزرعة ليستر الأصلية، ثم ما لبث نحوٌ من نصف ذلك تقريبًا أن أفلت من بين أصابعه. لقد عجز، قبل كلّ شيء، عن أداء الضرائب، فبيع قسم كبير من الأرض وفاءً لمطالب السلطة عامًا بعد عام. أمّا البقيّة الباقية منها فحَرَثها جيتر جهْدَه. لقد اقتصر على القطن يزرعه، ولكنّ طبيعة الأرض الرملية الدلغانية أكرهته على أن يصطنع مقدارًا متعاظمًا من السماد الكيميائي في كلّ سنة. وكانت تلك التربة الرملية المتهدّلة لا تُمسك سماد الطير عندما تهطل أمطار الصيف المدرارة، فهو يُجرف قبل أن توفّق جذور النبات إلى الإفادة منه.

وحين بلغ جيتر السنّ التي تيسّر له العمل في الحقول، كانت الأرض قد انتهت إلى أن تصبح عبئًا ثقيلًا يقتضي صاحبَها نفقاتٍ باهظة، فاحتلّت شَجَرات الصنوبر القسم الأعظم منها. لقد استنفدت زراعة القطن المتكررة سنة بعد سنة طاقة التربة وحيويّتها، فغدا من المتعذّر عليها أن تقدّم إلى مالكها أكثر من ربع بالة في الأكر الواحد. وغُذِّيَت الأرض بكمّيّات من سماد الطير أكثر فأكثر، لتجرفها التربة الرملية المتهدّلة أسرعَ فأسرع قبل أن تستطيع نباتات القطن الوصول إليها.

وحين تُوُفِّيَ والد جيتر ترك له ديونه وما بقي من أرض ليستر. فكان عليه، قبل كلّ شيء، أن يسوِّيَ أمر الرهن المستحقّ. وإرضاءً للدائنين قطع جيتر جميع الأشجار الصالحة لأن تُتخذ منها الأخشاب، وباع جزءًا كبيرًا آخر من الأرض. وبعد سنتين اثنتين وجد جيتر نفسَه مثقلًا بالديون إلى حدّ لم يعد يملك، معه، بعدَ إرضاء الدائنين، أكرًا واحدًا من الأرض، بل مجرّد

Twitter: @ketab_n

منزل يأوي إليه. وكان الرجل الذي اشترى المزرعة، عندما بيعت بإشراف الحكومة، هو الكابتن جون هارمون. ولقد أجاز الكابتن جون له ولأسرته أن يقيموا في أحد المنازل، وأن يعمل لحسابه لقاء نسبة مئوية من المحصول. وكان ذلك قبل عشر سنوات من اندلاع نار الحرب العالمية.

ومنذ ذلك الحين وجيتر يغرق كلّ عام في فقرٍ أمرّ من الفقر الذي عرفه في العام الذي قبله. ويبدو أنّ تلك الحالة انتهت إلى ذروتها عندما باع الكابتن جون البغال والأدوات الزراعية وانتقل إلى أوغوستا. وعندئذٍ فقدَ جيتر حصة الثلثين من محصول عمله في عام، ولم يعد في وُسْعِه أن يشتريَ الأطعمة والسَّعوط وغيرَها من الحاجات الضرورية من مخازن فولر بالدَّين. لقد ذهب ذلك كلُّه بذهاب الكابتن جون. ولم يدرِ جيتر ما الذي ينبغي أن يفعله. فمن غير سعوط وطعام، بدت الحياة غيرَ جديرة بأن تُعاش منذ اليوم.

وفي تلك الفترة غادر معظم أولاده المنزل، ومضوا إلى أوغوستا ومواطن أخرى. ولم يكن جيتر يعلم مستقَرّ كلٍّ منهم الآن.

لقد رُزق هو وإيدا سبعة عشر ولدًا مات خمسة منهم وتناثر الاثنا عشر الباقون في مختلف الأرجاء، إلّا إللي ماي وذُيُود فقد ظلّا في البيت. وكانت بيرل تقيم على مسيرة ميلين ليس غير، ولكنّها لم تَفِدْ يومًا على المنزل لترى جيتر وإيدا، ولم يرها أيٌّ منهما قَطُّ أيضًا. ودُفن الموتى من الأولاد في أجزاء مختلفة من المزرعة. وحُرثت الأرض بعد وفاة أولئك الأولاد. وإذ كانت القبور غير معلَّمة فما كان أحد يدري أين يلتمسها.

وتزوج أولاد جيتر كلُّهم ما عدا ذُيُود وإللي ماي. وظنّ جيتر أنه يعرف مقرّ توم. ولكنه لم يكن واثقًا من ذلك. لقد سمع في مخازن فولر أنّ توم، وهو نجلُه الأكبر، يُدير معملًا لصنع العوارض الخشبية التي تدعم خطوط السكة الحديدية، وأنّ ذلك المعمل قائم في المقاطعة المجاورة، على مَبْعَدَةِ عشرين ميلًا تقريبًا.

Twitter: @ketab_n

ولم يكن أحدٌ يدري شيئًا عن مقرّ سائر الأولاد، وما إذا كانوا لا يزالون، جميعًا، على قيد الحياة. وكانت ليزي بيلّ آخر من غادر المنزل. لقد مضت لسبيلها منذ عدَّة سنوات، قائلةً إنها تبتغي أن تعمل في أحد مصانع القطن على الضفة الأخرى من النهر، تجاه أوغوستا. وكان في وادي هورسكريك عشرة من مصانع القطن أو أكثر، ولكنّها لم تعيّن في أيٍّ منها سوف تشتغل. وقد قيل لجيتر إنها ما تزال هناك، وإنها تزوجت ورُزقت حتى الآن سبعة أولاد. ولم يدرِ أصحيحٌ هذا الذي قيل له أم غير صحيح، لأنه لم يتلقّ لا هو ولا إيدا أيَّ رسالة من ابنته قَطّ.

وكانت تمرّ بجيتر أيامٌ يستشعر فيها الوحشة لعدم وجود أولاده كلِّهم من حوله، فيتمنى لو يعود بعضهم لرؤيته، أو لو يكتب بعضهم إليه رسالة. وكان يتساءل، عندئذٍ، أليس من الجائز أن يكونوا قد بعثوا إليه برسائل لم تصله؟ فقد كانت طريق التبغ بعيدةً عن مسالك سُعاة البريد، ولم يكن له صندوق بريد. ولكنه قال عدَّة مرّات إنه سيذهب ذات يوم إلى مكتب البريد في فولر ليسأله ما إذا كانت ثَمَّةَ رسالةٌ جاءته من ليزي بيلّ أو كلارا أو توم أو أيٍّ واحد من الآخرين. وكان يدري أنّ عليه أن يبحث عمّن يقرأ له الرسائل إذا ما جاءه شيء منها لأنه لم يتعلّم، لا هو ولا إيدا، القراءة والكتابة. وكان قد قصد إلى فولر مئات المرّات قبل أن يخطر في باله، أوّل مرّة، أن يسأل مكتب البريد عن رسالة، ولكنه لمّا يجدِ الوسيلة إلى القيام بذلك.

وكان يرجو أن يوفَّق إلى الذهاب، في يومٍ من الأيام، إلى مقاطعة بورك لرؤية توم. ولقد رسم الخطة لهذه الرحلة منذ عدَّة سنوات، ولكنّ السيارة العتيقة هي التي حالت بينه وبين الانطلاق، في المرَّة الأولى، على حين عاقه عن ذلك سوء الحال الجوية والطرق الموحلة، في ما بعد.

وإنما اعتزم جيتر القيام بتلك الرحلة لغرضين اثنين. لقد أراد أن يرى ابنه توم، طبعًا، ويتحدث إليه، ولكنّ حافزه الرئيسي إلى الذهاب كان اعتقاده

Twitter: @ketab_n

بأنّ توم سوف يُجري عليه عطاءً نظاميًّا حين يعلم مبلغ الفقر الذي يقاسيه، ومدى حاجته وحاجة أمّه إيدا إلى السَّعوط والغذاء. ومن الأشياء التي سمعها جيتر في مخازن فولر أدرك أنّ في وُسع توم أن يعطيه بضعة دولارات كلّ أسبوع. فقد قال الناس إنه يملك خمسين أو ستين بغلًا، وضعف هذا العدد من الثيران، وإنه يجني ربحًا عظيمًا من العوارض الخشبية التي يبيعها لإدارة السكة الحديدية. لقد سمع جيتر ذلك عدَّة مرّات في فولر، وأدرك أنّ هذا الذي سمعه صحيح من غير ريب. إنه ما كان في مستطاعه أن يؤمن بأنّ توم قد يرفض إسداء يد العون إليه وإلى إيدا حين يشكو إليه فقرهما المدقع. والآن وقد أوشك الشتاء على أن ينقضي فقد رجا جيتر أن يوفَّق إلى القيام بتلك الرحلة في الصيف القادم. إنّ الطرق لن تكون موحلة، آنذاك، ولسوف يكون النهار أطول جدًّا منه اليوم.

وكان لانقضاء الشتاء وإطلال الأيام الأولى من الربيع إطلالًا وئيدًا أثره المألوف في نفس جيتر. لقد أضرمت أيام شباط المتأخرة الدافئة رغبته في حراثة الأرض، كَرَّةً أخرى. ففي مثل تلك الفترة من كلّ سنة كان يبذل جهدًا جديدًا لحرث الأرض والبحث عن الوسائل التي تمكّنه من شراء بزور القطن وسماد الطير، بطريق الدَّين، من بعض التجار في فولر. وكانت محاولاته تنتهي دائمًا إلى رفضهم جميعًا أن يُقرضوه عشرة سنتات. وأيًّا ما كان فقد أحرق العشبَ في هذا الحقل من المزرعة وفي ذاك، كلَّ ربيع، مجرِّدًا الأرض من شَجَرات الرَّتَم استعدادًا لحرثها إذا ما أعاره أحدهم بغلًا أو أعطاه قليلًا من بزر القطن وسماد الطير. لقد كانت هذه القصة نفسها تتكرر كلّ عام، خلال السنوات الست أو السبع الخاليات.

كان يعمر قلب جيتر حبٌّ للأرض موروث عجزت جميع تجاربه القاسية في حقل الزراعة عن إخماد جذوته. لقد عاش حياته كلَّها هناك، على بقيّة صغيرة من مزرعة ليستر. وعلى الرغم من إدراكه أنها لم تكن

Twitter: @ketab_n

مِلكه، من وجهة النظر القانونية فقد استشعر أنه خليق بأن يموت إذا فارقها. بل إنه ما كان يسمح لنفسه بالتفكير في الهجرة إلى مكانٍ ثانٍ، حتى ولو سنحت له فرصة العمل في مزرعة رجل آخر على أساسٍ من نسبة مئوية من الإنتاج. وكان مجرّد الانتقال إلى أوغوستا والعمل في مصانع القطن أمرًا متعذّرًا بالنسبة إليه. والحقّ أنّ نزوح المزارعين الآخرين إلى المصانع لم يترك أيَّما أثرٍ في نفس جيتر. كان يقول إنّ العمل في المصانع قد يلائم طائفة من الناس، أمّا هو فيؤْثر أن يموت جوعًا على أن يغادر أرضه. وخلال سبع سنوات لم تتغير آراؤه حول هذا الموضوع، البتَّة. على العكس لقد غدا مصمّمًا أكثر من أيّ وقت مضى على البقاء حيث هو مهما كان الثمن.

وعندما غادرت ليزي بيلّ المنزل قالت إيدا إنها سوف تهاجر إلى أوغوستا أيضًا. ولكنّ جيتر لم يسمع لكلامها. إنه لم يستشعر، في أيّ لحظة من لحظات حياته، الرغبة في مفارقة الأرض والعيش في مدينة من مدن الصناعة.

وكان جيتر قد قال هازًّا رأسه:

ـ «حياة المدن ليست شيئًا ممّا خلقه الله. ولم يُكتب للرجل الذي وُلد ورائحة الأرض في جسده أن يعيش في مصنع من المصانع في أوغوستا. لعلّ من الخير لبعض الناس أن يفعلوا ذلك، ولكنّ اللّه لم يُرِدْ لي لحظةً أن أفعله. لقد فتح عينيّ للنور هنا، على أرضي هذه، فلن أغادرها بأية حال. ولو تحتّم عليّ أن أعيش في أحد مصانع القطن طُولَ عمري لأحسستُ مثلَ إحساس دجاجة قُطع رأسُها.»

فأجابته إيدا مغضبة:

ـ «أنت تتكلم مثلَ معتوه عجوز. إنّ العيش في المصانع أفضل بكثير من البقاء هنا، على طريق التبغ، والجوع حتى الموت. هناك سوف يكون في

Twitter: @ketab_n

استطاعتك أن تأتيَني بحاجتي من السَّعوط. أنا لا أجد هنا مقدارًا من السَّعوط كافيًا لتهدئتي.»

فقال جيتر:

ـ «يعتزم الربُّ أن يسدَّ حاجاتنا كلَّها. وأنا مستعدّ الآن لأن أتلقى نعمته. إني أتوقعها بين دقيقة ودقيقة. فهو لن يدعَنا نبقى هنا ونجوع. سوف يرسل إلينا بعض السَّعوط والأطعمة في وقت قريب جدًّا. لقد كنتُ طُولَ عمري تقيًّا أخاف اللّه، وهو لن يتركني أقاسي من العذاب أكثر ممّا قاسيت.»

ـ «حسنًا، ابقَ جالسًا في مكانك، وسترى! سوف تنقضي عشرُ سنوات أخرى وأنت على حالك الآن، إذا عشتَ هذه المدَّة كلَّها. حتى الأطفال عندهم إدراك أكثر منك. ألم يذهبوا إلى المصانع ويشتغلوا فيها منذ صارت سنُّهم تساعدهم على ذلك؟ لقد كانوا أعقل من أن يجلسوا هنا وينتظروا منك أن تضع الطعام في أفواههم وبطونهم الجائعة. لقد عرفوا أنك لن تعمل شيئًا في هذه السبيل، غير الكلام. ولو لم أكن عجوزًا إلى هذا الحدّ، لذهبتُ إلى المصانع، في هذه اللحظة، وكسبت شيئًا من المال.»

ـ «إنّ الربّ يرسل إليّ كلّ المصائب التي تخطر بباله لكي يمتحن نفسي. ولا شكّ أنه يخبئ لي شيئًا حسنًا إلى حدٍّ كبير لأنه يختبرني اختبارًا قاسيًا. وأعتقد أنه يتصور أني إذا استطعت أن أحتمل أفراد أسرتي أنفسَهم فمعنى ذلك أنّ في وُسعي أن أتغلّب على الشيطان.»

فقالت إيدا:

ـ «بف! إذا لم يسارع ويعمل شيئًا من أجلنا فسوف يفوت الأوان. إنّ مَعِدتي المسكينة تؤلمني ألمًا شديدًا طُولَ النهار عندما لا يكون عندي شيء من السَّعوط أهدّئها به.»

Twitter: @ketab_n

- 8 -

لم يكن في الكُثبان الرملية عملٌ يستطيع أن يجده جيتر فيعود عليه ولو ببضعة سنتات في اليوم. فضمن نطاق دائرةٍ شعاعُها عشرون ميلًا كان المزارعون في غير حاجة إلى مساعدة مأجورة، لأنهم كلَّهم تقريبًا كانوا في مثل حالة جيتر، على حين كان بعضهم في وضعٍ أدهى وأمرّ. ولم يكن ثَمَّةَ، قُرْبَ طريق التبغ، مناشر للخشب أو مصافٍ لزيت البُطم أو التربنتين يستطيع أن يعمل فيها. وكان العمل في مستودع الفحم هو وحده المَيْسور في المنطقة كلِّها. ولكنّ لوف كان قد تولّى تلك الوظيفة منذ أن أُنشئت «سكة حديد أوغوستا وجورجيا الجنوبية». وحتى لو استطاع جيتر أن ينتزع الوظيفة من لوف، فلن يكون في مَيْسوره أن ينهض بمثل هذا العمل الشاقّ إلى أبعد الحدود. ذلك بأنّ تعبئة الصناديق الحديدية الضخمة طُولَ النهار ودحرجتها إلى حافة الماكينة حيث تُفرِغ في الصهاريج تقتضيان ظَهرًا قويًّا وذراعين أكثر قوة. وكان في استطاعة لوف أن يقوم بالعمل، لأنه تعوّده. ومن الحماقة أن يحاول جيتر النهوض بعبء ذلك، وهو في تلك الحال من الضعف والعجز، حتى ولو رغبت السكة الحديدية في استئجاره.

وكان أمل جيتر في العثور على توم يُمِدُّه بالقوة على المصابرة والجِلاد. فوراء إيمانه الناضح بالأمل بأنّ توم سوف يعطيه شيئًا من مال، كان

Twitter: @ketab_n

يكمن خوفه من أن يموت وليس عنده بذلة لائقة يُدفَن بها. لقد نشأ في نفسه ذعرٌ متعاظم من أن يموت وليس على جسده غيرُ الوِزرة أو ثياب العمل.

وكانت إيدا تتحدث كثيرًا عن رغبتها في شراء ثوب لائق تُدفَن به حين ينتهي أجلها. كانت تريد ثوبًا حريريًّا أحمر أو أسود ـ لا فرق ـ ما دام طولُه وَفْقَ مقتضى الموضة. وكان عندها ثوبٌ صانته عدَّةَ سنوات لكي تموت به، ولكنّها كانت أبدًا في همٍّ مقيم، خشيةَ أن يكون غيرَ منسجم ، من حيث الطول، مع الموضة الحديثة. ذلك أنّ طولًا معيّنًا يدرج في سنة من السنوات فما يَحولُ الحَوْلُ حتى تقضي الموضة، على نحوٍ غامضٍ خفيّ، بزيادته أو نقصه عدَّة بوصات. وكان من المتعذّر على إيدا أن تلاحق هذه التغيّرات كلّها. وهكذا حاولت على الرغم من ادخارها ليوم وفاتها ثوبًا خاصًّا، أن تنتزع من جيتر وعدًا بأن يشتريَ لها ثوبًا جديدًا منسجمًا مع الزيِّ الأخير، لكي ترتديه حين ترقد رقدتَها الأبدية.

واعتقدت إيدا أنها سوف تموت بين يوم وآخر. وكان من عادتها أن تدهَشَ لنهوضها في الصباح واكتشافها أنها ما تزال على قيد الحياة. ولم يكن داء البلاغرا الذي اعتصر الحياة شيئًا فشيئًا من جسدها الضامر غيرَ موت متطاول بطيء. وكانت الجدّة العجوز تشكو البلاغرا أيضًا ولكنّها امتنعت بطريقةٍ ما على الموت. لقد صارع جسدُها الواهن ذلك الداء يومًا إثر يوم، ولكن في ما عدا ذبول بشرتها ولحمها ذبولًا بطيئًا، لم يكن في مَيْسور أحد أن يحزر متى ستموت. كان وزنها لا يعدو الآن اثنين وسبعين رطلًا، أمّا في الأيام الخالية فكانت امرأة بدينة، وكان وزنها قبل عشرين عامًا مئتي رطل. وكان جيتر غاضبًا عليها لبقائها على قيد الحياة، فهو لا يقدّم إليها شيئًا من الطعام كلّما وجد سبيلًا إلى حرمانها منه. وأيًّا ما كان، فقد تعلّمت كيف تلتمس ما يُقيم أودها، على طريقتها الخاصة. أمّا كيف كان ذلك فهذا

Twitter: @ketab_n

ما لم يعرفه أحد. كانت في بعض الأحيان تغلي شيئًا من أوراق الأشجار وجذورها. وكانت في بعضها الآخر تأكل الأعشاب البرية وزهرات الحقول.

وكان جيتر قد أوضح لأهله الطريقة التي يودّ أن تُصطنع في دفنه. ولقد أكد لكلٍّ من إيدا ولوف أهمّيّة العمل بموجب تلك الطريقة وضرورته. والحقّ أنه توقّع أن تموت إيدا قبله، ولكنه مخافةَ أن يُقتل في سيارته على حين غرّة ، انتزع من إيدا وعدًا بأن تشتريَ له بذلة جديدة يُدفن بها. أمّا إذا تعذّر عليها ذلك، فعندئذٍ يتعيّن عليها أن تمضيَ إلى فولر وتسأل بعض التجار أن يعطوها بذلةً عتيقة يلبسها في مثواه الأخير. وكان على لوف أيضًا أن يُقسم أنه لن يألو جهدًا في سبيل دفن جيتر ببذلة كاملة بدلًا من الوِزرة أو ثياب العمل.

ولكن كان ثَمَّةَ شيء آخر متصلٌ بوفاة جيتر هذه، وليس يقلّ عن هذا خطرًا.

فقد كان جيتر يخاف الفيران خوفًا شديدًا. وكان ذلك عجيبًا، لأنه عاش طَوالَ عمره، وهو محاطٌ بها، ولأنه عرف أخلاقها كما قد عرف أخلاق الرجال، تقريبًا. وكان مردّ كرْهه الفيرانَ إلى حادثة وقعت يوم مات أبوه، وكان جيتر في ريعان الشباب.

فقد مات ليستر العجوز في هذا البيت نفسه الذي يسكنه جيتر الآن، ثم دُفن في اليوم التالي. وتلك الليلة، فيما كان جيتر ونفر من الرجال جالسين حول جثمانه، اقترح أحدهم أن يمضيَ الجمع كلُّهم إلى فولر فيشتروا زجاجات الكوكاكولا وشيئًا من التبغ. كان عليهم أن يسهروا الليلَ كلَّه حول الجثمان، وكانوا قد استشعروا الحاجة إلى شيء يشربونه وشيء يدخنونه. وإذ كان جميع الرجال، وفيهم جيتر نفسه، راغبين في المضيّ إلى فولر، فقد وضعوا الجثة في عنبر الذرة وأوصدوا دونها الباب. وكان العنبر هو المكان

Twitter: @ketab_n

الوحيد ـ في تلك المزرعة ـ الذي يستطيع المرء أن يوصد فيه الباب على أيِّما شيء ثم يعود فيجده سالمًا لم يمسّ. فقد كان من عادة الزنوج والبيض أن يُلمّوا بمنزل ليستر، في مَوْهِنٍ من الليل، ويسرقوا كلّ ما تقع أيديهم عليه من أشياء لم تُحَطْ بحماية ما. ولم يكن لأيٍّ من أبواب المنزل قفلٌ، ولكن باب العنبر كان يحمل قفلًا. وهكذا وضع القوم جثة الميت في الداخل، وأوصدوا الباب، وأخذوا المفتاح، ثم مضوا إلى فولر التماسًا للكوكاكولا والتبغ.

وبعد ثلاث ساعات أو أربع ساعات عاد القوم إلى المنزل. وما كادوا يحلّون وَثاق البغال ويشدّونها إلى عجلات العربة حيث تُمضي بقيّة تلك الليلة حتى فتحوا باب العنبر، ورفعوا الصندوق الخشبيّ، ورجَعوا به إلى البيت. ثم إنهم أنفقوا سائرَ الليل وهم يراقبون التابوت، ويشربون الكوكاكولا، ويدخنون التبغ ويمضغونه.

وفي أصيل اليوم التالي، وكان التابوت على وشك أن يوارى الثرى، رُفع الغطاء عن الجثمان لكي يُلقِيَ عليه الأهل والأصدقاء نظرة الوداع. ولم يكد القوم يرون إلى الجثة حتى وثبتْ من التابوت فأرة ضخمة من فيران عنبر الذرة واختفت في الغابة. ولم يدرِ أحدٌ كيف تسرّبت تلك الفأرة إلى الداخل إلّا بعد أن اكتشف بعضهم ثَقبًا في قعر الصندوق الخشبيّ كانت الفأرة قد قرضَتْه إثر وضعِهِ في العنبر.

ومرّ القوم أمام الجثمان يلقون النظرة الأخيرة على الفقيد، وكلّما حاذى التابوتَ واحدٌ منهم ارتسمت على وجهه انطباعة عجيبة. وقهقهت فئة من النساء، وكشّر الرجال، وتطلّع بعضُهم إلى وجوه بعض. وأسرع جيتر إلى التابوت ورأى ما الذي حدث. كانت الفأرة قد أكلت معظم الجانب الأيسر

Twitter: @ketab_n

من وجه أبيه وعنقه. وأغلق جيتر التابوت ووارى التراب في الحال. إنه لم ينسَ ذلك النهار قَطّ.

والآن وقد غدا الموت غيرَ بعيدٍ من جيتر فقد راح يلحّ أكثر من ذي قبل على أنّ جسده ينبغي أن لا يوضعَ في عنبر من عنابر الذرة أو يُترك حيث تستطيع الفيران أن تبلغَه. وكان لوف قد وعده، في كثيرٍ من الصدق والإخلاص، بأن يبذل غاية جهْده لكي يَحُولَ دون وصول الفيران إليه قبل أن يُدفَن.

وكان جيتر قد قال لصهره عشرات المرّات:

ـ «ينبغي أن تقسم لي أنك لن تتركَني في التابوت حيث تستطيع الفيران أن تصل إليّ. أنا أُشهد اللهَ، يا لوف، أنّ هذه ليست طريقة ملائمة يُعامَل بها الميت. ولقد أسفتُ لِما أصاب أبي منذ أن وقع هذا الحادث، وما أزال آسفًا لذلك. وأنا أعلن أمام الله أنّي لا أريد أن يصيبَني مثل ما أصاب أبي يوم أفقدُ الروح وأصبح عاجزًا عن أن أعمل شيئًا للدفاع عن نفسي.»

فأجابه لوف:

ـ «لا تخف ولا تقلق. سوف أحفر حفرةً وأُنزلك فيها حالما تموت. إني لن أنتظر إلى اليوم التالي. لا، بل سأضعك تحت التراب قبل أن تنقضي ساعةٌ واحدة على موتك. سوف أهتمّ بجثّتك. لا تقلق من هذه الناحية.»

ـ «كلّ ما أريده هو أن لا تضع التابوت في ذلك العنبر الملعون، يا لوف، وافعل بعد ذلك ما تشاء. إنه خالٍ من الفيران الآن لأني لم أضع فيه شيئًا من الذرة منذ خمس سنوات تقريبًا، ولكنّها ترحل إليه بين حينٍ وآخر من مكان إقامتها الحاليّ عساها تقع فيه على شيء من الذرة. وقبل أن تغادر البيت قرضَت أطواق البغال وكلَّ ما وجدَتْه في مُتناولها، انتقامًا مني لعدم

Twitter: @ketab_n

وضعي الذرة لها، في ذلك المكان. وكنت أضربها على رؤوسها بالعِصِيّ، ولكنّ هذا لم يمنعْها من العودة بين حينٍ وآخر. ولقد كنتُ هناك منذ مدّة قريبة أبحث عن بعض عرانيس الذرة اليابسة المأكول حبُّها، فإذا بفأرة تعضّ رجلي قبل أن أخرجَ من العنبر. ولا ريب في أنّ جماعة الفيران تُبغضني حتى الموت لأني لا أضع لها شيئًا من الذرة تأكله في ذلك العنبر.»

وإيدا أيضًا وعدتْ جيتر بأن تَحولَ دون تعريض جسده للفيران التي يكرهها إلى هذا الحدّ. ولكنّ جيتر لم يلحّ عليها في ذلك بقدر ما ألحّ على لوف، لأنه اعتقد أنه سوف يعمَّر عدَّةَ سنوات بعد وفاة إيدا.

وكانت إيدا تبدو وكأنها ستموت قبل جيتر. لقد سقطت أسنانُها كلُّها، وكانت قد اعتادت تنشُّق السَّعوط وهي في الثامنة من العمر ليس غير. ولم تعمّر أسنانُها فترةً طويلة بعد الزواج. وكان موتها هو الشيء الوحيد الذي يشغل بالها علاوةً على رغبتها الموصولة في السَّعوط. فقد كان خوفها أن لا يكون عندها ساعةَ وفاتها ثوبٌ على الزيّ الحديث يُقلقها ليلَ نهار. ولم تكن على ثقةٍ من أنّ جيتر سوف يشتري لها ذلك الثوب عندما يجدّ الجدّ. من أجل هذا ادخرت الثوب العتيق، لكي تُدفَن به إذا لم يشترِ لها زوجها ثوبًا أحدث منه زيًّا.

وقالت ذات يوم:

ـ «ليتني أعرف، فقط، أين تعيش بناتي، فلعلّهنّ يساعدْنني على شراء فستان جديد أُدفن به. كانت ليزي بيلّ تحبّ أمَّها العجوز حبًّا كثيرًا. وأنا أعرف أنها ستساعدني على شراء الثوب إذا عرفتُ مكانها. وكلارا قد تساعدني أيضًا. كانت تقول لي كم كنتُ أبدو جميلةً حين أرجّل شعري في الصباح، وأرتدي مئزرًا نظيفًا وقبّعة واقية من أشعّة الشمس. ولست أدري ما إذا كان أولادي الباقون يريدون أن يساعدوني أم لا. فقد انقضى وقت طويل

Twitter: @ketab_n

لم أرهم فيه، فأنا على وشك أن أنسى هيئاتهم. ويبدو لي أنني لا أستطيع أن أتذكّر أسماءهم كلَّها في بعض الأحيان.»

فقال جيتر:

ـ «من الجائز أن تكون ليزي بيلّ تكسب مالًا كثيرًا في مصانع القطن. ولعلّي إذا وجدتها وحدّثتها عن حالي استطعت أن أقنعها بأن تأتي إلى هنا في يوم من الأيام ومعها قليل من المال. أنا أعرف أنّ بيلي سوف يحمل إلينا شيئًا من السَّعوط والأغذية إذا استطعتُ أن أكتشف مكانه. فقد كان بيلي أحسن أولادي الذكور كلِّهم تقريبًا. كان يعاملني معاملة حسنة حتى في عهد طفولته. ولم يسرق في يومٍ من الأيام الدبس الذي ندّخره للعشاء، كما كان يفعل سائر أولادنا. وأحسب أنه أصبح اليوم تاجرًا كبيرًا يعمل في مكان ما. ولقد كان يقول دائمًا إنه سوف يكسب مالًا كثيرًا لكي لا يضطر إلى أن يذهب حافيًا، في فصل الشتاء، كما ذهب توم وكلارا حين فارقا البيت.»

وتحدَّثَتْ إيدا إلى جيتر كلّما دار الكلام على أولادهما الغائبين عن المنزل. لقد بدت وكأنها غير مهتمة بالأشياء الأخرى اهتمامًا يحملها على أن تجشّم نفسها عناء التحدث فيها. كانت تجيب عن أسئلة جيتر في معظم الأحيان، وتؤنبه حين لا يكون في المنزل ما يقيم الأَود. وفي ما بقي من وقت، لم يكن عندها شيء تقوله غير النزر اليسير. ولكن ما إن يذكر اسم بيلي، أو ليزي بيلّ، أو كلارا، أو ووكر حتى تفقد عيناها سيماهما الغائرة، وترغب في الكلام عنهم بقيّة النهار. ولم يرجع أحد من الأولاد إلى المنزل لرؤية أبيه وأمه. ولم يبعث أحدٌ منهم برسالة. وإذ لم تتلقّ إيدا وجيتر رسالة ما، فقد اعتقدا أنّ جميع أولادهما المفارقين البيت كانوا على قيد الحياة. فلم تكن ثَمَّةَ وسيلة لمعرفة ما إذا كانوا قد ماتوا أم لا.

وكان جيتر قد قال لإيدا:

Twitter: @ketab_n

ـ «سوف أذهب إلى مقاطعة بورك وأرى توم. لقد عقدتُ العزم على أن أذهب إلى هناك وأراه قبل أن أموت. وكلّ إنسان في فولر يقول لي إنه يملأ ليلَ نهار عرباتٍ كاملة بعوارض الخشب المستعمَلة في تدعيم الخطوط الحديدية. ويقولون إنّ عنده معملًا كبيرًا جدًّا، في تلك المقاطعة، لصنْع هذه العوارض. ومن أحاديث الناس عنه يُخيّل إليّ أنه صار غنيًّا جدًّا الآن. ومن المؤكد أنه سوف يعطيني بعض المال. على الرغم من أنه يبدو لي في بعض الأحيان أنّ الغنيّ لا يمكن أن يمدّ يد المساعدة إلى الفقير. في حين يعطي الفقراء كلّ ما عندهم لمساعدة من لا يملك شيئًا . ذلك ما يخيّل إليّ. والأشياء لا ينبغي أن تكون هكذا على الإطلاق، ولكنّي أظنّ أنّ الأغنياء ليس عندهم متّسع من الوقت حتى يضيّعوه معنا نحن جماعة الفقراء.»

ـ «حين ترى توم، قل له إنّ أمّه العجوز شديدة الشوق إلى رؤيته. وقل له إنني قلت إنه كان أحسن أولادنا السبعة عشر كلِّهم تقريبًا. إنّ كلارا وليزي بيلّ أفضل البنات، ولكن توم وبيلي هما أفضل الصبيان. قل لتوم إنّي قلت إنه كان أحسنهم جميعًا، فلعلّه يُرسل إليّ بعض المال لأشتريَ ثوبًا على الزيّ الحديث.»

وقال جيتر:

ـ «بيرل هي الأجمل. فليس لأحد من البنات الباقيات ما لها من شعر أشقر جميل. وليس لأيٍّ منهنّ مثل عينيها الزرقاوين الفاتحتين. إنها أوّل ليستريّة ذات شعر أشقر شاهدَتْها عيناي. وإنه لمن المضحك أن تكون هكذا، أليس كذلك يا إيدا؟»

فقالت إيدا:

ـ «إنّ بيرل هي أفضلهنّ عندي. ولَكَم أتمنى لو تأتي فتراني في يومٍ من الأيام. أنا لم أرها منذ غادرت المنزل في الصيف الماضي لتتزوج من لوف.»

Twitter: @ketab_n

فقال جيتر:

ـ «سوف أذهب لأقول لتوم إنّ من الواجب عليه أن يعطيَني بعض المال. الناس في فولر يقولون إنه أصبح الآن غنيًّا جدًّا.»

ـ «لا تنسَ أن تذكر له أنّ أمّه العجوز تحبّ أن يشتريَ لها ثوبًا على الزيّ الحديث تُدفن به. وأنا واثقة من أنه لن يضنّ عليّ بقليل من ماله من أجل شيء تافه كهذا.»

ـ «سوف أذكر له ذلك حين أراه، ولكنّي لا أدري بأيّ طريقة سوف يتقبّله. يُخيّل إليّ أنّ له زوجة وجيشًا من الأولاد ينبغي أن يطعمهم ويكسوهم. ومع ذلك فقد يعطيني شيئًا من المال.»

ـ «أتعتقد أنّ لتوم أولادًا؟»

ـ «هذا جائز.»

ـ «أنا متأكدة من أني أحبّ أن أراهم. ولا أشكّ في أنّ لي عدَّة حفَدَة متناثرين في مختلف الأنحاء، فهذا شيء طبيعيّ بعد أن فارق البيتَ هذا العددُ الكبير من أولادي الذكور والإناث. ولعلّي إذا رأيت توم أن لا أشقى كثيرًا لعدم رؤيتي سائر الأولاد. كلّ ما أعرفه أني رُزقت من غير شكّ بعضَ الحفَدَة، وأنهم يعيشون في مكانٍ ما من المقاطعة.»

ـ «أظنّ أنّ ليزي بيلّ وكلارا قد رُزقتا أولادًا كثيرين. فقد كانتا تتحدثان كثيرًا عن رغبتهما في إنجاب الأولاد. ويقول الناس، هناك في فولر، إنّ ليزي بيلّ صار عندها عدد كبير منهم. ولست أدري كيف يعرف سائر الناس عن هذه الأشياء أكثر ممّا أعرف أنا. فالذي يبدو لي أني يجب أن أعرف عن أولادي أكثر ممّا يعرف سائر الناس.»

Twitter: @ketab_n

ـ «لعلّكَ تستطيع أن تحمل توم على أن يصحب أولاده إلى هنا كي أراهم. قل له إني أريد أن أرى حفَدَتي، ولعلّه يوافق عندئذٍ على أن يأتيَ بهم.»

وكانت إيدا قد تحدّثت غيرَ مرّة عن مجيء توم بأولاده لكي تراهم. وكانت تذكّر زوجها بأن يقول لابنها ذلك، كلّما أشار إلى اعتزامه السفر إلى مقاطعة بورك حيث يقوم معمل توم. حتى إذا انقضت سنةٌ إثر سنة، ولم يسافر جيتر لرؤية ابنه، خفّت رغبتها في الحديث عن إمكانية اجتماعها بأيّ حفيد من حفَدَتِها. لقد عجز جيتر عن إنفاذ مشروع السفر هذا. فكان يقول، في كلّ يوم، إنه منطلق غدًا، ثم يُرجئ الرحلة، دائمًا، في الدقيقة الأخيرة.

وكلَّ يوم تقريبًا كان جيتر يقوم برحلة زائفة إلى مكان ما. كان يعتزم الذهاب إلى فولر، أو يعتزم الذهاب إلى ماك كوي، أو يعتزم الذهاب إلى أوغوستا، ولكنه ما كان ليذهب حيث زعم أنه ذاهب. كان إذا أخبر إيدا ذات ليلة بأنه سوف يشخَصُ في الصباح الباكر إلى ماك كوي غيّر رأيه في اللحظة الأخيرة وقرر الذهاب إلى فولر أو أوغوستا. وكان من عادته أن يقف ثم يمضي عَبْرَ حقول القطن القديمة ليُلقيَ نظرةً على شجَرات الرَّتَم الطويلة السمراء، فيحمله هذا على التفكير في شيء آخر. وكان إذا ما انتهى إلى غَيْضَة الرَّتَم يضطجع على الأرض ويغفو إغفاءةً صغيرة. ولم يكن ليُوفّق إلى الاحتطاب وحمْل ما اجتمع له من ذلك إلى أوغوستا إلّا بمعجزة. فقد كان الحمْل الواحد من السنديان الأسود يقتضيه قطعُهُ أسبوعًا كاملًا في بعض الأحيان.

وفي تلك اللحظة، آذن بالابتداء فصلٌ جديد من فصول السنة كان يضطرّه إلى المغالاة في التردد. كان القوم قد أخذوا يُضرمون النار في الرَّتَم والشُّجَيْرات النابتة في غابة الصنوبر، وكان عبير تلك النار يملأ الأجواء،

Twitter: @ketab_n

يومًا بعد يوم . بل إنّ بعض المزارعين العاملين هناك، في المدى البعيد، قد شرعوا يحرثون الأرض، ففي مَيْسوره أن يستروح عَبقَ الأرض المفلوحة حديثًا، من مَبْعَدَةِ أميال عديدة. وكان ذلك العبق، الذي لم يُحسّ أحدٌ قَطُّ به، ينتهي إلى أنف جيتر وهو أشدّ قوّةً وحدّةً من أيّ رائحة يمكن لامرئ أن يلحظَها في الهواء. وكان ذلك يغريه بالانطلاق، وإضرام النار في حقول القطن القديمة وحراثة الأرض. فقد كان الناس يفعلون مثلَ ذلك من حوله، ولكن من أين يستعير بغلًا؟ ولنفرض أنه وُفِّقَ إلى هذا، فمِن أين يشتري بزرَ القطن وسماد الطير وليس معه شيء من المال؟ لقد سأل تجار فولر أن يعطوه ذلك من طريق الدَّين مرّات عديدة حتى لقد أصبحوا يعرفون مطلوبه وهو بعدُ لم يجتز عتبات مخازنهم، فهم يرفعون رؤوسهم علامة الرفض قبل أن يلفظ كلمته الأولى ثم يرتدّون إلى حيث لا يستطيع أن يلحق بهم. لقد أمسى لا يدري ما الذي يتعيّن عليه أن يفعله في هذا السبيل.

والواقع أنّ جيتر أرجأ كلّ ما قد يخطر في بال الإنسان، تقريبًا، ولكنه كان أشدّ ما يكون المرء إصرارًا وعنادًا في أمر واحد، هو حرث الأرض واستنباتها قطنًا. فهو يستهلّ كلّ يوم من أيام العمر بحماسته المحمومة، حتى إذا هبط الليل كان أشدّ تصميمًا، من أيّ لحظة مضت، على التماس بغلٍ يستعيره، وتاجر يقدّم إليه بزر القطن وسماد الطير من غير أن يتقاضى الثمن نقدًا.

Twitter: @ketab_n

- 9 -

لم يكن قد انقضى على إشراق الشمس غير نصف ساعة حين وفدت بيسّي إلى بيت ليستر صباح اليوم التالي لمفارقتها إيّاه على ذلك النحو المفاجئ. وكانت قد قالت، آنذاك، إنها ذاهبة إلى منزلها لتسأل الله أن يجيز لها الزواج من دْيُود. ولم يكن جيتر ليتوقَّعَ أن يراها قبل انقضاء أيام عديدة. وما كان أحدٌ قد خرج إلى الفِناء حين اجتازته وعدت نحو الباب الأماميّ منادية دْيُود:

ـ «دْيُود! ... إيه، دْيُود! أين أنت، يا دْيُود؟»

وكان جيتر قد نهض من فراشه قُبَيْل سماعه صوتها، أوَّلَ مرّة، واندفعت إلى غرفة النوم فيما كان جالسًا، يشدّ حذاءه، على كرسيٍّ من الكراسي.

وسألها في لهجة ناعسة:

ـ «ماذا تريدين من دْيُود، يا بيسّي؟ لأيّ غرض تنادينه؟»

وطوّفت بيسّي في الغرفة منقِّبةً في السُّرر. كان ثَمَّةَ ثلاثة سُرُر ينام فيها أفراد أسرة ليستر جميعًا. وكانت إيدا وجيتر ينامان في واحدٍ منها، على حين تنام إللي ماي والجدّة العجوز في واحد، وينام دْيُود وحده في الفراش الثالث.

Twitter: @ketab_n

واستوت إللي ماي قاعدةً في فراشها وقد أيقظتها الجلَبة، وأنشأت تفرُك عينيها. ونترت بيسّي اللحافَ عن فراش ڈيُود، وانطلقت إلى الغرفة المجاورة التي تداعى سقفها إلى السقوط. وكانت تلك الغرفة هي مهجَع الأسرة الثاني، حيث نام معظم أبناء جيتر قبل مفارقتهم المنزل في يومٍ من الأيام، وكانت قد هُجرت بسبب انهيار جانبٍ من السقف. لقد كانت ملأى بالأدوات المنزلية المختلفة.

ورجعت بيسّي، وفتّشت تحت سرير إيدا.

وسألها جيتر:

ـ «ماذا تريدين من ڈيُود في هذه الساعة من النهار، يا بيسّي؟»

ولم تأبه هذه المَرَّةَ أيضًا بأسئلة جيتر ولم تجب عنها. بل راحت تعدو في المطبخ وهي تنادي ڈيُود بأعلى صوتها.

ولم يكد جيتر يشدّ رباط نعله ويرتدي صُدْرَتَه الداخلية حتى لحق بها إلى الفِناء الخلفيّ. كان يعتمر قبّعته اللبديّة السوداء المتهدّلة لأن قبّعته كانت أوّلَ شيء يلبَسه في الصباح، وآخر شيء يخلعه عند المساء.

وكان ڈيُود قائمًا عند البئر يمتح دلوًا من الماء، فأدركتْه بيسّي قبل أن يوفّق إلى إمالة الدلو ليطفئ غليله. وطوّقت عُنُقَه بذراعيها، وقبّلت وجهه في انفعال. وحاول ڈيُود التفلّت من بين ذراعيها، بادئ الأمر، حتى إذا عرف أنها بيسّي تبسّم لها وطوّق خصرها بذراعيه.

واقترب جيتر منهما، أكثر فأكثر، وأنشأ يراقبهما. وفي الحال نزعت بيسّي أحد الأمشاط التي تُمسك شعرها وأخذت ترجّل شعر ڈيُود الأسود القاسي وتسوّيه براحتَيْها. وكان شعر ڈيُود كثًّا خشنًا يقفّ منتصبًا مهما رُجِّل وسُوِّي بالفرشاة. وكان ڈيُود يحاول في بعض الأحيان أن يُكرِه شعره على

Twitter: @ketab_n

الاضطجاع بضعَ دقائقَ بأن يغطس رأسه في وعاء ماء ويمشطه في سرعة خاطفة. ولكن ما إن يأخذ الماء في الجفاف حتى يقفّ الشعر من جديد وكأنه متصل بنوابض أو «راسّورات». لقد كان شعر دْيُود مثل هُلْبِ الخنزير قسوةً وانتصابًا.

وقال جيتر:

ـ «أنا لم أر في حياتي مبشِّرةً تسلكُ هذا المسلكَ الشاذّ مع فتًى غرّ مثل دْيُود! لماذا تفعلين ذلك لدْيُود، يا بيسّي؟ إنكما على وشك أن تتعانقا ويحتكّ أحدكما بالآخَر كما فعلتما أمسِ فوق الشرفة.»

وتبسّمت بيسّي لدْيُود وجيتر. واستندت إلى إطار البئر، وردّت شعرها عن جبينها. لقد تعجّلت الخروجَ من بيتها ذلك الصباح فلم تفرغ لتثبيته بالدبابيس.

وقالت:

ـ «أنا ودْيُود سوف نتزوج. الربّ قال لي أن أفعل ذلك. لقد استشرتُه في هذه المسألة فقال: «أيّتها الأخت بيسّي، إنّ دْيُود ليستر هو الرجل الذي أريدكِ أن تتزوجيه. انهضي في الصباح الباكر واذهبي إلى بيت ليستر وتزوّجي من دْيُود في الحال.» ذلك ما قاله لي الربّ في الليلة البارحة، وتلك هي كلماته نفسُها التي سمعْتها بأذنيّ وأنا أصلّي أمسِ في السرير. وهكذا لم تكد الشمس تشرق حتى غادرتُ الفراش وانطلقت إلى هنا بأسرع ما أستطيع، لأنّ الربّ لا يرضى بأن نؤخر إنفاذ ما يرسمه لنا من خطط. إنه يريد أن أتزوج دْيُود في الحال.»

وفي عصبيّة، أجال دْيُود بصره في ما حوله وكأنما كان يفكّر في أن يفرّ بنفسه إلى الغابة ويتوارى عن الأنظار. لقد نسي كم كان تائقًا، مساءَ أمس، إلى أن يمضيَ مع بيسّي إلى منزلها، عندما أشارت إلى موضوع الزواج أوّل مرّة.

Twitter: @ketab_n

وقال جيتر:

ـ «هل سمعتَ هذا، يا دْيُود؟ ما رأيك في أن تتزوّج الأخت بيسّي؟»

فأجابه دْيُود:

ـ «لا، لا ، أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك!»

فسأله جيتر:

ـ «ولـمَ لا تستطيع أن تفعل ذلـك؟ هل تشكو شيئًا؟ ألـم تستكمل رجولتك بعد؟»

ـ «جائز أن أكون، وجائز أن لا أكون. أنا أخاف أن أفعل ذلك معها.»

فقال أبوه:

ـ «ولكن، يا دْيُود، ليس ثَمَّةَ ما يستدعي الخوف. إن بيسّي لن تؤذيك. إنها تعرف كيف تعاملك. لقد سبق لها أن تزوجت وهي الآن أرملة. إنها تعرف جيّدًا كيف تعامل الرجال.»

وقالت وهي تطوّق جِيده بذراعها وتُحْكِم شدّ ذراعيه على خصرها:

ـ «أنا لن أؤذيك، يا دْيُود. وليس هناك ما يوجب الخوف. أنا مثل أختك إللي ماي، تمامًا، ومثل أمّك. إنّ النساء لا يُخِفن أزواجهنّ على الإطلاق. ولن تندم على الزواج مني، لأني أعرف كيف أعامل الرجال أحسن معاملة.»

وشقّت إيدا طريقها مجتازةً جيتر ودْيُود. وكانت قد أهملت ضَفْرَ شعرها بعد أن سمعت بالذي تريده بيسّي. ووقفت إلى جانب دْيُود وبيسّي، وقد انقسم شعرُها فوق كَتِفيها إلى قسمين، وأخذت تعقص جانبًا منه وتربط طرفه بشريطة، لتعود فتعمل الشيء نفسه في الجانب الثاني. كانت منفعلة مثل بيسّي، سواء بسواء.

Twitter: @ketab_n

وقالت:

ـ «بيسّي، يجب أن تحملي دْيُود على غسْل قدميه بين حينٍ وآخر، لأنكِ إن لم تفعلي وسّخ لكِ لحافَكِ. إنه يقضي الشتاء كلَّه، في بعض الأحيان، من غير أن يغتسل، وعندئذٍ يتّسخ اللحاف إلى درجةٍ تجعلكِ لا تعرفين كيف تنظفينه. إنّ دْيُود مهمَل مثل أبيه. فقد ناضلْتُ طويلًا حتى عوّدْتُه أن يلبس جَوْرَبَه في السرير، لأنّ تلك الطريقة كانت وحدها الكفيلة بإبقاء اللحاف نظيفًا. كان يأبى أن يغتسل. وأحسب أنّ دْيُود سوف ينهج خطة أبيه. لذلك يكون من الأفضل أن تعوّدي دْيُود لبْسَ جَوْرَبِه في السرير، أيضًا.»

وكانت إللي ماي قد خرجت من المنزل ووقفت خلف شجرة أَزْدَرَخْت لكي تسمع وترى ما الذي كان يجري حول إطار البئر. وكانت الجدّة العجوز في الفِناء أيضًا. وكانت تسترق النظر من وراء زاوية المنزل خشيةَ أن يراها أحدٌ فيطردها.

واقترحت إيدا في حياء:

ـ «لعلّكِ أنتِ ودْيُود تعينانِني على شراء ثوبٍ على الزيّ الحديث. أنتما تدركان جيّدًا مقدار حاجتي إلى ثوبٍ ذي طُولٍ مناسب أموت فيه. لقد يئستُ منذ زمن طويل من وعود جيتر بأن يشتريَ لي مثلَ هذا الثوب. إنه لن يفعل ذلك في الوقت المناسب.»

ووقفوا جميعًا قرب البئر، وأنشأ بعضُهم ينظر إلى وجه الآخر، حتى إذا وقعتْ عين جيتر على عين دْيُود خفض دْيُود رأسَه وحدّق إلى الأرض. كان في حَيْرَةٍ من أمره. فقد رغب في أن يتزوج، ولكنه كان خائفًا من بيسّي. كانت أكبر منه بخمس وعشرين سنة تقريبًا.

وسألتْ بيسّي:

Twitter: @ketab_n

ـ «أتدري ما الذي سوف أعمله، يا جيتر؟»

فقال جيتر:

ـ «ماذا؟»

ـ «سوف أشتري سيارة جديدة!»

ـ «سيارة جديدة؟»

ـ «سيارة جديدة مئة في المئة. سوف أذهب إلى فولر في هذه اللحظة وآتي بها.»

فقال جيتر في لهجة مَن لم يصدّق:

ـ «سيارة جديدة مئة في المئة؟ سيارة جديدة مئة في المئة مِن صحيح؟»

وفغر ذُيُود فاه، والتمعت عيناه.

وتساءل جيتر:

ـ «وبماذا ستشترين تلك السيارة، يا بيسّي؟ هل عندك مال؟»

ـ «عندي ثمانمائة دولار أشتريها بها. ذلك أنّ زوجي السابق كان قد أمّن على حياته، فلمّا توفّي قدّمَتْ إليّ شركة التأمين هذا المبلغ فوضعْتُه في المصرف، بأوغوستا. ولقد اعتزمت أن أُنفقه في الوجوه التي تمكّنني من الاستمرار في أداء رسالة زوجي السابق التبشيرية الأثيرة عنده. لقد كنتُ دائمًا شديدة الرغبة في شراء سيارة جديدة مئة في المئة.»

فسألها جيتر:

ـ «ومتى ستشترين تلك السيارة الجديدة؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «في هذه اللحظة ـ اليوم. سوف أذهب إلى فولر وأشتريها الآن. ولسوف أستعملها أنا وذيُود في تطوافنا في البلاد للتبشير والصلاة.»

فسألها ذيُود:

ـ «هل أستطيع أن أقودَها؟»

ـ «من أجل هذا سوف أشتريها يا ذيُود؛ سوف أشتريها لكَ لكي تُقِلَّني بها حين يخطر في بالنا الذهاب إلى مكانٍ ما في المقاطعة.»

فقال جيتر:

ـ «متى ستقومين أنتِ وذيُود بهذه الرحلة كلِّها وبالصلاة والتبشير؟ هل ستتزوّجان قبل ذلك أم بعده؟»

فقالت:

ـ «الآن في هذه اللحظة، سوف نمشي إلى فولر، في الحال، ونشتري السيارة الجديدة، ثم نمتطيها إلى دار القضاء ونعقد القران.»

فسألها بلهجة تنضح بالشك:

ـ «أتعتزمين أن تحصلي على إجازة من السلطة تمكّنكِ من الزواج، أم أنكِ ستعيشين مع ذيُود من غير إجازة؟»

فقالت:

ـ «سوف أحصُل على إجازة للزواج.»

فذكّرها جيتر قائلًا:

ـ «الإجازة تكلّف دولارين تقريبًا. هل عندكِ دولاران؟ ذيُود لا يملك دولارين، بل إنّ ذيُود لا يملك شيئًا على الإطلاق.»

Twitter: @ketab_n

ـ «أنا لا أطلب من دْيُود فلسًا واحدًا. سوف أقوم بنفقات ذلك كلِّه بنفسي. إنّ عندي ثمانمائة دولار في المصرف وشيئًا إضافيًّا من المال. فقد ادخرتُ دراهمي أملًا في أن يقع لي شيء مثل هذا. لقد كنت أنتظر ذلك منذ زمن طويل.»

وكان دْيُود يُلقي، خلال الدقائق القليلة الماضية، بعض الحصى في البئر. ولكنه ما لبث أن كفّ عن ذلك ونظر إلى بيسّي. لقد تطلّع إلى وجهها مباشرةً، فأثار مشهد مِنْخَرَيْها الكهفيّيْن المدوّرين ابتسامه. لقد رأى إلى أنفها من قبل، ولكنّ الثَّقْبَيْن ظهرا هذه المرَّة أكثر اتساعًا وأشدّ استدارةً منهما في أيّ وقت مضى. لقد خُيِّلَ إليه تلك اللحظة، أكثر ممّا خُيِّلَ إليه في أيِّما لحظة سابقة، أنه ينظر إلى فوهة بندقية ذات أسطوانتين. فلم يتمالك عن الاسترسال في الضحك.

فسألتْه وهي مقطِّبة الجبين:

ـ «علامَ تضحك، يا دْيُود؟»

فقال لها:

ـ «على الثَّقْبَيْن اللذين في أنفكِ. أنا لم أرَ في حياتي قبل اليوم أيَّ إنسان لا رأس لأنفه، على هذه الشاكلة.»

وغدا وجه بيسّي أبيض شاحبًا. وخفضت رأسَها رجاةَ أن تُخفيَ، جهْدَ الطاقة، مِنْخَرَيْها المكشوفين. كانت شديدة الحساسية من هذه الناحية، ولكنّها لم تهتدِ إلى طريقة تعالج بها أنفها. لقد وُلدت وليس في أنفها عظمٌ البتَّة، ثم انقضت أربعون سنة تقريبًا من غير أن ينمو ذلك العظم.

ووضعت يدَها على وجهها، ومسحت الدمع المتحدّر من زوايا عينيها، قائلة:

Twitter: @ketab_n

ـ «أنا خَجِلة منك، يا دْيُود. أنت تدري أنه لا حيلة لي بهيئتي هذه. قد كنتُ هكذا منذ نشأتي الأولى. وأَحسِب أنّ أنفي لا يريد أن ينمو على الإطلاق.»

وأقحم دْيُود مقدَّمَي حذائه في الرمل، وحاول أن يضحك. ولكنه ما لبث أن كفّ عن الضحك وزوى ما بين عينيه بمثل الفجاءة التي تطلّع فيها، بادئَ الأمر، إلى وجه بيسّي وابتسم. كانت ذكرى السيارة الجديدة هي التي جعلتْه يُقلع عن السخرية بِبيسّي. فما دامت تعتزم شراء سيارة جديدة فهو خليق بأن لا يجد في وجهها ذاك أيَّ بأس. وحتى لو كانت لها شَفَة مشرومة، مثل إللي ماي، فلن يكون ذلك محلّ اعتراض عنده، بعد أن أصبح في مَيْسوره، الآن، أن يمتطي متن السيارة ويمضي بها حيث يشاء. إنه لم يقدْ سيارة جديدة من قبل، وكان ذلك شيئًا يرغب في القيام به أكثر ممّا يرغب في القيام بأيّ عمل آخر.

وقال لها في قلق:

ـ «أنا لم أقصِد إلى أن أُحرجك. أُقسم لكِ بالله أني لم أقصِد. أنا لا أبالي بشكل أنفكِ على الإطلاق.»

وتبسّمت بيسّي من جديد، وطوّقت خصره بذراعيها. ورفعت بصرها إليه كَرَّةً أخرى، وأدنت وجهها من وجهه إلى درجةٍ جعلتْه يحسّ بأنفاسها. وكان عليه أن يكفّ عن النظر من خلال أنفها لأنّ التحديق إلى شيء لا يبعد عنه أكثر من بضعة إنشات كان يؤذي عينيه، ويُوقِع الصداع في رأسه. فلم يكن مِنخرا بيسّي، حين تقف على مثل هذا القرب منه، غير لطختين سوداوين على وجهها.

وسألها دْيُود كَرَّةً أخرى راجيًا أن لا يكون في مسلكه ما حملها على أن تغيّر رأيها:

Twitter: @ketab_n

ـ «هل أستطيع أن أقود السيارة الجديدة؟ أتعتزمين أن تسمحي لي بأن أقودها؟»

ـ «من أجل هذا سوف أشتريها، يا دُيُود. سوف أشتريها لكي يكون في وُسْعِكَ أن تقودها وأنت تطوّف في البلاد. سوف نتزوج نحن الاثنين، وعندئذٍ سيكون في استطاعتنا أن نقضيَ الوقتَ كلَّه متنقّلَيْن بالسيارة من مكان إلى مكان إذا شئنا. أنا لن أَحُولَ بينك وبين الذهاب إلى أيّ مكان ترغب في أن تقصد إليه. في استطاعتك أن تركب السيارة طُولَ الوقت.»

ـ «وهل سيكون لتلك السيارة زمّور؟»

ـ «أظنّ ذلك، أليس لكلٍّ من السيارات الجديدة زمّورٌ مركّبٌ فيها؟»

فقال:

ـ «هذا جائز. وعلى كلّ حالٍ، تأكدي حين تشترين السيارة أنّ لها زمّورًا. لأنّ السيارة من غير زمّور لا تساوي شيئًا.»

فقال جيتر:

ـ «دُيُود ولدٌ محظوظ إلى حدٍّ لعين. أنا لم أحصُل على شيء من الأشياء، حين تزوجت إيدا. لم يكن عندها غيرُ بعض الفساتين، وكان أهلها من الفقر بحيث اضطرّوا إلى أن يأكلوا الطحين وشحم الخنزير كما نفعل نحن اليوم. أنا لم أحصُل، حين تزوجتها، إلّا على مجموعة من المتاعب.»

واقتربت إيدا نحو بيسّي، ووضعت يدها على ذراعها، وقالت:

ـ «إذا كنتِ تملكين كلّ هذا المال يا بيسّي، فقد يكون في استطاعتِكِ، أنتِ ودُيُود، أن تشتريا لي وعاءً من السَّعوط في فولر. ألا ترغبين في أن تقومي بهذه الخدمة إكرامًا لأمّ دُيُود العجوز؟ فما دام دُيُود ولدي، يتحتّم عليكِ أن تأتيني بجرّةٍ من السَّعوط مهما كلّف الأمر. وإني لأكون مسرورة

Twitter: @ketab_n

جدًّا إذا استطعتِ أن تشتري لي ثلاث جِرارٍ أو أربع جِرارٍ من السَّعوط، ما دمتِ ذاهبةً إلى فولر. إنّ السَّعوط يهدّئ أوجاع مَعِدتي حين لا يكون عندنا شيء نأكله.»

فقال جيتر:

ـ «منذ مدّة طويلة وأنا محتاج إلى وِزرة جديدة، يا بيسّي. وأقسم لكِ أني صرت أخاف الابتعاد عن منزلي بعد اليوم لأني لا أعرف في أيّ لحظة تسقط ثيابي عن بدني من غير أن أنتبه لذلك. فإذا استطعتِ أن تشتري لي، من فولر، وِزرة جديدة شكرتُ لكِ ذلك أعظمَ الشكر.»

وأمسَكت بيسّي بِيَدِ دْيُود وقادتْه بعيدًا عن البئر. واستدارا حول المنزل، حتى إذا غابا عن العيون وقفتْ خلفَه وضمّتْه إلى صدرها ضمّةً جعلتْهُ غيرَ قادر على التنفّس إلّا بعد أن خلّت سبيله.

وقال لها:

ـ «لماذا تفعلين بي هكذا؟ إنّ أحدًا لم يضمَّني على هذا الشكل من قبل.»

ـ «أنا وأنت سوف نتزوّج يا دْيُود. ألا تعرف ذلك؟»

واستدار فوقف خلْفَها، ونظر إلى مؤخَّرَةِ رأسها، ثم انقلب إلى موقفه الأول.

وسألها:

ـ «متى ستشترين السيارة الجديدة؟»

ـ «في هذه اللحظة، يا دْيُود. سوف نذهب إلى فولر، في الحال، ونشتريها.»

Twitter: @ketab_n

ولم يعرف دُيُود، في حياته كلِّها، مثلَ الانفعال الذي استبدّ به كلّما خطر له أنه سوف يقود سيارة جديدة. فقد كانت جميع السيارات التي رآها عتيقة كسيارة جيتر، باستثناء هاتيك التي كان يقودها الأغنياء في أوغوستا. وما كان بقادر على أن يُقنعَ نفسه بأنه سوف يسوق، فعلًا، واحدةً من مثل تلك التي رآها في المدينة. لقد أراد أن ينطلق إلى فولر من غير أن يُضيع دقيقة واحدة من الزمان.

وقال:

ـ «هيّا بنا. ليس عندنا وقت نضيعه.»

فقالت:

ـ «ألستَ سعيدًا بأنّا سوف نتزوج؟ سيكون ذلك شيئًا رائعًا حقًّا، أليس كذلك يا دُيُود؟»

وكان سائر أفراد أسرة ليستر قد لحقوا بهما إلى الفِناءِ الأماميّ، ووقفوا عند زاوية البيت منتظرين أن يروا دُيُود وبيسّي يتخذان سبيلَهما إلى فولر. وتبعتْهما إللي ماي فاجتازت نصف ميل من الطريق تقريبًا، قبل أن تستدير وتنقلب راجعة إلى البيت.

ومشى دُيُود في المقدّمة، وتخلّفت بيسّي بضعَ ياردات وراءه. حتى إذا بلغا قمّة الكَثيب الرملي الأول، تمهّلا وتلفّتا نحو بيت ليستر ليريا ما إذا كانت إيدا وجيتر لا يزالان يراقبانهما. وأنشأت بيسّي تلوّح بيدها حتى سألها دُيُود أن تعجّل كي يصلا إلى فولر بأسرع وقت مستطاع.

واقتضاهما السيْر الطويل إلى فولر نحوًا من ساعتين، لأنّ بيسّي كانت مضطرّة إلى أن تقف عدَّة مرّات، لكي تستريح عند جانبٍ من الطريق. كانت أشعّة الشمس شديدة الاتقاد، فهما لم يغادرا بيت ليستر إلّا في الساعة

Twitter: @ketab_n

العاشرة تقريبًا، وكان السيْر عَبْرَ الرمل العميق شاقًّا عسيرًا، وبخاصة بالنسبة إلى بيسّي. ففي بعض المَواطن كان عمقُ الرمل قدمًا، وكانت قدماها تغرقان إلى درجةٍ جعلت الرمل يملأ حذاءها. وما كان لِدْيُود أن يقعدَ ريثما تنشَطَ بيسّي للسير من جديد. كان ينتظرها على مَبْعَدَة بِضْعِ مِئاتٍ من الأقدام، حانًّا إيّاها على الإسراع.

وكان دْيُود قد أخذ يُبطئ الخطى لكي يكون في مَيْسور بيسّي أن تلحق به. ولكنْ ما إن اقتربا من فولر حتى لم يعد في إمكان دْيُود أن يكبحَ جماحَ نفسه. فراح يركض حتى اتسعت الشُّقَّةُ ما بينه وبين بيسّي فبلغت بضعَ مئاتٍ من الأقدام. ثم إنه اضطرّ إلى أن ينقلبَ ماشيًا حتى يلتقيَ بيسّي. كان في مَيْسوره أن يمضيَ إلى البلدة وحده، ولكنه لم يكن يدري أيّ شيء يتعيّن عليه أن يفعله حين ينتهي إليها. وكان يحاذر أيضًا أن يبتعد عن بيسّي كثيرًا، خشيةَ أن تنقلب على عَقِبَيْها وترجِعَ من غير أن تشتري السيارة الجديدة.

ولم يتكلم أيٌّ منهما طَوالَ تلك الرحلة. لقد همهمت بيسّي فيما بينها وبين نفسها بإحدى التراتيل، رافعةً صوتها حينًا بعد حين حتى يبلغَ تلك الطبقة الجهورية التي تؤثرها بالحب ولكنّها لم تحاول أن تتحدث إلى دْيُود. كان كلٌّ منهما مستغرقًا في أفكاره، فهو في شُغل عن الكلام.

Twitter: @ketab_n

- 10 -

وانتظر دْيُود أمام المَرْأَب، وأنشأ يتأمّل السيارة الجديدة المعروضة في الواجهة. كانت بيسّي قد دخلت المحلّ، بعد أن قال لها دْيُود إنه سوف يبقى في الشارع ويلقي نظرةً على واجهة العرض.

وبقيتْ بيسّي بضعَ دقائق واقفةً في منتصف المحلّ قبل أن يخرج أحدٌ من الغرفة الخلفيّة فيسألها ما تريد. وأخيرًا تقدّم نحوها أحدُ الباعة وسألها أيّ شيء تبغي. ولاحظ أوّل ما وقعت عينه عليها أنّ لها أنفًا عجيبًا غير سويّ.

وقالت بيسّي:

ـ «لقد جئتُ لأشتري سيارة فورد جديدة.»

وإذْ كان البائع منهمكًا غايةَ الانهماك في النظر إلى مِنْخَرَيْها فقد فاته أن يدرك مُرادَها، وسألها أن تكرّر على مسمعه ما قالت:

ـ «لقد جئتُ لأشتري سيارة فورد جديدة.»

ـ «وهل عندكِ شيء من المال؟»

وألقى نظرةً على ما حوله ليرى ما إذا كان أحدٌ من الرجال الآخرين في الغرفة. كان يريد أن يُرِيَهم أنفَ بيسّي العجيب.

Twitter: @ketab_n

ـ «عندي ما يكفيني لشراء سيارة جديدة إذا لم يتجاوز ثمنها ثمانمئة دولار.»

ورفع بصره، للمرة الأولى إلى عينيها. لقد كان عسيرًا عليه أن يصدّق، بسببٍ من مظهرها، أنها تملك بنسًا واحدًا.

وسألها:

ـ «من أين أتيتِ بذلك المال؟»

ـ «الربّ يُغدق عليّ نِعَمَه. إنه لا ينسى أحدًا من أولاده.»

ـ «إنه لم يرسل إليّ شيئًا في يومٍ من الأيام، ولقد سلختُ في هذا المكان ثلاثين عامًا. ينبغي أن تكونَ لكِ واسطة، كما يقولون.»

وضحك البائع ممّا قاله، وأنعم النظر كَرَّةً أخرى إلى مِنْخَرَي بيسّي.

ـ «ذلك لأنكَ لا تثق بالربّ ثقةً كافية.»

ـ «إنكِ لا تملكين حقًّا هذا المقدار من المال، أليس كذلك؟»

وأخرجت بيسّي دفتر الشيكات من جيب ثوبها، وأرتْه إيّاه. وفيما كان يُلقي نظرةً على اسم المصرف والمبلغ المسجَّل لحسابها على الأرومة تقدَّمت بيسّي نحو الباب وأشارت إلى دْيُود أن يدخل.

وسألها الرجل:

ـ «مَن هذا؟ أهو ولدكِ؟»

ـ «هذا دْيُود ليستر، إنّ كلّ الناس قد سمعَت بآل ليستر المقيمين عند طريق التبغ. ولسوف نتزوج، أنا ودْيُود، اليوم. وحالما نحصُل على السيارة الجديدة سوف نقصد إلى دار القضاء ونستصدر إجازة الزواج.»

وألقى البائع دفتر الشيكات في يدها، وركض إلى باب المكتب، وقال:

ـ «تعالَ إلى هنا، يا هاري! عجِّل! إنّ عندي منظرًا يستحقّ أن تراه.»

Twitter: @ketab_n

وخرج من المكتب رجلٌ أكبرُ من زميله سنًّا، ومضى إلى حيث كانت بيسّي والبائع واقفَيْن.

وقال وهو ينقِّل طَرْفَهُ من أحدهما إلى الآخر:

ـ «ما القصة؟»

ـ «هذه المرأة سوف تتزوج هذا الصبيّ، يا هاري. ما رأيُك في ذلك؟ هل رأيتَ شيئًا مثلَ هذا من قبل؟»

والتفت الرجل الأكبر سنًّا إلى دْيُود وسأله عن عمره.

وكان دْيُود على وشك أن يقول له إنّ عمره ستة عشر عامًا عندما دفعَتْه بيسّي خلفها.

ـ «ليس هذا من شأنك. أنا أريد أن أشتري سيارة جديدة. ذلك هو الشيء الذي جئتُ من أجله. لقد مشيتُ خمسةَ أميال، هذا الصباحَ، لكي أصل إلى هنا.»

وحين أتمّت كلامَها، كان الرجلان يتهامسان. لقد نظر الأكبر سنًّا إلى وجهها، وحين رأى الثقبين المدوّرين الكبيرين في أنفها تقدّم إلى أمام وحاول أن يُنعم النظر من خلال مِنْخَرَيْها. وغطّت بيسّي أنفها بيدها.

وقال الرجل:

ـ «يا إلَهي!»

فقال البائع:

ـ «إنه مشهد عجيب، أليس كذلك؟»

وسأله هاري:

Twitter: @ketab_n

ـ «هل عندها شيء من المال؟ لا تُضِعِ الوقتَ معها إذا كانت لا تملك المبلغ الكافي. إنّ ثَمَّةَ كثيرًا من أمثالها يأتون إلى هنا، من الريف، ثم لا يشترون شيئًا.»

ـ «عندها دفتر شيكات على «بنك فارمرز» في أوغوستا، ولقد قالت إنّ رصيدَها يبلغ ثمانمئة دولار، إنّ الأرومة تُظهر ذلك أيضًا.»

فقال هاري:

ـ «من الأفضل أن تتلفن، قبل كلّ شيء، لكي تتأكد من ذلك. جائزٌ أن تكون صادقة، وجائزٌ أن تكون كاذبة. إنّ بعض أهل الريف يقومون ببعض الحِيل أحيانًا. ومَن يدري، لعلّها وجدت دفتر الشيكات في مكانٍ ما، وملأَتْه هي بنفسها.»

ومضيا إلى المكتب، وهما يتحدّثان عن أنف بيسّي، وأغلقا الباب. حتى إذا اتصل البائع بالمصرف رجَعا من جديد إلى حيث كانت بيسّي ودُيُود ينتظران.

وسألها البائع:

ـ «كم تريدين أن تدفعي من أجل الحصول على سيارة؟»

فأجابته بيسّي:

ـ «ثمانمئة دولار.»

ووكز هاري البائع بمِرفقه، وقال وهو مستندٌ إلى حائلِ إحدى السيارات المكشوفة ذات الخمسة مقاعد:

ـ «دونكِ هذه. فهي صغيرة وجميلة. في استطاعتِكِ أن تأخذيها الآن، إذا شئتِ. ولن تكوني في حاجة إلى أن تنتظري الأوراق. فسوف آتيكِ بها في خلال الأسبوع القادم. في استطاعتكِ أن تسوقي سيارة جديدة في أيّ مكان من الولاية، طَوالَ سبعة أيام، ريثما تصل الأوراق الرسمية من آتلانتا.»

Twitter: @ketab_n

وتغامز الرجلان، كانا يلجآن إلى تلك الكذبة الخاصة بقوانين التسجيل كلّما رغبا في إجراء صفقة عاجلة.

ومضى ذيُود إلى السيارة وقرع زمّورها عدَّة مرّات. وأعجبه صوت الزمّور، فنظر إلى بيسّي وابتسم.

ـ «هل أعْجَبَكَ، يا ذيُود؟»

فقال وهو يُعمل الزمّور كَرَّةً أخرى:

ـ «ليس له علّة.»

وقالت بيسّي مشيرةً إلى السيارة:

ـ «إذن، سوف نأخذ هذه.»

فقال الرجل الآخر وهو ينتزع دفتر الشيكات من يد بيسّي من غير أن يترك لها الوقت الكافي لتقدّمه هي بنفسها إليه:

ـ «دعيني أرى دفتر شيكاتك.»

ثم إنه قطع إحدى أوراقه، وملأها على عجل بقيمة ثمانمئة دولار.

وبينا كان يُعدّ الشيك لكي توقّعه بيسّي قبل أن تغيّر رأيها أو تغادر المَرْأَب كان البائع يحاول، من جديد، أن ينظر عَبْرَ أنفها. إنه لم يرَ شيئًا مثلَه قَطّ، في حياته كلِّها.

وقيل لها:

ـ «وَقّعي هنا.»

فقالت:

ـ «أنا مضطرّة إلى أن أكتفي برسم إشارة الصليب.»(*)

(*) يعني أنها أمية لا تُحسن القراءة والكتابة. (المعرِّب)

Twitter: @ketab_n

ـ «وما اسمك؟»

ـ «الأخت بيسّي رايس.»

فقال الرجل:

ـ «لا شكّ أنكِ مبشِّرة، أليس كذلك؟»

ـ «أنا أبشّر وأصلي. أقوم بالعملين معًا.»

ومسّت طرف القلم، بينما رُسم الصليب بعد اسمها الذي يمهر الشيك.

وقيل لها:

ـ «أصبحَت السيارة ملككِ، الآن. هل يعتزم هذا الصبيّ أن يقودَها لكِ إلى المنزل؟»

فقالت بيسّي:

ـ «إنتظر قليلًا. لقد نسيت أن أصلّي. فلنركع جميعًا على الأرض ولنقمْ بصلاةٍ صغيرة قبل أن نُتمّ الصفقة.»

فقال أحد الرجلين:

ـ «لقد قُضِيَ الأمر الآن.»

فأصرّت بيسّي:

ـ «لا، إنها لم تتمّ. ولن تتمّ إلّا بعد أن يباركها الله.»

وضحك الرجلان لإصرارها، ولكن بيسّي كانت قد ركعت على الأرض، وكان دْيُود في سبيله إلى أن يركع إلى جانب السيارة. ووقف الرجلان خلفها لكي لا يتعين عليهما أن يركعا على الأرض.

ـ «يا إلَهي، نحن الآثِمِين المساكين نركع هنا في هذا المَرْأَب ملتمسين أن تبارك شراءنا هذه السيارة الجديدة، وتُقرّ ما نفعله، أنا ودْيُود. هذه السيارة الجديدة اشتريْتُها لي ولدْيُود لكي نطوّف بها في البلاد، ونقوم بالعمل

Twitter: @ketab_n

الذي تريد أنت أن يُعمَل من أجلك في هذه الديار الآثمة. اللهمّ احفظنا من الاصطدامات لكي لا نصاب بأذًى. أنت لا تريد لنا أن نُقتَل في اللحظة التي ننطلق فيها للتبشير بإنجيلك، أليس كذلك؟ وهذان الرجلان اللذان باعانا السيارة الجديدة محتاجان إلى بَرَكَتِك أيضًا لكي يكونَ في مَيْسورهما أن يبيعا عددًا آخر من السيارات للصالح العامّ. إنهما خاطئان مثلنا جميعًا ولكنّي أعلم أنهما لا يقترفان الخطيئة بإرادتهما. وينبغي أن تبارك عملَهما وتريهما كيف يبيعان الناس سيارات جديدة للصالح العامّ، كما تفعل أنت تمامًا لو كنتَ تبيع السيارات بنفسك، ههنا في فولر. هذا كلّ ما هنالك. نجِّنا من الشيطان، واحفظ لنا مكانًا في السماء. آمين!»

وكان دْيُود أسبق إلى النهوض. لقد وثب ونفخ الزمّور ستَّ نَفخاتٍ أو سبعَ نَفخات طويلة. وتقدّم الرجلان فوقفا أمام بيسّي، وهما يمسحان العرق عن وجهيْهما، ويضحكان لمشهد دْيُود وبيسّي. لقد نظرا إلى أنفها مرّةً أخرى، فاضطرّت إلى أن تحجبه بيدها.

وامتطى دْيُود وبيسّي مَتْنَ السيارة، وجلسا. ونَقَرَ دْيُود الزمّور، كَرَّةً أخرى، نَقراتٍ متعددة.

وقال البائع:

ـ «إنتظر دقيقة. ينبغي أن نكرّها أولًا إلى الخارج ونملأ خزّانها بالبنزين. إنك لا تستطيع أن تسوقها على هذه الحال.»

وترجّلت بيسّي، ولكنّ دْيُود رفض أن يترك المِقْوَدَ والزمّور. لقد أقام في مكانه، وقاد السيارة عَبْرَ الباب، فيما كان الرجلان يدفعانها إلى الخارج.

حتى إذا مُلئ الخزّان بالبنزين، أدار دْيُود المُحرِّك، واستعدّ للانطلاق. وامتطت بيسّي متنَ السيارة، من جديد، وجلست وَسْط المقعد الخلفيّ.

وسأل البائع بيسّي:

Twitter: @ketab_n

ـ «إلى أين ستذهبان الآن؟ لعقد القران؟»

فقالت:

ـ «نحن ذاهبان إلى دار القضاء لكي نستصدر إجازة من السلطة وبعد ذلك نتزوج.»

وتهامس الرجلان:

ـ «هل رأيتَ في حياتك مثلَ هذا الأنف، يا هاري؟»

ـ «مُطلقًا، أنا لم أشهد مثلَه وأنا صاحٍ.»

ـ «أُنظر إلى فتحتيه الكبيرتين المدوّرتين اللتين تخترقان وجهها. إني لأتساءل ما الذي تصنعه لكي تَحُولَ بين المطر وبين الدخول إليهما؟»

ـ «لعنني الله إذا كنتُ أعرف. لعلّها تسدّهما بفلّينتين تمنعان الماء من التسرب إليهما. ولا ريب في أنّ عليها أن تعمل شيئًا مثلَ هذا حين يكون المطر غزيرًا.»

وانحنت بيسّي إلى أمام، ونخست دْيُود بأصبعها، قائلة:

ـ «انطلِق، يا دْيُود! ليس ثَمَّةَ سببٌ لبقائنا هنا بعد الآن.»

وأعملَ دْيُود ناقلَ السرعة، وفتح البنزين، وإذْ لم يكن متعوّدًا قيادة السيارات الجديدة، فلم يُحسن تقدير الكمية الضرورية من البنزين، فانطلقت السيارة في سرعة كادت ترتفع بها عن الأرض. ولولا أن ابتعد الرجلان ابتعادًا خاطفًا من طريقها إذن لأصابهما حائلُها بأذًى كبير.

ودلّت بيسّي صاحبها على الطريق المؤدّية إلى دار القضاء. حتى إذا انتهيا إليه ترجّل دْيُود من السيارة، في تبرُّم، وتبع بيسّي إلى داخل البناء. كاد دْيُود يودّ لو يبقى في السيارة، ويُطلق الزمّور، ولكنّ بيسّي قالت إنّ عليه أن يمضي معها لكي تحصُل على الإجازة.

Twitter: @ketab_n

وكان مكتب الموظف قائمًا في الدور الأول، عند أقصى الردهة، ففتحا الباب ودخلا. وكانت على الباب لوحة من الورق المقوّى ذكرت بيسّي أنها رأتها يومَ أقبلت إلى ذلك المكان مع زوجها الأول.

وقالت:

ـ «أريد إجازة تمكّنني من أن أتزوج ذيُود.»

فنظر الموظف إليها وبسط على الطاولة صحيفة من الورق. وقدّم إليها ريشة وأفهمها كيف تملأ الفراغ بالأجوبة المطلوبة.

ـ «يجب أن تكتب ذلك لي. أنا لا أستطيع أن أخطّ الكلمات على الورق.»

فسألها:

ـ «ألا تعرفين الكتابة؟ ألا تستطيعين أن تكتبي اسمك؟»

فقالت:

ـ «أنا لم أتعلم ذلك في يوم من الأيام.»

وكان على وشك أن يقول شيئًا، عندما رفع بصره ورأى إلى أنفها وحملق كالمشدوه، وقال:

ـ «لا بأس، سوف أكتب ذلك لكِ. ولكن ليس من وظيفتي أن أقوم عنك بهذه المهمّة. ينبغي أن تفعلي ذلك بنفسكِ. أنا لا أتناول راتبي لقاء كتابة أسماء الناس بالنيابة عنهم.»

فقالت:

ـ «سوف أحفظ لك جميلك إذا خدمْتَني هذه الخدمة.»

ـ «ما اسمك؟»

ـ «الأخت بيسّي رايس.»

Twitter: @ketab_n

ـ «أنتِ أرملة المبشّر رايس، أليس كذلك؟»

ـ «كان زوجي السابق.»

ـ «ومن ستتزوجين، أيّتها الأخت رايس؟»

ـ «هذا الواقف، هناك، عند الباب.»

ـ «ومن ذاك؟»

ـ «دْيُود. اسمه دْيُود ليستر.»

ـ «أنتِ لن تتزوجيه، في ما أظنّ؟»

ـ «لقد جئتُ إلى هنا لكي أحصُل على الإجازة التي تمكّنني من ذلك. أنا ودْيُود سوف نصبح زوجين.»

ـ «مَن؟ ذلك الغلام؟ أهذا هو الذي سيتزوجك؟»

ـ «لقد قال دْيُود إنه ...»

ـ «هذا الغلام لم يبلغ بعد سنّ الزواج، أيّتها الأخت رايس.»

ـ «هو في السادسة عشرة.»

ـ «لا أستطيع أن أعطيَكِ إجازة. ينبغي أن تنتظري فترةً، ثم تعودي في العام القادم، على وجه التقريب.»

فخرّت بيسّي راكعةً على الأرض وقالت:

ـ «يا إلَهي. هذا الرجل يقول إنه لن يعطيَني إجازة للزواج من دْيُود. يا إلَهي، ينبغي أن تحمِلَه على ذلك. لقد قلتَ لي، الليلة البارحة، أن أتزوج دْيُود وأجعل منه مبشّرًا، وإنّ عليك أن تساعدني على تحقيق ما طلبت. لقد أثار الزواج أعصابي. وإذا لم تُجبر السلطة على منحي الإجازة فلست أدري أيّ خطيئة سوف...»

فصاح الموظف:

Twitter: @ketab_n

ـ «إنتظري دقيقة! أوقِفي هذه الصلاة! أنا أفضّل أن أعطيَكِ الإجازة على أن أستمع إلى هذا كلّه. لعلّنا أن نجد حلًّا للمشكلة.»

ونهضت بيسّي مبتسمة، وقالت:

ـ «كنتُ واثقة من أنّ الله سوف يسرع إلى نجدتي.»

ـ «هل حصل ذلك الغلام على موافقة أبويه؟ إنه لا يستطيع أن يتزوج ما لم يحصل على موافقة كلٍّ من أبويه، وفقًا للقانون الخاص بمن كانوا في مثل سنه. وعلى أية حال، فمن أجل ماذا يريد أن يتزوجكِ؟ إنه أصغر من أن يتزوج امرأة عجوزًا مثلكِ. تعالَ إلى هنا، يا بنيّ...»

فقالت بيسّي:

ـ «لا تحاول أن تحمِلَه على تغيير رأيه. إذا فعلتَ ذلك فعندئذٍ أعاود الصلاة. إنّ الله لن يسمح لك بأن تقف حجرَ عَثْرَةٍ في طريق زواجنا.»

ـ «ماذا تقصِد من مجيئك إلى هنا للزواج من هذه المرأة العجوز، يا بنيّ؟ يجب أن تنتظر حتى تكبر وعندئذٍ تتزوج من إحدى الفتيات.»

فقال دْيُود:

ـ «لست أدري. إنّ بيسّي هي التي أخذَتْني معها.»

فقال الموظف:

ـ «حسنًا، أنا لا أستطيع أن أعطيَكِ إجازة زواج. لأنّ زواج الغلام الذي لم يبلغ الثامنة عشرة، من غير موافقة أبويه، عملٌ يحرّمه القانون. وليس في استطاعة هذه الصلوات كلّها أن تغيّر القانون، إنه مدوّن في الكتب، ولا سبيل إلى مَحْوه.»

فعاودت بيسّي صلاتها:

Twitter: @ketab_n

ـ «يا إلَهي، أنتَ لن تدع هذا الرجل يعرقل زواجنا، أليس كذلك؟ أنت تدري مقدار حاجتي إلى الزواج من دْيُود، واعتمادي عليه. يجب أن لا تَدَع شيئًا يعرقل...»

فقال الموظف:

ـ «إنتظري دقيقة. لا تستأنفي الصلاة من جديد. مَنْ هُم أهلُ هذا الغلام؟»

فقالت بيسّي:

ـ «أبوه وأمّه لا اعتراضَ عندهما. إنهما سعيدان بهذا الزواج. لقد تحدّثتُ إليهما معًا في ساعة مبكرة من هذا الصباح في طريقي إلى فولر.»

ـ «ما اسم أبيه؟»

ـ «جيتر ليستر اسم أبيه، ولست أظنّ أنك سوف تعرف أمّه إذا قلتُ لك اسمَها. إنها تُدعى إيدا.»

ـ «طبعًا، أنا أعرف جيتر ليستر، ولستُ أظنّ أنه يبالي كثيرًا. وكذلك امرأتُه أيضًا. لقد كان عليّ أن أعطيَ لوف بنسي إجازةً للزواج من إحدى الفتيات الصغيرات لأنّ جيتر قال إنه راغب في ذلك. ولم تكن سنّها تزيد على الثانية عشرة آنذاك، وكان من العار أن تُزوَّج في مثل تلك السنّ. ولكن هذا يتفق مع نصوص القانون، وكان عليّ أن أقوم به. كانت فتاة صغيرة مليحة الوجه. ولست أذكر أني رأيت في حياتي كلِّها فتاة لها مثل شعرها الأشقر الجميل، وعينيها الزرقاوين. لقد كانت عيناها مثل عيني أبي الحنّ(*)، تمامًا. وأقسم، إنها كانت فتاة رائعة الجمال.»

فقالت بيسّي:

ـ «دْيُود أكبر سنًّا من ذلك. إنه في السادسة عشرة.»

(*) أبو الحنّاء أو أبو الحنّ طائر صغير أحمر الصدر. (المعرِّب)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ «كم عمركِ، أيّتها الأخت رايس؟ أنتِ لم تخبريني ما عمركِ؟»

فقالت:

ـ «ليس من واجبي أن أقول لك ذلك، أليس هذا صحيحًا؟»

ـ «هذا هو القانون. أنا لا أستطيع أن أمنحكِ الإجازة إذا لم تقولي لي ما عمركِ.»

ـ «حسنًا، لقد كنت في الثامنة والثلاثين، منذ مدة غير بعيدة جدًّا.»

ـ «ما عمركِ الآن؟»

ـ «تسعة وثلاثون، ولكنّي أبدو أصغر من ذلك.»

فسألها الموظف:

ـ «ومَن سيُعيلكما معًا؟ إنّ هذا الغلام لا يزال عاجزًا عن أن يكسب أجرًا مثل أجور الرجال.»

ـ «وهل ينصّ القانون على هذا السؤال أيضًا؟»

ـ «حسنًا، لا. إنّ القانون لا يحتّم هذا السؤال، ولكنّي أحببتُ أن أعرف ذلك رغبةً في الاطلاع الشخصي ليس غير.»

ـ «الربُّ يغدق علينا من فضله. إنه لا ينسى أولاده لحظةً واحدة.»

فقال الموظف:

ـ «ولكنه لا يبدي كثيرًا من الاهتمام بي وبأهلي. ولقد كنت عضوًا مناصرًا في الكنيسة المعمدانية منذ أن بلغت العشرين، أيضًا. إنه لا يعمل شيئًا كثيرًا من أجلي.»

فقالت بيسّي:

ـ «ذلك لأنك لا تدين بالمعتقد الصحيح. المعمدانيّون آثمون مثل سائر الناس، ولكنّ ديني يسدّ جميع حاجاتي.»

Twitter: @ketab_n

ـ «وما اسم هذا الدين؟»

ـ «ليس له اسم نظاميّ. أنا أكتفي بتسميته «مقدّس» في معظم الأحيان. وأنا العضو الوحيد فيه، الآن، ولكنّ ذيُود سوف يكون عضوًا، هو الآخر، عندما نتزوج، إنه سوف يصبح مبشِّرًا، أيضًا.»

فقال الموظف وهو يكتب على صحيفة الورق:

ـ «ينبغي أن تعطيني دولارين لقاء الإجازة. هل عندكِ دولاران؟»

ـ «أجل إنهما معي هنا. وعلى كلّ حال، فلست أفهم لماذا يتعيّن على الناس أن يدفعوا رسمًا على الزواج؟ إنه شيء من صنع الله!»

ـ «هناك شيء آخر أحبّ أن أسألَكِ عنه. القانون لا ينصّ على هذا السؤال، وبعض الموظفين لا يوجّهونه على الإطلاق. ولكنّي بوصفي معمدانيًّا صالحًا أحسّ دائمًا بأنّ من واجبي أن أسأله.»

ـ «وما ذلك السؤال؟»

ـ «هل يشكو أحد منكما مرضًا من الأمراض؟»

ـ «لستُ أعرف أني مصابة بمرضٍ ما. وأنت يا ذيُود هل تشكو شيئًا؟»

ـ «ماذا؟»

فقال الموظف، كَرَّةً ثانية، وهو يلفظ الكلمة في أناة:

ـ «مرض. مثل البلاغرا، أو جدريّ الماء، أو أيّ شيء من هذا القبيل. هل تشكو علةً ما، يا بنيّ؟»

فقال ذيُود:

ـ «لست أعرف أني أشكو من علّة ما. وعلى كلّ حال، فأنا لا أفهم عن أيّ شيء تتكلم.»

فسأل الموظف بيسّي:

Twitter: @ketab_n

ـ «أواثقة أنتِ من أنكِ سليمةٌ تمامًا؟ ألم يُعْدِك زوجك بأيّ مرض من الأمراض؟ بأيّ داء مات؟»

ـ «أغلب الظن أنه مات بالشيخوخة. كان على وشك أن يبلغ الخمسين عندما تزوج.»

ـ «هل يشكو أحدٌ منكما مرضًا تناسليًّا؟»

فسألته بيسّي:

ـ «ماذا تقول؟»

فأجابها الموظف:

ـ «أنت تعلمين جيّدًا... الأمراض التناسلية. لعلكِ تطلقين عليها اسم الاضطرابات الجنسية.»

ـ «لقد كنتُ آخذ عددًا كبيرًا من زجاجات «التانلاك» ولكنّي انقطعت عن ذلك في الفترة الأخيرة لأني لم أجد المال الذي يمكّنني من شرائها.»

ـ «لا، لست أعني هذا. إنّ ما أتكلم عنه ينشأ من مضاجعة النساء للرجال في بعض الأحيان.»

ـ «كان جسم زوجي السابق مليئًا بالحشرات الصغيرة أحيانًا وكان عليّ أن أغسله وأن أغتسل أنا نفسي بالكيروسين لكي نتخلص منها.»

ـ «لا، أنا لا أقصد الحشرات. إنّ كثيرًا من الناس تسرح الحشرات في أجسادهم. إنه شيء آخر ـ ولكنّي أظنّ أنكِ غيرُ مصابة به ما دمتِ لم تفهمي عن أيّ شيء أتكلم.»

فقالت بيسّي:

ـ «وماذا تريد أن تعرف أيضًا؟»

ـ «هذا كلّ ما هنالك، في ما أحسب. والآن أعطيني الدولارين.»

Twitter: @ketab_n

وناولَتْه بيسّي ورَقَتَي الدولار المتسختين الباليتين اللتين كانت تقبض عليهما بيدها. وكانت تحمل في جيب فستانها عدَّة دولارات أخرى ملفوفة في منديل، وقد رُبطت بعض أطرافها ببعضها الآخر. كان ذلك كلّ ما قد بقي معها من مال، بعد أن دفعت الثمانمئة دولار ثمنًا للسيارة الجديدة.

وقال الموظف:

ـ «حسنًا، أرجو أن يكون التوفيق حليفكما. فقد تتفاهمان، وقد لا تتفاهمان.»

وسألتْه بيسّي:

ـ «هل أنت متزوج؟»

ـ «أنا متزوج منذ خمسة عشر عامًا أو أكثر. لماذا؟»

فقالت:

ـ «حسنًا، يُخيَّل إليّ إذن أنك تعرف مقدار سعادتي أنا وذُيُود بأن نتزوج. إنّ جميع المتزوجين من الناس يعرفون قيمة الزواج.»

ـ «إنه جميل جدًّا في أوّل الأمر، ولكنه لا يستمرّ على هذه الحال فترةً طويلة. فبعد سنة تنقضي على الزواج، أو سنتين، يتوق الإنسان إلى أن يتخلص من امرأته ويفكّر في زواج جديد، ولكن ذلك شيء متعذّر. فالقوانين تحول بين المرء وبين القيام بهذا العمل بعد المرَّة الأولى، إلّا إذا ماتت زوجتك أو فرّت، وهما حالتان نادرتان إلى درجة تجعل الاستفادة منهما شبه معدومة.»

ـ «أنا وذُيُود سوف نحيا معًا طُولَ العمر، أليس كذلك يا ذُيُود؟»

وتبسّم ذُيُود ولكنه لم ينبس بكلمة.

Twitter: @ketab_n

حتى إذا تسلّمت بيسّي الإجازة، لم تَدَعْ للموظف فرصة تمكّنه من أن يقول شيئًا جديدًا. لقد جذبت دْيُود إلى خارج الغرفة، فغادرا دار القضاء، وركضا إلى السيارة الجديدة.

وامتطيا السيارة ليشخصا نحو البيت، وقرع دْيُود الزمّور عدَّة مرّات قبل أن يدير المحرِّك، وقبل أن يُعمل ناقل السرعة. ثم إنه استدار في الشارع وقادها من فولر في اتجاه طريق التبغ.

واعتدلت بيسّي في جلستها على المقعد الخلفيّ، ضاغطةً بيديها الاثنتين على رخصة الزواج خشيةَ أن تخطفها الريح وتذروها في الفضاء.

Twitter: @ketab_n

- 11 -

وسمع آل ليستر دْيُود يقرع الزمّور من أقصى طريق التبغ قبل أن تبدو السيارة الجديدة للعيان، فهرعوا جميعًا إلى أبعد زاوية من زوايا الفِناء، بل إلى غَيْضَة الرَّتَم، لكي يَرَوا إلى دْيُود وبيسّي عائدَيْن بسيارتهما. حتى الجدّة العجوز غلب عليها الاهتياج فانتظرت خلف شجرة أَزْدَرَخْت لكي تكون في عِداد السابقين إلى رؤية السيارة الجديدة.

وصاح جيتر:

ـ «ها هما! انظرن إليهما قليلًا! إنها سيارة جديدة مئة بالمئة، من غير شكّ ـ أَلْقِينَ مجرّد نظرة على الدهان الأسود اللمّاع! أَلْقِينَ مجرّد نظرة عليهما وقد أقبلا من هناك!»

كان دْيُود يسوق السيارة بسرعة عشرين ميلًا في الساعة، تقريبًا، وكان منهمكًا في نَقْر الزمّور إلى حدٍّ جعله ينسى التمهّل عندما انعطف نحو الفِناء، ووثبت السيارة عَبْرَ الفِناء، قاذفةً بيسّي، ثلاث مرّات متعاقبة أو أربعًا، إلى أعلى، صادمةً رأسَها بغطاء السيارة، محطِّمةً جزءًا من النوابض (الراسّورات) الخلفيّة. وعندئذٍ خفّف دْيُود السرعة، وكرّت السيارة عَبْرَ الفِناء، لتقف إلى جانب المنزل.

Twitter: @ketab_n

وكان جيتر أوّل من انتهى إلى السيارة الجديدة. لقد ركض خلفها فيما كان دْيُود يُعمِل المكبح، وتعلّق بالرفرف الخلفيّ لكي لا تفوته. ولم تتخلّف إللي ماي وإيدا كثيرًا عنه. وأقبلت الجدّة العجوز بأسرع ما تستطيع.

وقال جيتر:

ـ «أنا لم أرَ في أيامي كلِّها سيارة أجمل من هذه السيارة. ولا شكّ في أنه يُسعدني من جديد أن أشاهد مثلَ هذه العربة البديعة. ألا تظنين، يا بيسّي، أنّ في استطاعتك أن تأخذيني بها في نزهة قصيرة؟ أنا أحبّ، طبعًا، أن أركب فيها مسافةً غير طويلة.»

وفتحت بيسّي الباب، وترجّلت من السيارة. وكان أوّل ما عملَتْه أن أمسكت بأدنى ثوبها ومسحت الغبار عن الحائل الأمامي.

وقالت:

ـ «يبدو لي أنّ في استطاعتنا أن نُركِبَك فيها في وقتٍ من الأوقات. ولسوف يكون في إمكانك أن تقوم بنزهة فيها عندما أرجِع أنا ودْيُود.»

ـ «إلى أين ستذهبين أنتِ ودْيُود يا بيسّي؟»

فأجابت في اعتزاز:

ـ «سوف نقوم بجولة في المنطقة مثل العرسان، فعندما يتزوج الناس يحبّون دائمًا أن يمتطوا السيارة ويطوفوا قليلًا في البلاد.»

وألقت إيدا وإللي ماي نظرة مشدوهة على السيارة، وقد عَقَلَ الإعجاب لسانيهما. وما لبثت كلٌّ منهما أن جمعت أطراف فستانها وصقلت الأبواب والحائلَيْن الأماميّ والخلفيّ. حتى إذا انتهتا من ذلك توهّجت السيارة الجديدة تحت أشعّة الشمس المشرقة وكأنها المرآة.

Twitter: @ketab_n

ووثب دُيُود إلى الباب وأمر أمّه وأخته بأن تبتعدا عن السيارة، قائلًا:

ـ «أنتِ وإللي ماي سوف تخربانها. لا تضعا أيديكما عليها، ولا تقفا قريبًا جدًّا منها!»

وسأل جيتر بيسّي:

ـ «هل تزوجتِ أنتِ ودُيُود في فولر؟»

فقالت:

ـ «لا، ليس زواجًا كاملًا، لقد حصلتُ على إجازة السلطة عُلى كلّ حال. ولقد كلَّفَتْني هذه المسألة الصغيرة دولارين اثنين.»

ـ «ألن تستدعي مبشِّرًا لإتمام ذلك الزواج؟»

ـ «لا، طبعًا. ألستُ أنا مبشِّرة بالإنجيل؟ سوف أقوم بهذه المهمّة بنفسي. لن أدعَ معمدانيًّا عنيدًا يتدخل في شؤوننا الخاصة.»

فقال جيتر:

ـ «كنت واثقًا من أنكِ ستفعلين ذلك على أحسن وجه. أنتِ لا شكّ مبشِّرة ممتازة، أيّتها الأخت بيسّي.»

وتقدّمت بيسّي نحو السقيفة الأماميّة، فاتلةً إجازة الزواج بيديها. وكان سائر القوم لا يزالون يتأملون السيارة الجديدة. ووقفت إللي ماي وإيدا على مسافةٍ أمينة تجعل من المتعذّر على دُيُود أن يطردهما بإحدى العِصِيّ. وكانت الجدّة العجوز قد اختبأت خلف شجرة أَزْدَرَخْت، كَرَّةً أخرى، وقد روّعها المشهد.

Twitter: @ketab_n

ومشى ذيُود مشيًا دائريًّا لكي يكون في مَيْسوره أن يرى جوانب السيارة كلّها. كان يريد أن يطمئنّ إلى أنّ أحدًا لن يضع يده على السيارة ويشوّه لمعانها.

وجلس جيتر القرفصاء وراح يتأمل السيارة في إعجاب.

وكانت بيسّي قد ارتقت نصف درجات السُّلَّم، وحاولت أن تلفت انتباه ذيُود. لقد سعتْ عدَّة مرّات، وحكّت الألواح الخشبية برجليها، ونقرت السقيفة بمفاصل أصابعها. وسمعها جيتر، فتلفّت نحوها ليرى ما الذي كانت تفعله.

ثم إنه قال واثبًا على قدميه:

ـ «وحقِّ الله وحقِّ المسيح! أليس هذا العمل أشبه بعمل المجانين؟»

وتلفّت سائر أفراد الأسرة ونظروا إلى بيسّي. وقهقهت إللي ماي من وراء شجرة الأزْدَرَخْت.

وقال جيتر:

ـ «إيدا، الأخت بيسّي تريد الدخول إلى المنزل، دُلّيها على الطريق.»

ومضت إيدا فدخلت المنزل، وفتحت النوافذ. كان في مَيْسور المرء أن يسمعها وهي تسحب الكراسي حول الغرفة وتردّ السُّرُر إلى الزوايا.

وسأل جيتر الأخت بيسّي:

ـ «ألم تتوقفي أنتِ وذيُود في الغابة أثناء عودتكما من فولر؟»

فقالت:

ـ «كان يتعجّل العودة إلى هنا. لقد لمّحتُ له بشيء من ذلك، ولكنه كان منهمكًا في نفخ الزمّور فلم يسمع شيئًا من كلامي.»

Twitter: @ketab_n

فقال جيتر:

ـ «دُيُود، ألا ترى مقدار رغبة الأخت بيسّي في الدخول إلى المنزل؟ إذهب إذن معها، ولسوف أحرس السيارة بنفسي.»

وفيما كان دُيُود يُحرَّض على الذهاب إلى المنزل، مضت بيسّي متمهّلة إلى الباب، عَبْرَ السقيفة الأماميّة، وانتظرت لترى ما إذا كان دُيُود قد لحق بها.

ورفعت إللي ماي نفسَها على رؤوس أصابعها وحاولت أن تُلقيَ نظرةً على حجرة النوم خلال النافذة المفتوحة. وكانت إيدا ما تزال تسوّي الغرفة وترتّبها، وتدفع بين الفَيْنة والفَيْنة أحد الكراسي من مكان إلى مكان، وتغيّر أوضاع السُّرُر.

وتساءلت إللي ماي:

ـ «ما الذي سوف يفعلانه هنا؟»

وتقدّمت إيدا نحو النافذة، وأطلّت منها. لقد ردّت يَدَي إللي ماي عن إطار الشبّاك وأشارت إليها بضرورة الابتعاد، قائلةً:

ـ «الأخت بيسّي ودُيُود أصبحا زوجين. فليس عليكِ إلّا أن تذهبي وتكفّي عن محاولة النظر إلى الداخل. إنّ هذه المسألة ليست من شأنك.»

حتى إذا غادرت إيدا النافذة، تعلّقت إللي ماي كَرَّةً ثانية بإطار الشبّاك وأخذت تسترق النظر إلى الداخل.

وكاد دُيُود قد بلغ الباب الأماميّ، ولكنه تمهّل هناك لكي يُلقِيَ نظرة أخرى على السيارة. وظلّ واقفًا هكذا حتى خرجت إيدا وحملَتْه على أن يدخل الغرفة التي سبقته بيسّي إليها.

Twitter: @ketab_n

ولم يكن في الغرفة أثاث يُذكَر. فعلاوةً على السُّرُر الثلاثة المزدوجة كانت في الزاوية مِنضدة عرجاء تُصطَنَع كطاولةٍ ومِغسلة في آنٍ معًا. وفوقها كانت تتدلّى على الجدار مرآة مصدوعة. وفي الجانب المقابل من الغرفة، كان الموقد. وكانت تقف خلف الباب مِكنسةٌ من مكانس الرَّتَم، على حين كانت مِكنسةٌ أخرى باليةٌ بلَى كاملًا تحت سرير إيدا. وكان في الغرفة أيضًا كرسيّان مستقيما الظهر. وإذْ لم يكن في البيت خزانة ما فقد كانت الثياب تُعلَّق على الجدران بمسامير دُقَّت في الأعمدة.

ولم يكد دْيُود يبلغ الغرفة حتى أغلقت بيسّي الباب في عنف ودفعت الشابّ إلى الداخل. ثم إنها أخرجت إجازة الزواج من جيب فستانها ونشرتها أمامها.

ـ «أَمْسِكْ أنت، يا دْيُود، بطرف هذه الورقة، وأنا بطرفها الآخر.»

ـ «ماذا تريدين أن تفعلي؟»

فقالت:

ـ «نتزوج، يا دْيُود.»

ـ «ألم نعمل ذلك في المحكمة، هناك في فولر؟»

ـ «لم يكن ذلك كلّ شيء. أريد أن أفعل الباقي الآن.»

فسألها:

ـ «ومتى سنقوم بنزهة في السيارة؟»

ـ «في أقرب وقت. نريد أن نبقى هنا فترةً قصيرة، قبل كلّ شيء. وأمامنا متَّسع من الوقت للتنزّه في السيارة، يا دْيُود.»

ـ «وهل ستتركينني أسوقها دائمًا؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «طبعًا. تستطيع أن تقودَها دائمًا. أنا لا أعرف كيف أسوقُها، على كلّ حال.»

ـ «أنتِ لن تتركي أحدًا غيري يسوقها، أليس كذلك؟»

فقالت:

ـ «أنت الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يسوقها. ولكن ينبغي أن نعجّلَ ونُنهي زواجنا. أَمْسِكْ بطرف الإجازة بينا أقوم أنا بالصلاة.»

ووقف دْيُود إلى جانبها، منتظرًا أن تُنجز صلاتها، وصلّت عِدَّة دقائق صلاةً صامتة فيما وقف هو تجاهها.

ـ «أنا أُعلن أننا صرنا زوجًا وزوجة. ليكنْ ذلك. هذا كلُّ ما هنالك، يا إلَهي. آمين!»

وعَقِبَ الصلاةَ صمتٌ طويل كانا خلاله يتبادلان النظرات.

وقال دْيُود:

ـ «متى سنقوم بنزهة في السيارة؟»

ـ «لقد صرْنا زوجيْن الآن، يا دْيُود. لقد أتمَمْنا الزواج. ألستَ سعيدًا بذلك؟»

فقال دْيُود:

ـ «متى سنقوم بنزهة في السيارة؟»

فقالت:

ـ «يجب أن أصلّي الآن. إركعْ على الأرض فيما أصلي أنا صلاة صغيرة.»

Twitter: @ketab_n

وركعا للصلاة. وخرّ دْيُود على يديه وقدميه ناظرًا مباشرةً في أنف بيسّي وهي مغمضة العينين.

ـ «يا إلَهي، ها قد تزوجنا، أنا ودْيُود. صرنا امرأةً وزوجًا. إنّ دْيُود فتًى صغير طاهر، لم يتعوّد أخلاق هذه البلاد الآثمة، وأنا مبشِّرة بالإنجيل. ينبغي لك أن تجعل دْيُود مبشِّرًا أيضًا، وأن تتركنا نستعمل سيارتنا الجديدة في الطواف بأنحاء البلاد لكي نصلّي للخاطئين. يجب أن تجعل منه مبشِّرًا ممتازًا لكي نحوّل جميع الذئاب إلى خراف. هذا كلّ ما هنالك، هذه المرَّة. نحن مستعجلان الآن. نجّنا من الشرير، واحفظ لنا مكانًا في الجنة. آمين!»

وسُمع حفيف فستان عندما وثبت الأخت بيسّي على قدميْها وراحت تعدو مهتاجة حول الغرفة. ثم إنها انكفأت وأمسكت بتلابيب دْيُود، وأغرتْه بأن يطوّق خصرها بذراعيه.

وهناك، في الفِناء، كان جيتر وإللي ماي واقفيْن على رؤوس أصابعهما ليريا من خلال النافذة ما الذي يفعله دْيُود وبيسّي. ولم تكن لنوافذ البيت ستائر، وكانت المصاريع الخشبية العريضة قد أُشرعت لكي يتسرّب النور إلى الغرفة.

ووقف دْيُود بِضْعَ دقائق يراقب بيسّي وهي تحاول أن تجذبه إلى الجانب الآخر من الغرفة. وأخيرًا قعدت على أحد السُّرُر وحاولتْ أن تحمله على أن يجلس قربها.

وسألها:

ـ «أنتِ لن تنامي الآن، أليس كذلك؟ إنّ وقت الذهاب إلى الفراش لم يحِنْ بعد. نحن ما زلنا في فترة الظهيرة.»

فقالت:

Twitter: @ketab_n

ـ «لحظة واحدة ليس غير. وبعدئذٍ نستطيع أن نخرج ونذهب في نزهة بالسيارة.»

وركض ڈيُود إلى النافذة ليرى السيارة. كان منذ لحظة قد نسِيَها تمامًا. حتى إذا بلغ النافذة رأى جيتر وإللي ماي متعلِّقَيْن بأطراف أصابعهما، بإطار النافذة، يحاولان أن يَرَيا ما الذي يجري في الداخل.»

وسأل أباه:

ـ «لماذا تفعل هذا؟ ما الذي تريد أن تراه؟»

وأشاح جيتر بوجهه وأنشأ يتأمل شَجَرات الرَّتَم. وركضت إللي ماي إلى ما وراء المنزل، ودخلت الرواق، من خلال المطبخ على رؤوس أصابعها.

ومضت بيسّي إلى النافذة، وفتلت ڈيُود حتى واجهها. ثم إنها ردّته إلى وراء وأجلسته على السرير.

وفجأةً، ومن غير أن يعرف كيف حدث ذلك، وجد ڈيُود نفسه في السرير، وعلى جسده غطاء. كانت بيسّي قد طوّقته بذراعيها تطويقًا جعله عاجزًا عن أن يتحرك في أيِّما اتجاه.

وخارجَ البيت سمع سُلَّمًا تتطّ على الجدار. كان جيتر قد وجد السُّلَّم تحت العنبر، فحملها إلى النافذة.

Twitter: @ketab_n

- 12 -

وحين رفع دُيُود بصره رأى الباب مفتوحًا، ورأى إللي ماي وإيدا والجدّة العجوز يحتشدن حوله. ولم يَدْرِ ما يصنعه، ولكنه حاول أن يشير إليهن بالابتعاد عن الغرفة.

وما كان في مَيْسوره أن يرى جيتر، لأنّ جيتر كان واقفًا خلفه، مطلًّا بنصف جسمه من النافذة، وقد أسند قدميه إلى إحدى درجات السُّلَّم. ورأت بيسّي جيتر، ولكنّها لم تكن قادرة على أن ترى سائر الجماعة.

وسمع دُيُود جدَّته تغمغم وتمضي لسبيلها. كان في وُسْعِه أن يسمع إلى حركة قدمَيْها المسحوبتين سحبًا على أرض الرواق ذات الألواح الصنوبريّة، وقد أحدث نعلاها المصنوعان من أحد أطواق الخيل، فيما هي تتجه نحو المطبخ، صوتًا مثيرًا للأعصاب. ولم يُلْقِ أيَّما بالٍ إلى الآخرين.

وبعد لحظة تنحنح جيتر ونادى بيسّي، فلم تُجِبْ بيسّي بشيء. فأعاد النداء، فاعتصمت بالصمت كذلك. كانت هي ودُيُود راغبَيْن في أن لا يزعَجا على الإطلاق.

حتى إذا أصرّت على عدم الإجابة هبط جيتر، الغرفة، من خلال النافذة، وتقدّم نحو السرير. وهزّ دُيُود من قَبَّةِ قميصه ثم استدار.

Twitter: @ketab_n

بَيْدَ أنّ جيتر ما كان يريد أن يقول شيئًا لدْيُود. كانت بيسّي هي التي يبتغي أن يوجّه إليها الخطاب:

ـ «لقد كنتُ أفكّر في ذلك، هذه اللحظة بالذات، أيّتها الأخت بيسّي. وكلّما أدرتُ المسألة في عقلي ازددتُ يقينًا بأنكِ كنتِ على صواب في ما تحدّثنا حوله أمس، على السقيفة الأماميّة.»

فسألَتْه:

ـ «ماذا تريد مني يا جيتر؟»

ـ «أريد أن أسألكِ عن ذلك المَوْضع من الكتاب المقدّس حيث يقول إذا أغضبَتْ عَيْنُ الإنسان الربَّ فيجب أن يقتلعَها.»

فأجابتْه:

ـ «ذلك ما يقوله الكتاب المقدَّس.»

ـ «أعرف هذا. وهذا ما يزعج روحي غايةَ الإزعاج في هذه اللحظة.»

فقالت:

ـ «ولكنك رجل تقيّ، يا جيتر. وليس هناك ما ينبغي أن يقلق ضميرَك الآن. لقد صلّيتُ لك من أجل كيس اللفت الذي انتزعْتَه من لوف. ولقد نسيَ الربُّ كلَّ ما يتّصل بهذه المسألة الآن. إنه لن يعذّبَك مطلقًا بسبب ذلك.»

ـ «أنا لا أتحدّث عن أقراص اللفت. ولكنّي أتحدّث عن ضرورة قَطْع جزء من جسدي. لقد أدركتُ الآن، جيّدًا، أنّ ما قلتِه حقّ. فينبغي أن أذهب وأقوم بذلك.»

واستدار دُيُود، وحاول أن يدفع جيتر إلى الأرض. ولكنّ جيتر تعلّق بخشب السرير، وأبى أن يتزحزح من مكانه.

Twitter: @ketab_n

وقالت بيسّي:

ـ «ولماذا تريد أن تفعل ذلك؟»

ـ «لقد كنت أفكّر كثيرًا في ما سبق لكِ أن قلتِه حتى أدركتُ الآن أنّ من الواجب عليّ أن أسارعَ فأقتطع جزءًا من جسدي لكي لا يتركَني الربّ فريسةً للإغراء، بعد اليوم. لقد أغضبتُ الله، وأنا أعلم أنّ من الواجب عليّ أن أقتطع جزءًا من جسدي لكي لا أعاود هذه الخطيئة كَرَّةً أخرى. أليس هذا صحيحًا أيّتها الأخت بيسّي؟»

فقالت:

ـ «هذا صحيح. ذلك ما يقول الكتاب المقدَّس إنّ على الإنسان أن يعملَه حين يكون آثمًا كبيرًا.»

ونظر جيتر إلى بيسّي. وردّ اللحاف لكي يكون في مَيْسوره أن يراها على نحوٍ أوضح.

وبعد بضعِ دقائق من التفكير، قال:

ـ «لعلّي أستطيع أن أؤجل ذلك فترةً من الزمان. فقد لا يكون الأمر على مثل هذه الخطورة التي توهّمْتُها. إن هذا الفصل من السنة يُلقي شعورًا عجيبًا في نفس الإنسان، فهو يقول أشياء كثيرة من غير تفكير. فلا يَحين موعدُ حراثة الأرض وإلقاء البذور فيها حتى يُحسّ المرء وكأنْ ليس له سيطرة على لسانه، ولا يريد أن تكون له سيطرة مثل هذه. والشيء نفسُه يصحّ في أعماله. فأنا أحسّ هكذا في أواخر شباط وأوائل آذار من كلّ عام. ومهما يكن عند الرجل من أبناء فإنه يشعر دائمًا بالحاجة إلى إنجاب أولاد آخرين.»

Twitter: @ketab_n

ورانَ الصمت على المنزل فترةً طويلة. ولم تُحدث إللي ماي وإيدا أيّ صوتٍ عند عتبة الباب. وجلس جيتر على الفراش، مستغرقًا في التفكير، حتى دفعه ڈيُود وأكرهه على الوقوف. ثم إنّ ڈيُود نهض فوقف خلفه.

وحين أمسوا كلُّهم في فناء الدار، من جديد، امتطى ڈيُود مَتْنَ السيارة وأنشأ يزمّر. كانت النسوة منهمكات في مسح الغبار الذي استقرّ على غطاء المحرِّك وحائلي السيارة. بَيْدَ أنّ الجدّة العجوز لم تقترب من السيارة. لقد اتخذت لها موقفًا وراء شجرة من شَجَرات الأَزْدَرَخْت وراحت تراقب كلّ حركة من حركات الجماعة.

وجلس جيتر القرفصاء إلى جانب المدخنة وفكّر في الذي قالتْه الأخت بيسّي في المنزل. لقد غدا أكثر اقتناعًا من ذي قبل بأنّ الله يتوقّع منه أن يقوم بهذا الصنيع لكي لا تراوده، منذ اليوم، أيُّما أفكار آثمة تتصل بالأخت بيسّي.

ومع ذلك فقد عزم على أن لا يتعجّل تنفيذ خطّته، قائلًا لنفسه إن أمامه متّسعًا من الوقت يستطيع أن يتقدّم بعده إلى اقتطاع جزء من جسده، شرطَ أن يقوم بذلك قبل أن يُغضِب الربّ كَرَّةً أخرى. ولسوف يكون لديه، في الوقت نفسه، مهلة جديدة يحاول خلالها أن يُقنع ذاته، إقناعًا أرسخ، بضرورة القيام بهذا العمل.

كان لا يزال ثَمَّةَ قليل من شحم الخنزير، في المطبخ. وكانت إيدا قد أعدّت شيئًا من خبز الذرة. ولقد صُنع الخبز من الطحين، والملح، والماء، وشيء من الدهن.

وجلسوا كلُّهم إلى المائدة القائمة في المطبخ، وأكلوا شحم الخنزير وخبز الذرة في شهيّة تامّة. كانت أوّل مرّة أصابوا طعامًا منذ أن أشرقت شمس ذلك النهار، ولعلّها أن تكون هي المرَّة الأخيرة. وبعد أن أتوا على طبق اللحم فلم يغادروا فيه ذرّةً من الدهن، وبعد أن التهموا آخر قطعة من

Twitter: @ketab_n

خبز الذرة، انطلقوا إلى الفِناء، كَرَّةً ثانية، لكي يمتّعوا الطرْف بمشهد السيارة الجديدة. وكانت الجدّة قد خبّأت قطعةً من الخبز في جيب مِئزرها، فوضعتْها تحت فراشها لكي يكون لديها في اليوم التالي شيء تأكله إذا ما عجز جيتر عن شراء شيء إضافي من اللحم والطحين.

وكان جيتر يرغب في أن يقوم بنزهة عاجلة في السيارة. فأخبر بيسّي برغبته تلك، وبأنه مستعدٌّ أتمَّ الاستعداد للذهاب.

بَيْدَ أنّ بيسّي كانت قد رسمت خططًا مخالفة. لقد قالت إنها تعتزم أن تقوم هي وذْيُود، وحدهما، بنزهة صغيرة ذلك الأصيل لكي يستطيعا أن يتحدّثا حديث زواجهما في حرية كاملة. ووعدت جيتر بتحقيق رغبته تلك عندما يرجعان.

وامتطى ذْيُود وبيسّي السيارة. وتقدّم ذْيُود بها من فناء الدار إلى طريق التبغ، في اتجاه طريق الولاية العريضة. وظنّ جيتر أنهما ذاهبان إلى أوغوستا، ولكنهما تواريا عن الأنظار قبل أن يوفّق إلى سؤالهما عن ذلك.

والتفت جيتر إلى إللي ماي وقال:

ـ «ذْيُود هو أكثرُ الناس حظًّا في العالم. أليس كذلك؟»

واندفعت إللي ماي نحو الطريق، وسط سحابة من الغبار، لكي تراهما ينطلقان. لقد سمعت جيتر يخاطبها، ولكنّها كانت قد استغرقت في النظر إلى السيارة الجديدة، والإصاخة إلى ذْيُود وهو يزمّر، فلم تسمع إلى ما كان جيتر يقوله.

وأردف جيتر:

ـ «صار عند ذْيُود سيارة جديدة يركبها، كما صارت له زوجة في الوقت نفسه. أقول لكِ إنّ قليلًا من الناس يستطيعون أن يحصُلوا على ذلك كلِّه في

Twitter: @ketab_n

يوم واحد. إنّ السيارة الجديدة شيء نفيس يتمنى المرء أن يقتنيه. ولست أعرف أحدًا غير ذُيُود يملك مثلَ هذه السيارة الجديدة في المنطقة الممتدّة من هنا إلى النهر. كما لا أعرف رجالًا كثيرين عندهم زوجة لا تزال مليحة الوجه في مثل هذه السنّ، كالأخت بيسّي، أيضًا. إنّ بيسّي امرأة جميلة جديرة بأن تكون زوجة لرجل ـ أيّ رجل ـ في جميع البلاد. ولكنّي أخشى أن تكون فوق ما يستحقّ ذُيُود. إذ يبدو لي أنّ المرأة الشابّة مثلَها، التي لا يزيد عمرها كثيرًا على عمر فتاة صغيرة، محتاجة إلى من يُشبع رغباتِها الكثيرة، بطريقة من الطرق. ولست أدري ما إذا كان ذُيُود قادرًا على ذلك أم لا، ولكنّ بيسّي لن تلبث أن تكتشف ذلك. ولو كنتُ أنا محلَّ ذُيُود، لَما كان هذا السؤال واردًا على الإطلاق. لو كنتُ أنا محلَّه، إذن لأسعدتُ الأخت بيسّي، قدرَ ما تشاء، منذ اللحظة الأولى، ولَواظَبْت على ذلك حتى النهاية.»

وسمعتْ إللي ماي، الآن، ما كان جيتر يقوله، فشاقَها ذلك، وانتظرت حتى تسمع مزيدًا من هذا الحديث.

ـ «وأنتِ أيضًا، يا إللي ماي، لقد آن لكِ أن تقعي على رجل يتزوجكِ. لقد تزوج أولادي الآخرون كلُّهم. وهكذا جاء دوركِ أنتِ. أجل لقد جاء دوركِ من زمن طويل، قبل أن تتزوج بيرل ويتزوج ذُيُود، ولكنّي أعذركِ بسبب العاهة التي في وجهكِ. أنا أعرف أنّ زواجكِ أصعب من زواج أيّ فتاة أخرى، ولكن كلّ إنسان في هذه البلاد يجب أن يتزوج. يجب أن تذهبي وتبحثي عن رجل يتزوجكِ في الحال، ولا تنتظري أكثر ممّا فعلت. لقد يفوتك القطار، بعد قليل، وهو شيء لا يرضيكِ. ولن يفيدَكِ في شيء أن تضيعي وقتكِ مع لوف، كما فعلتِ في المرَّة الأخيرة، لأنكِ لن تستطيعي الاستيلاء عليه بهذه الطريقة. إنه رجل متزوج وإنّ عليكِ أن تبحثي عن زوجكِ المُقبِل بين العزّاب من الرجال. وهناك عدد كبير من الفتيان في مَنْشرة الخشب بـ «بيغ كريك». وفي استطاعتكِ أن تقصدي إلى هناك، يومًا

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

من الأيام، وتحاولي أن تلفتي أنظارهم إليكِ. وليس ذلك صعبًا. فالنساء يعرفن كيف يلفتن أنظار الرجال، ولقد بلغتِ سنًّا تمكّنكِ من معرفة ذلك كلّه. إنّ الفتيان العاملين في المنشرة، هناك في «بيغ كريك»، لا بدّ أن يُعجبوا بكِ على الرغم من العاهة التي في وجهكِ. لأنه حين ينظر الإنسان إليكِ، من وراء، لا يفكّر في غير الزواج منكِ، في تلك اللحظة بالذات. هذا ما سمعتُ لوف يقوله في يوم من الأيام، وهو لا شكّ يعرف جيّدًا، لأنه صار رجلًا متزوجًا. كلّ ما عليكِ أن تفعليه هو أن لا تُظهري وجهكِ كثيرًا للناس، وعندئذٍ لا يتردّد الفتيان في الجرْي وراءكِ.»

وحين نظر جيتر إلى إللي ماي، كَرَّةً أخرى، وجد أنها كانت تسفح الدمع. كانت تلك أوّل مرّة، تقريبًا، شاهدها فيها وهي تبكي، منذ أن كانت طفلة صغيرة. ولم يدرِ جيتر ما الذي ينبغي أن يفعله، أو يقوله، إذ لم يقدَّر له من قبل أن يكفكف عَبَراتِ النساء. إنّ إيدا لم تبكِ في حياتها قَطّ. بل إنها لم تفعل، في حياتها، شيئًا قَطّ.

وقبل أن يوفَّق إلى سؤالها عن السبب الذي تبكي من أجله، انطلقت نحو حقل القطن القديم. لقد ركضت في اتجاه الغابة القائمة وراء البيت، واثبةً وسط شَجَرات الرَّتَم مثل أرنب مذعور.

ـ «أنا لم أرَ شيئًا مثل هذا من قبل. إني لأعجب ما الذي قلتُه لها حتى تتصرّف مثل هذا التصرّف؟»

Twitter: @ketab_n

- 13 -

ظلّ جيتر نصف ساعة جالسًا القرفصاء، قرب المدخنة، بعد ذهاب إللي ماي وهي تبكي وتنتحب. لقد حدّق إلى الآثار التي خلّفتها السيارة الجديدة في الفِناء، وقد أذهله وضوح الانطباعات التي أحدثتها العجلات المطّاطيّة في صفحة الرمل. كانت دواليب سيارته هو، التي ما تزال واقفة في الفِناء بين المنزل وعنبر الذرة، مَبْريَّة بسببٍ من طُولِ الاستعمال فهي لا تترك، حين تجري على الرمل، غير شريطين متوازيين من رملٍ ناعم. وكان يتساءل الآن كيف يحلّ مسألة الدواليب هذه. فلو أنه وُفّق إلى أن ينفخها كلَّها دفعةً واحدة إذن لكان في مَيْسوره أن ينقل حملًا من الحطب إلى أوغوستا فيبيعه فيها. ولقد يستطيع أن يكسب نحوًا من دولار كامل في هذه الصفقة.

وكانت المدينة تبعد خمسة عشر ميلًا عن منزله. فلو أنه اشترى مقدارًا من البنزين والزيت يكفيه للقيام بالرحلة ذهابًا وإيابًا إذن لما بقيَ له من الدولار شيء يُذكر. جائز أن لا يبقى منه غير خمسة وعشرين سنتًا يستطيع أن يشتريَ بها جرّتين أو ثلاثًا من السَّعوط، وكمّيّة وافرة من طحين بزر القطن. ذلك بأنه يعجز عن أن يشتريَ، بالخمسة والعشرين سنتًا كلِّها، مقدارًا من دقيق الذرة كافيًا لإشباعهم. وكان قد تعوّد منذ عهد قريب أن يشتريَ دقيق بزر القطن، لأنّ دقيق الذرة غالٍ جدًّا. على حين يستطيع أن

Twitter: @ketab_n

يشتريَ، بخمسة عشر سنتًا، كمّيّة من دقيق بزر القطن تكفي الأسرة أسبوعًا كاملًا.

ولكنّ جيتر ما كان واثقًا من أنّ هذه القيمة الزهيدة تستحق كلّ هذا العناء. فهو مضطرٌّ إلى أن يُنفق نحوًا من نصف نهار في شحن السيارة بالسنديان الأسود، ونصف نهار آخر في الطريق إلى أوغوستا. حتى إذا وصل إلى هناك كان من الجائز أن لا يجد أحدًا يشتري منه حمله ذاك.

وفي الوقت نفسه كان جيتر لا يزال معتزمًا أن يزرع شيئًا من القطن، تلك السنة. إنه لم يتخلّ عن مشروعه ذاك بأية حال. وإنّ في مَيْسوره أن يزرع عشرة أكرات أو خمسة عشر أكرًا إذا ما وُفّق إلى الحصول على بزر القطن وسماد الطير. وكان ثَمَّةَ قرْب فولر بغلٌ اعتقد جيتر أنّ في وُسْعه استعارته، وكان لديه محراث قادر على النهوض بهذه المهمّة. ولكن شراء بزر القطن وسماد الطير يحتاج إلى مالٍ أو إلى تاجر مستعدّ أن يبيع البضاعة لجيتر من غير أن يتقاضى ثمنها نقدًا. ولقد كان التجار في فولر قد أعلنوا أنهم لن يبيعوه شيئًا بعد اليوم، إلّا نقدًا، وكان من العبث الذي لا طائل تحته أن يسعى إلى الحصول على قرض من أحد المصارف في أوغوستا. لقد حاول ذلك من قبل، ثلاث مرّات، أو أربع مرّات، وفي كلّ مرّة كان أصحاب المصرف يسألونه، أوّل ما يسألونه، عمّن سوف يوقّع على سنداته وما الضمانات التي سيقدّمها. وههنا كانت المحاولة تقترن بالفشل دائمًا. إنّ أحدًا ما كان يرتضي أن يوقّع على سنداته، ولم يكن عنده من ضمانة يقدّمها. وكان رجال المصرف قد أشاروا عليه بأن يلجأ إلى شركة من شركات التسليف.

وكان القائمون على شركات التسليف قومًا لم يعرف جيتر أشدّ منهم وطأة وأقسى. لقد حصل ذات يوم على قرض من إحدى تلك الشركات قيمته مئتا دولار، ولكنه أقسم أن لا يعود بعدها إلى تقييد نفسه بمثل تلك

Twitter: @ketab_n

الاتفاقية. كان مندوبو الشركة يَفِدون عليه مرّتين أو ثلاث مرّات كلّ أسبوع. وكانوا يحاولون أن يعلّموه كيف يزرع القطن، ويعيّنوا له مقدار السماد الذي ينبغي أن يستعمله لكلّ أكرٍ من الأرض. ثم كانوا ينقلبون إليه، عند مطلع كلّ شهر، لكي يأخذوا منه فائدة القرض. وإذْ كان دائمًا أعجز من أن يدفعها، فقد كانوا يضيفون الفائدة إلى رأس المال ثم يبتزّون منه فائدة على أساس المبلغ الجديد، أيضًا.

حتى إذا كان الخريف، وباع محصوله من القطن، لم يكن قد بقي له غير سبعة دولارات. فقبل كلّ شيء، كانت فائدة القرض تبلغ ثلاثة بالمئة في الشهر الواحد، فما انقضت عشرة شهور حتى كان عليه أن يدفع فائدة قدرها ثلاثون بالمئة، وأن يدفع فوق ذلك ثلاثين بالمئة أخرى على الفائدة غير المدفوعة. ولكي تطمئنّ الشركة إلى سلامة القرض فرضت على جيتر أن يدفع إليها خمسين دولارًا. ولم يكن في مستطاعه أن يفهم السبب الذي من أجله يتعيّن عليه دفع هذا المبلغ، ولم تجشّم الشركة نفسها عناء شرح المسألة له. وحين تساءل أيّ شيء تمثّله هذه الخمسون دولارًا قيل له إنها مجرّد رسم يُقتضى لقاء عقد القرض. وحين صُفِّيَ الحساب نهائيًّا تبيّن لجيتر أنه دفع ما يزيد على ثلاثمئة دولار ولم يربح غير سبعة دولارات، وبدا له أنّ سبعة دولارات يجنيها من عمل سنة بكاملها في زراعة القطن لم تكن حصةً عادلة، خاصة وأنه قام بالعمل كلّه بنفسه، وقدّم الأرض والبغل أيضًا. وكان لا يزال رازحًا، حتى في ذلك الحين، تحت وطأة الدَّيْن، لأنه كان مضطرًّا إلى أن يدفع عشرة دولارات أجرة لصاحب البغل الذي استعمله في حراثة الأرض. وبمعاونة إيدا ولوف، اكتشف آخِرَ الأمر أنه خسر ثلاثة دولارات ولكنه ظلّ يطالب بالثلاثة الدولارات الباقية وفاءً لدَيْنه.

وأقسم جيتر أنه لن يعامل منذ اليوم رجال أوغوستا الأغنياء مهما كلّف الأمر. لقد طاردوه كلّ يوم تقريبًا محاولين أن يعلّموه كيف يزرع القطن، ثم

Twitter: @ketab_n

جاءوا آخِرَ الأمر فانتزعوا المحصول كلَّه منه، وتركوه مَدينًا بثلاثة دولارات لصاحب البغل. لقد نهض بعبء العمل كلِّه، وقدّم البغل والأرض، ومع ذلك فقد استولت شركة التسليف على عائدات القطن كلِّه، وجعلته يخسر ثلاثة دولارات. وقال لمن رآه بعد ذلك إنّ الله لا يقرّ من غير شكّ تلك الصفقات الخاسرة. وكذلك قال الشيء نفسه لممثّلي مصرف التمويل:

ـ «أنتم يا جماعة الأغنياء، في أوغوستا، تمتصّون دماء الفقراء حتى الموت. إنكم لا تشتغلون شيئًا، ولكنكم تستولون على جميع الأموال التي نكسبها نحن المزارعين. لقد اشتغلتُ أنا نفسي طُولَ السنة، وحَرَثَ دْيُود الأرض، واقتلعَتْ إيدا وإللي ماي الأعشاب المؤذية من حول القطن، وقامتا بجَنْيِهِ في الخريف، فما الذي حصلتُ عليه من ذلك كلِّه؟ لم أحصُل على فلس واحد، وفوق هذا أصبحتُ مَدينًا بثلاثة دولارات. هذا ليس عدلًا، أقول لكم. إنّ الربّ ليس في جانبكم. إنه لن يحتمل مثل هذا الخداع أكثر ممّا فعل. وهو لا يحبكم، أنتم الأغنياء، بقدر ما تظنون. الربّ الإلَه لا يحبّ غيرَ الفقراء.»

واستمع جُباةُ شركة التسليف لحديث جيتر، حتى إذا انتهى، سخروا منه، وامتطوا سيارتهم الجديدة عائدين إلى أوغوستا.

ذلك كان أحد الأسباب التي جعلت جيتر غيرَ واثق من أنّ في استطاعته أن يزرع شيئًا من القطن تلك السنة. ولكنه قال في نفسه: إذا استطعتُ أن أحصُلَ على البزر والسماد، من رجل في فولر، من غير أن أدفع إليه الثمن نقدًا، فعندئذٍ لن أكون عُرضةً للابتزاز والسرقة. فقد كان الناس في فولر مزارعين، كما كان هو تمامًا، أو كما حاول أن يكون، ولم يكن ليعتقد أنهم يخدعونه. ولكنه ما قصد إلى أولئك التجار مرّة وحدّثهم عن رغبته في زرْع القطن إلّا طردوه، وأبوا أن يسمعوا لكلامه.

Twitter: @ketab_n

وكانوا يقولون:

ـ «لا فائدة من أن تقول شيئًا إضافيًّا، يا جيتر . هناك مزارعون يأتون إلى فولر كلّ يوم، من جميع أنحاء البلاد، طالبين الشيء نفسه. إنّ عددهم يبلغ المئة. ولكنّا لا نستطيع أن نساعدكم على الإطلاق. ففي العام الماضي أعطينا بعض المزارعين حاجتهم من بزر القطن وسماد الطير ولم نتقاضَ الثمن نقدًا، فلمّا جاء الخريف لم تُنبت الأرض غيرَ شيء قليل من القطن الرديء ما زادت قيمة الرطل منه على سبعة سنتات. وفي مثل هذه الحال لا يكون من المنطق أن تُحرث الأرض وتُزرع. وليس في استطاعتنا أن نغامر أكثر ممّا فعلنا. إنّ علينا جميعًا أن ننتظر حتى يردّ الأغنياء تلك الأموال التي يحبسونها عنا.»

ـ «ولكنْ، كرامةً لله، إنني وأهلي نتضور من الجوع هناك في طريق التبغ. ليس عندنا ما نأكله، وليس عندنا ما نبيعه لنشتري بثمنه الطحين واللحم. إنكم أيّها التجار أغلقتم في وجوهنا باب الدَّيْن منذ أن رحل الكابتن جون، فما الذي نستطيع أن نعمله؟ أنا لا أدري ما سيحدث لي ولأهلي إذا لم يكفّ الأغنياء عن استنزاف دمائنا. لقد استولوا على الأموال كلِّها، وحبسوها في المصارف، فهم لا يُخرجونها منها إلّا إذا قطع الإنسان ذراعيه وقدّمهما إليهم ضمانةً.»

وكانوا قد قالوا له:

ـ «أفضل ما تعمله يا جيتر هو أن ترحل أنت وأسرتك إلى أوغوستا، أو عَبْرَ النهر في كارولينا الجنوبية إلى وادي هورسكريك، حيث توجد مصانع القطن كلِّها، وأن تعمل في واحد من تلك المصانع. تلك هي الطريقة الوحيدة الباقية أمامك. وليس هناك طريقة غيرها.»

وكان جيتر قد أجابهم بقوله:

Twitter: @ketab_n

ـ «لا! وحقِّ الربّ وحقِّ المسيح، لا! هذا شيء لن أعملَه! إنّ الربّ خلق الأرض، ووضعني هنا لكي أزرع القطن فيها. لقد قمتُ بهذا العمل، وقام به أبي من قبلي، في السنوات الخمسين الأخيرة، لأننا لم نُخلَق إلّا لهذا. إنّ مصانع القطن اللعينة جُعلت لتشتغل فيها النساء. وليست محلًّا للرجال يُضيعون فيه أوقاتهم في اللعب بالدواليب الصغيرة والخيوط. وأقسم إنها لَمهنة جهنمية أن يقضي الرجل نهاره في لفّ الخيوط على البكرات. لا! لقد وُضعنا هنا على هذه الأرض التي سينبت فيها القطن، ومن واجبي أن أجعله ينبت. ولن أهدر وقتي في مصانع القطن حتى ولو أعطتني خمسة عشر دولارًا في الأسبوع. سوف أظلّ في أرضي حتى يأتي اليوم الذي أموت فيه.»

ـ «إفعل ما تريده، يا جيتر، ولكن من الأفضل أن تفكّر في الأمر من جديد وتذهب للعمل في مصانع القطن. ذلك ما فعله كلّ الناس تقريبًا في المنطقة المحيطة بفولر. إنّ بعضهم في أوغوستا وبعضهم الآخر في وادي هورسكريك، ولكنهم جميعًا يعملون في مصانع القطن على حدٍّ سواء. وفي استطاعتك أن تكسب أنت وزوجتك، إذا عملتما في تلك المصانع، عشرين أو خمسة وعشرين دولارًا في الأسبوع. إنّ البقاء هنا لا يعود عليكما بشيء. ولسوف تجدان نفسَيْكما مضطرَّين إلى الذهاب إلى ملجأ الفقراء، في وقت قريب، إذا بقيتما هنا وحاولتما زرع القطن.»

وكان جيتر قد قال:

ـ «وعندئذٍ يكون الأغنياء هم الذين أجبرونا على الذهاب إلى هناك. إذا اضطررنا إلى أن نعيش في ملجأ الفقراء فسوف يكون ذلك لأن الأغنياء احتكروا جميع الأموال التي كان من الواجب أن تُوزَّع علينا كلّنا، ولم يطلقوا سَراحها ويعطوني شيئًا من بزر القطن وسماد الطير بالدَّيْن.»

Twitter: @ketab_n

ـ «ليس عندك ذرّة من العقل، يا جيتر. كان يجب أن تدرك، بعد هذه التجارب كلِّها، أنك لا تستطيع أن تزرع الأرض. ينبغي أن تكون رجلًا غنيًّا لكي تستطيع أن تزرع الأرض في هذه الأيام. أمّا الفقير فليس له إلّا أن يشتغل في المصانع.»

ـ «جائز أن لا يكون عندي كثير من العقل، ولكنّي أعرف أني لم أُخلق للعمل في المصانع. لقد وُضعت، منذ ولادتي، على هذه الأرض، وأنا عازمٌ على أن أبقى فيها حتى النهاية.»

ـ «ولكنْ، حتى أولادك كانوا أعقل منك، يا جيتر. إنهم لم يبقوا هنا فريسة للجوع. لقد ذهبوا للعمل في المصانع. خذ ليزي بيلّ، مثلًا...»

ـ «هذا صحيح، ولكنّ ذلك لا يعني أنهم كانوا على صواب، إنّ ذْيُود لم يذهب على الإطلاق. إنه لا يزال هنا. ولسوف يزرع الأرض في يومٍ من الأيام، كما يتحتّم علينا كلِّنا أن نعمل.»

ـ «ذْيُود ليس عنده من الذكاء ما يحمله على الذهاب، ولو كان ذكيًّا مثل سائر أولادك لَما بقي هنا، ولأدرك مقدار الحماقة التي تنطوي عليها محاولة القيام بعمل زراعي في مثل هذه الظروف. إنّ الأغنياء لن يفكّوا عقال أموالهم ويديّنوها للفقراء. إنهم سوف يعضّون عليها بالنواجذ لكي يديروا بها مصانع القطن.»

وتذكّر جيتر كلّ ما قد قيل حول هذا الموضوع، فيما كان جالسًا القرفصاء قرب المدخنة، مستندًا إلى آجرِّها الدافئ، تحت أشعّة شمس شباط في أيامه الأخيرة. لقد سمع الناس في فولر يقولون أشياء من مثل هذه عشرات المرّات، فكانت محاولاته تنتهي دائمًا بمغادرته مخازنهم مخيَّب الآمال. إنّ أحدًا منهم لم يفهم أيّ شعور يستحوذ عليه عندما يحين موسم حراثة الأرض كلّ ربيع.

Twitter: @ketab_n

وعاوده هذا الشعور من جديد. وإنما أحسّ به هذه المرَّة أعمقّ ممّا أحسّ به في أيّما وقت مضى، لأنه كان من دأبه كلّما أراد أن يزرع قطنًا في السنوات الستّ أو السبع الماضيات أن يَحولَ بين خَيبة الأمل وبين سحق روحه بالتطلع إلى سنة قادمة يستطيع فيها أن يزرع الأرض كما يحبّ. ولكنه في هذا العام، استشعر أنه إذا لم يوفّق إلى الحصول على بزر القطن وسماد الطير فلن يكون قادرًا على القيام بمحاولة جديدة أبدًا. لقد أدرك أنْ ليس في استطاعته أن ينتظر إلى ما لا نهاية مَن يُقرضه ما هو في حاجة إليه ثم لا يجد ذلك الشخص في سنة من السنوات، لأنه كان يزداد ضعفًا عامًا بعد عام، ولن يلبث أن يعجز عن السير بين يدي محراثه حتى ولو قُدّر له أن يفوز ببزر القطن وسماد الطير.

وبسببٍ من قنوطه هذا بدت رائحة الخشب والأعشاب المحروقة وبدا عبير الأرض المحروثة من جديد، وكانا يملآن الجوّ في تلك اللحظة، أقوى منهما في أيّ وقت مضى، وأشدّ حرّيفيّة. ففي كلّ مكان كان المزارعون يحرقون الغياض وحقول الرَّتَم ويحرثون التربة في مزارع القطن وفي الأراضي العذراء.

وفي الحق أنّ الحافز الذي كان يحدوه على حراثة الأرض وزرعها قطنًا ثم القعود في الظلّ طَوالَ الأشهر الحارّة مراقِبًا النبات وهو ينبجس وينمو ـ أنّ ذلك الحافز كان أقوى حتى من آلام الجوع التي تعانيها مَعِدَتُه الفارغة. فقد كان في مَيْسوره أن يجلس في هدوء ويحتمل غصص الجوع، ولكنّ العذاب المبرّح الذي ما كان ليعتقد أنّ في طاقته احتماله بضعة أيام أخرى هو أن يمتدّ به العمر إلى زمان يضطرّ فيه إلى أن يقعد، شأنه الآن، ويحدّق كلّ يوم إلى الحقول غير المحروثة، ثم لا يستطيع أن يفعل شيئًا.

Twitter: @ketab_n

- 14 -

ورجع ڈيُود والأخت بيسّي عند غروب الشمس. وكان ڈيُود يقرع الزمّور على مَبْعَدَةِ ميل تقريبًا عندما سمعه جيتر أوّلَ مرّة، فانطلق هو وإيدا إلى الطريق لكي يريا إليهما عائدَيْن إلى المنزل. وطَرِبَ جيتر لصوت الزمّور وأعجبَتْهُ طريقة ڈيُود في قَرْعه. كان يضغط على زرّ الزمّور ثم يرفع إصبعه عنه مرّةً كلّ بِضْع ثوانٍ، كما يفعل سائقو الشاحنات الذين يطلقون صفّارات ماكيناتهم كلّما غادروا مستودع الفحم.

وقال جيتر:

ـ «هذا ڈيُود يقرع الزمّور. إنه يقرعه قرعًا جميلًا، أليس كذلك؟ لقد كان دائمًا يحبّ أن يقرع الزمّور بقدر ما يحبّ أن يسوق سيارة. وكثيرًا ما كان يلعن ويشتم لأنّ زمّور سيارتي ما كان يُطلع أقلَّ صوت. لقد ارتختْ أسلاكُه، ولم أجدْ أيَّ فرصة تمكّنني من تسويتها وشدّها.»

ووقفت إيدا في الطريق تراقب السيارة الجديدة اللمّاعة في طريقها إلى المنزل. لقد بدت، كما قالت، مثلَ مركبة كبيرة سوداء تفرّ من عاصفة هوجاء. وكان الغبار الثائر من خلفها أشبه شيء باقتراب العاصفة.

وقالت:

Twitter: @ketab_n

ـ «أليس هذا أجمل منظر يمكن أن يراه الإنسان؟»

فقال:

ـ «إن دْيُود هو الذي يسوقها، وهو الذي ينقر الزمّور أيضًا. إنه يُطلع صوتًا جميلًا، أليس كذلك يا إيدا؟»

كان جيتر فخورًا بابنه.

وقالت إيدا:

ـ «ليت أولادي كلَّهم كانوا هنا لكي يروها. كانت ليزي بيلّ تحبّ النظر إلى السيارات، والركوب فيها أيضًا، أكثر من أيّ إنسان آخر رأيتُه فيّ حياتي. ومن الجائز أن يكون عندها الآن، هي أيضًا، سيارة. آه، ليتني أعرف!»

وتقدّم دْيُود وبيسّي بسيارتهما، في أناة، وانعطفا نحو الفِناء. وركض جيتر وإيدا في محاذاة السيارة حتى وقفت قرب مدخنة المنزل. وشاهدتْ إللي ماي كلّ شيء من زاوية البيت.

وسأل جيتر الأخت بيسّي وهي تفتح الباب وتترجل من السيارة:

ـ «ما المسافة التي قطعتماها في هذه الرحلة؟ لقد غبتما فترةً ما بعد الظهر بطولها. هل ذهبتما إلى أوغوستا؟»

وأمسكت بيسّي بفضل ردائها وأنشأت تمسح الغبار عن السيارة. وكانت إيدا وإللي ماي قد اندفعتا إلى العمل من جانب العربة الآخر. أمّا الجدّة العجوز فوقفت على مَبْعَدَةِ ثلاثين قدمًا خلف شجرة أَزْدَرَخْت، وراحت تختلس النظر من وراء الجذع إلى السيارة الجديدة. وظلّ دْيُود مكانه، خلف المِقود، ينقر الزمّور.

وقالت بيسّي:

Twitter: @ketab_n

ـ «لقد سِرنا، وسِرنا، حتى وصلنا إلى ماك كوي. إننا لم نتوقف إلّا بعد أن وصلنا إلى هناك.»

فسألها جيتر في انفعال:

ـ «تلك مسافة ثلاثين ميلًا تقريبًا، أليس كذلك؟ هل قطعتما كلَّ هذه المسافة الطويلة ذهابًا وإيابًا؟»

فقال دْيُود:

ـ «ذلك ما فعلناه بالضبط. أنا لم أبتعد عن المنزل هذه المسافة كلَّها في يوم من الأيام. والمنطقة جميلة هناك، أيضًا.»

وسأله جيتر:

ـ «لماذا لم تذهبا إلى أوغوستا؟ لقد هبطتما نحو مفترق الطرق، فقلت في نفسي إنكما قاصدان إلى أوغوستا حتمًا.»

فأجابه دْيُود:

ـ «نحن لم نسلك تلك الطريق. لقد سلكنا الطريق الأخرى ـ في اتجاه ماك كوي، ثم انطلقنا حتى ماك كوي، أيضًا.»

ومضى جيتر إلى مقدمة السيارة، وألقى نظرةً عليها. وترجَّل دْيُود وكفّ عن قرع الزمّور لحظةً قصيرة.

وقال جيتر:

ـ «يا إلَهي، مَن الذي فعل هذا؟»

وأشار إلى المصباح وإلى الرفرف الأمامي الأيمن. وكفّ الجمع كلُّهم عن مسح الغبار وتحلّقوا حول جهاز التبريد. كان الرفرف قد التوى وتجعّد إلى حدٍّ بدا معه وكأنّ امرءًا حملَ مطرقة كبيرة وحاول أن يرى إلى أيّ مدًى

Twitter: @ketab_n

يستطيع أن يسحقه. وكان المصباح الأمامي الأيمن قد اقتُلع، ولم يبق في مكانه غير قطعة من حديد ملتوٍ وجديلة صغيرة من أسلاك معزولة. وكان الرفرف قد غرز في غطاء المحرِّك.

وقال ڈيُود:

ـ «لقد فعلتْ ذلك إحدى العربات. كنا راجعين من ماك كوي، وكنتُ أتأمل في مصفاة كبيرة من مصافي زيت البُطْم عندما شعرت فجأةً أننا اصطدمنا بمؤخَّرة عرَبة ذات حصانين.»

ونظرَتْ بيسّي إلى الرفرف المسحوق والمصباح المفقود، ولكنّها لم تقل شيئًا. وما كان في مَيْسورها، هذه المرَّة، أنْ تُنحِيَ باللائمة على الشيطان بسببٍ من أنها كانت تمتطي هي نفسُها مَتْنَ السيارة عند وقوع الحادث، ولكنْ بدا لها وكأنما كان على الربّ الإلَه أن يُعنى بالسيارة عناية أكبر، وخاصةً بعد أن ركعت وصلّتْ من أجل سلامة السيارة عندما اشترتها ذلك الصباح في فولر.

فتساءل جيتر:

ـ «ولكن هذا لا يؤثر في جريها على الإطلاق، أليس كذلك؟»

فقال ڈيُود:

ـ «إنها تجري وكأنها لا تزال جديدة مئة بالمئة. ولم يُصب الزمّور بأيّ أذًى على الإطلاق. إنه يزمّر تزميرًا جميلًا كما فعل هذا الصباح.»

وكان الرفرف قد حُطِّم تحطيمًا يستعصي على الإصلاح. لقد انقلب فوق غطاء المحرِّك، ولولا الجوانب المثلّمة لَظَنّ المرء أنه قد نُزِع. وفي الظاهر، لم يُصبْ أيُّ شيء آخر، باستثناء المصباح الأمامي، بأذًى ما. فليس

Twitter: @ketab_n

ثَمَّةَ أيُّ انبعاج في جسم العربة، وبدت العجلات مستقيمة على محاورها. بَيْدَ أنّ النابض المكسور جعل جانب المؤخَّرة الأيسر يميل شيئًا قليلًا.

فقال جيتر:

ـ «إنها لا تؤثر فيها على الإطلاق. لا تفكري في ذلك، أيّتها الأخت بيسّي. دعيها كما هي، ولن تلاحظي أيّ فرق بين حالة السيارة الآن وحالتها ساعة اشتريتِها جديدة.»

فقالت بيسّي:

ـ «هذا صحيح. أنا لا أدعها تقلقني مطلقًا، لأنها لم تكن غلطة دُيُود. كان ينظر إلى مصفاة زيت البُطْم الكبيرة القائمة على جانب الطريق، وكذلك كنت أنا، عندما اصطدمنا بالعربة ذات الحصانين. وكان المفروض في سائقها الزنجيّ أن يكون من حسن الفهم بحيث يُفسح لنا الطريق حين سمعَنا نقترب منه.»

فقال جيتر:

ـ «ألم تكن تزمّر، آنذاك، يا دُيُود؟»

ـ «لا، لم أكن أزمّر، لأني كنت أتأمل في تلك المصفاة الكبيرة. أنا لم أرَ مصفاة في مثل ذلك الكبر، من قبل. كانت في حجم مصنع من مصانع الويسكي تقريبًا، ولكنّها لم تكن لمّاعة كتلك المصانع.»

فقالت بيسّي، وقد عاودت مسح الغبار عن السيارة:

ـ «من العار أن تُسحَقَ السيارة الجديدة في مثل هذه السرعة. كانت جديدة تمامًا قبل الظهر، وها نحن الآن ما نزال في فترة المساء الأولى.»

فقال دُيُود:

Twitter: @ketab_n

ـ «كانت غلطة ذلك الزنجيّ. لو لم يكن نائمًا في العربة لَما حصل هذا الحادث مطلقًا. ظلّ يغطّ في نومه حتى أيقظَتْهُ الصدمة وقذفَتْ به في الخندق.»

فسأله جيتر:

ـ «إنه لم يُصَبْ بأذًى كبير، أليس كذلك؟»

فقال دْيُود:

ـ «لست أدري. فحين سُقنا السيارة من جديد، كان لا يزال ملقًى في الخندق. وانقلبت العربة عليه فسحَقَتْهُ. كانت عيناه مفتوحتين طَوالَ الوقت، ولكنّي لم أستطع أن أحمله على أن يقول كلمة واحدة. لقد بدا وكأنه قد مات.»

ـ «الزنوج لا يعدمون وسيلة يقتلون أنفسهم بها. ويبدو وكأنّ من المستحيل وضع حدٍّ لذلك.»

كانت الشمس قد غربت منذ نصف ساعة، وكانت الرطوبة الباردة المألوفة في أيام الربيع الأولى تلفّ الأرض لفًّا. وكانت الجدّة العجوز قد آثرت أن تنقلب إلى المنزل وتضطجع في سريرها. وارتقت إيدا درجات الشرفة وهي تُمِرّ يديها على صدرها التماسًا للدفء. وكذلك دخلت بيسّي إلى المنزل أيضًا.

وظلّ دْيُود وجيتر واقفَيْن حول السيارة حتى غدا الظلام دامسًا إلى درجة جعلت من المتعذّر عليهما رؤية السيارة. وعندئذٍ مضيا هما أيضًا إلى المنزل.

وما هي إلّا فترة حتى أخذ وهج النار المُضرَمة في الأعشاب يُنير السماء، عند الأفق، وملأت رائحة دخان الصنوبر هواء المساء الرطب. كانت

Twitter: @ketab_n

النيران تشتعل في النواحي جميعًا، وكان بعضها قد أُضرم منذ أسبوع أو يزيد، على حين لم يُضرم بعضُها الآخَر إلّا في أصيل ذلك اليوم نفسه.

ففي الربيع كان المزارعون يوقدون النار في أراضيهم كلِّها. لقد قالوا إنّ النار تأكل دودة القطن. بذلك كانوا يعلّلون إحراقهم الغابات والحقول كلّما سألهم امرؤ لماذا لا يُقلعون عن إضرام النار في شُجَيْرات الصنوبر والأدْواح الصالحة لأنْ تُقطَع وتُتَّخذ منها ألواح الخشب. أمّا السبب الحقيقي فهو أنّ الناس جميعًا تعوّدوا أن يحرقوا الغابات والحقول كلَّ ربيع، ولم يجدوا أيَّما داعٍ يحملهم على الإقلاع عن عادات أَلِفوها طَوالَ العمر. لقد بدا ذلك لهم عملًا ضروريًّا مثلَ نثر سماد الطير في حقول القطن رغبةً في اجتناء محصول وافر. ولو أنّ الشجرات التي أُحرقت نُشرت ألواحًا أو اتُّخِذتْ وَقودًا، بدلًا من أن تُحوَّل إلى رماد تذروه الرياح، لكان عندهم شيء يبيعونه. ولم تكن النيران لِتقتلَ ديدان القطن في أعداد كبيرة، ومن هنا كان من الضروري أن تُرَشّ نباتات القطن بالسمّ، في أشهر الصيف، على أية حال. ولكنّ كلًّا منهم تعوّد أن يُضرم النار في الأرض كلّما أطلّ الربيع، فهم يقيمون على ذلك ولو لمجرّد أنّ آباءهم فعلوه من قبلهم. وكان جيتر يحرق أرضه دائمًا، على الرغم من أنه لم يكن ثَمَّةَ سبب يدعوه إلى ذلك، على الإطلاق. فهو لم يزرع القطن من سنوات عديدة. وهذا ما جعل الأرض عارية من كلّ شيء، ما خلا الرَّتَم والسنديان الأسود. فالرَّتَم كان ينمو كلَّ عام من جديد، ولم يكن في وُسْع أكثر النيران اتقادًا أن تسيء إلى تلك البلّوطات الخشنة الدانية.

وفي داخل البيت اجتمعت النسوة في حجرة النوم، وَسْط الظلام، ورحن ينتظرن جيتر وذيُود. وكانت الجدّة العجوز قد آوت إلى فراشها، وغطّت جسدها باللحاف الممزّق البالي. وكانت إللي ماي قد قصدت إلى غَيْضَةِ الرَّتَم ولمّا تعد. أمّا بيسّي وإيدا فقعدت كلّ منهما في فراشها تنتظر.

Twitter: @ketab_n

وكانت السُّرر الثلاثة تضمّ دائمًا أفراد أسرة ليستر كلَّهم، حتى في تلك الفترات التي انتظم البيت خلالها ثمانية نفرٍ منهم أو تسعة نفر. وأحيانًا كان بعضهم ينام في فُرشٍ تُمَدُّ على الأرض أيام الصيف، أمّا في الشتاء فكان النوم في السُّرر أدعى إلى الدفء، ومن هنا كان القوم كلُّهم يؤثرون أن يحشروا أنفسهم ويناموا فيها. والآن، وقد غادر المنزل أبناء جيتر جميعًا، ما عدا دْيُود وإللي ماي، فقد صارت السُّرُر تتسع لكلّ فرد منهم. وكان لبيسّي منزل خاص بها، منزل ذو ثلاث غرف، قائم على الكثيب الأخير، قرب النهر. ولكنّ السقف كان متهرئًا، وكانت ألواحه الخشبية قد اقتلعتها الرياح، فلا يكاد المطر يهطل حتى يُنقع كلّ ما في الغرف بماء السماء.

وفي بعض الأحيان، حين كانت الريح تعصف فُجاءةً عند منتصف الليل، كانت بيسّي تستيقظ لتجد الفراش حافلًا بالماء، ولتجد كلّ قطعة من ثيابها نديّة مبلّلة. وقد انصبّ مقدار من الماء جديد من خلال السقف وكانت قد أخبرت إيدا أنها لا تريد البقاء هناك بعد اليوم إلى أن يصبح في مَيْسورها إصلاح السقف. وكان البناء والأرض المحيطة به ملكًا للكابتن جون هارمون. ولكنه كان قد أقلع عن المجيء إلى طريق التبغ وامتنع عن إجراء أيّ إصلاح في الأبنية. لقد قال لجيتر وبيسّي، ولكلّ مَن كان يعيش في ذلك المكان، إنّ في استطاعتهم أن يمكثوا في تلك البيوت حتى تتداعى إلى السقوط، وإنه لن يتقاضى منهم على ذلك أجرًا ما. ولقد فهموا الوضع جيّدًا. فما كان الكابتن يعتزم أن يُجريَ أيّ إصلاح في السقوف والشرفات، والأسس المتهرّئة، وكلّ ما يتصل بالأبنية. وكان قد قال لهم إنه إذا سقطت البيوت على رؤوسهم فسوف يكون ذلك من سوء حظهم، أمّا إذا ظلّت قائمة فعندئذٍ يستطيع جيتر وبيسّي وسائر الجماعة أن يبقوا فيها ما أحبوا البقاء.

وانقلب جيتر ودْيُود إلى المنزل، متعثّرين في الظلمة. كان في البيت مصباح، ولكنّ جيتر لم يشترِ شيئًا من الكيروسين طَوالَ ذلك الشتاء. وكان

Twitter: @ketab_n

آل ليستر يأوون إلى فُرشهم حالما تسقط العتمة، إلّا في شهور الصيف عندما كان الحرّ يدفعهم إلى القعود على الشرفة. وكانوا يُفيقون مع مطلع الفجر. ومن هنا لم يكونوا في حاجة إلى الكيروسين على أية حال.

وقعد جيتر على سريره قرب إيدا، ونزع حذاءه الضخم الثقيل. ووقع الحذاء على أرض الغرفة وكأنه آجرٌّ يسقط من ارتفاع متر.

وقالت بيسّي:

ـ «لقد وقفنا عند كلّ بيت مررنا به، وفي كلّ مرّة كنا نترجل من السيارة ونقوم بزيارة صغيرة. كان بعضهم في حاجة إلى صلاة، وكان بعضهم غير محتاج إليها. ولم نجد في ذلك أيَّ بأس، لأنني كنت أنا ودْيُود شديدي الرغبة في الطواف بالسيارة. وأحبَّ بعضهم أن يعرف من أين جئتُ بالمال الكافي لشراء سيارة جديدة مئة بالمئة، ولماذا تزوجت دْيُود. فأخبرتُهم كلّ شيء. أخبرتُهم أنّ زوجي السابق ترك لي ثمانمئة دولار، وقلت إنني تزوجت دْيُود لأني أريد أن أجعل منه مبشِّرًا. ولم يكن ذلك طبعًا غير واحد من الأسباب التي تزوجته من أجلها، ولكنّي أدركت أني إذا قلتُ لهم ذلك فلن يسألوني مزيدًا من الشرح.»

فسألها جيتر:

ـ «ألم يقل أحدٌ شيئًا ضدَّكِ، أيّتها الأخت بيسّي؟ إنّ لبعض الناس طريقة في الحديث عن أمثالنا من الفقراء.»

ـ «أجل، لقد قال بعضهم شيئًا عن زواجي من دْيُود. لقد قالوا إنه أصغر من أن يتزوج امرأة في مثل سني، ولكنهم ما كادوا يتحدثون على هذه الطريقة حتى ركبنا سيارتنا الجديدة.وانطلقنا بها. لقد قال بعضهم إنّ من الإثم والعار أن آخذ أموال زوجي السابق وأشتري بها سيارة جديدة وأتزوج غلامًا صغيرًا

Twitter: @ketab_n

مثلَ دْيُود، غير أننا كنا نركب السيارة حالما يبدأون ذلك الحديث. أليس كذلك يا دْيُود؟»

ولم يُجب دْيُود بكلمة.

وقال جيتر:

ـ «أحسب أنّ دْيُود قد نام. لقد تعب كثيرًا اليوم، بعد أن ساق تلك السيارة إلى ماك كوي ذهابًا وإيابًا.»

واستوت إيدا قاعدة في السرير، وقالت مغضبةً:

ـ «إخلع هذه الوِزرة يا جيتر. أنا لم أرَ مثلها من قبل. وأنت تعرف جيّدًا أنني لن أسمح لك بأن تنام في السرير وأنت لابس بنطلونًا وَسخًا مثلَ هذا. ويظهر أنه يجب عليّ أن أعيد ذلك عليك كلّ يوم تقريبًا. إنّ ثيابك هذه توسّخ السرير كلَّه. ويجب أن تعرف أنني لن أحتمل هذا بعد اليوم.»

فقال جيتر:

ـ «الجوّ بارد في هذه الليلة أيضًا. وأنا أبرد إذا نمتُ بعد خلْع ملابسي هذه. ويظهر أني صرت لا أستطيع أن أعمل ما يعجبني بعد اليوم. إنّ النوم في الوِزرة لن يوسّخ شيئًا على كلّ حال.»

ـ «أنا لا أعرف إنسانًا غيرك يحبّ أن ينام والـوِزرةُ على جسمه. أنت الرجل الوحيد الذي يرغب في ذلك.»

ولـم يجبها جيتر. لقد نهض من فراشه، وخلع وِزْرَتَـه، وعلّقها على طرف السرير. حتى إذا اندسّ تحت اللحاف كان يرتجف من شدّة البرد.

Twitter: @ketab_n

وفي الجانب الآخر من الغرفة كان في إمكانهم أن يسمعوا بيسّي وهي تمشي مرتديةً جواربَها، وقد استعدّت للنوم. ولم تكن قد خلعت حذاءها إلّا بعد أن أتمّت نزع ملابسها.

ورفع جيتر رأسه من تحت الغطاء وحاول أن يرى إلى ما حوله وسط ظلام الغرفة.

وقال:

ـ «تعرفين يا بيسّي، يُخيَّل إليّ وكأنّ نوم إحدى المبشِّرات في منزلي يجعلني أستعيد ذلك النشاط الذي كان لي قبل أن أفقد صحّتي. وأنا أحسّ بشعور رائع كلّما فكّرْتُ في أنكِ ستبقين معنا هنا.»

فقالت:

ـ «صحيح أني مبشِّرة، ولكنّي لا أختلف مطلقًا، من سائر النواحي، عن جميع النساء. أنت تعرف هذا، يا جيتر، أليس كذلك؟»

فرفع جيتر نفسه على مِرفقه، وأجهد عينيه لكي يرى من خلال العتمة إلى أقصى الغرفة. ثم قال:

ـ «آمل أن لا تفارقينا في وقتٍ قريب. وإني سوف أكون سعيدًا جدًّا بأن تنامي هنا دائمًا، يا بيسّي.»

وأقحمت إيدا مِرفقها في أضلاعه، بأقصى ما استطاعت من قوة، فسقط على السرير ـ إلى جانبها ـ وهو يئنّ من الألم.

وسُمِعت بيسّي وهي تأوي إلى السرير. لقد خشخش الفراش المصنوع من ورق الذرة الخارجيّ المجفّف، وصرّت الألواح الخشبية الموَصَّلة فيما كانت تضطجع وتمدّ قدميها. وظلّت بيسّي ساكنة بِضْع دقائق، ثم شرعت تبسط يديها نحو الجانب الآخر، فضاعفت وطأتهما صريرَ الألواح الخشبية.

Twitter: @ketab_n

وفجأةً استوت قاعدةً في السرير، ودفعت اللحاف جانبًا. وتساءلت مغضبةً، في صوتٍ خشن غير طبيعيّ:

ـ «أين دْيُود؟ أين أنت يا دْيُود؟»

وران على الغرفة صمت عميق. كانت إيدا قد استوت قاعدةً، وكان جيتر قد وثب فجلس على جانب السرير. وخشخش فراش بيسّي المحشوّ بورق الذرة خشخشةً إضافيّة، ثم كان من المَيْسور أن يُسمع خَبْطُ قدمَيْها الحافيتين على أرض الغرفة الصنوبريّة في أرجاء المنزل كلّه. وظلّ جيتر معتصمًا بالسكون فلم يحاول أن يتكلم أو يتحرك. لقد تربّص لكي يسترق كلّ صوت ينبعث في البيت.

وصاحت بيسّي من وسط الغرفة محاولةً أن تتلمّس طريقها من سرير إلى سرير:

ـ «دْيُـود!... إيه، دْيُود! أين أنت يا دْيُود؟ ـ لماذا لا تردّ عليّ؟ من الأفضل لك أن لا تحاول الاختباء، يا دْيُود!»

فقال جيتر:

ـ «ما بالكِ يا بيسّي؟»

ـ «دْيُود ليس في السرير. أنا لا أجده في أيّ مكان.»

وبسط جيتر يده نحو وِزْرَتِه، ووثب واقفًا على قدميْه، وراح يبحث في جيوبه عن عود ثقاب. وأخيرًا وجد عودًا، وانحنى، فحكّه بالأرض.

وأيقظ وهج الكبريتة كلّ من في الغرفة. كانوا جميعًا هناك، ما عدا إللي ماي ودْيُود. وكانت بيسّي على مَبْعَدَةِ بضعة أقدام من جيتر، الذي حاول جهده أن ينظر إليها. وكانت هي تقي وجهها من وهج الضوء.

Twitter: @ketab_n

وانسلّت إيدا من الفراش، ووقفت خلف جيتر حالما وقعت عينها على بيسّي.

وأصدرت أمرها إلى جيتر:

ـ «إلبسْ ثيابك. أنا لا أعلم ما الذي تريدان أن تفعلاه، أنت وهي، ولكنّي أراقبُكما. البسْ ثيابك في هذه اللحظة. وليس كوْنها مبشِّرةً يشكِّل سببًا كافيًا يجعلها تقف أمامك على أرض الغرفة هكذا.»

وتردّد جيتر، وكاد عود الثقاب يحرق أصابعه. ثم إنه سارع إلى ارتداء ثيابه وراح يبحث في جيبه عن عود ثقاب جديد.

كانت بيسّي لا تزال واقفة إلى جانب جيتر، ولكنه ما إن حكّ عود الثقاب بالأرض حتى انطلقت إلى سرير الجدّة العجوز. ورفعت الغطاء، فإذا بها تجد دْيُود غارقًا في نوم عميق. كانت الجدّة العجوز مستيقظة، وقد تمدّدت مرتجفة الأوصال في ثيابها العتيقة الممزقة السوداء.

وهزّ جيتر ابنه هزًّا أيقظه من رقاده وطرحه أرضًا. ووكزَتْه إيدا بذراعها.

وسأله جيتر وقد أمسك بخناقه وأنشأ يهزّه هزًّا عنيفًا:

ـ «ماذا تقصد بعدم النوم مع بيسّي في السرير؟»

وأجال دْيُود بصره في ما حوله مضيّقًا عينيه. لقد كان غيرَ قادرٍ على أن يرى شيئًا في وهج عود الثقاب.

وتساءل وهو يفرك عينيه:

ـ «ماذا تريدون؟»

فقالت الأخت بيسّي في رقّة:

Twitter: @ketab_n

ـ «مسكين ذيُود، إنه لم يعرف في أيّ سرير يجب أن ينام. لقد بلغ به التعب والنعاس حدًّا جعله لا يكلّف نفسه عناء البحث عن السرير الذي سننام فيه، أليس كذلك يا ذيُود؟»

فقال جيتر:

ـ «ذيُود، ما هكذا يفعل الناس. يجب أن تُبقيَ عينيك مفتوحتين عندما تتزوج. إنّ بيسّي أصبحت عصبيّة جدًّا حين لم تجدْكَ في السرير.»

وانقلبت إيدا إلى سريرها، وتَبِعها جيتر. إنه لم ينزع ثيابه عن جسده؛ واستسلمت إيدا للرقاد من غير أن تفكّر فيها.

ودخلت إللي ماي الحجرة بعد لحظة، ومضت لتنام إلى جانب جدّتها. ولم يقلْ لها أحد شيئًا.

وكانت الجدّة العجوز يَقِظةً طَوالَ هذه الفترة، ولكنّ أحدًا لم يوجّه إليها أيّ كلمة، ولم تحاول هي أن تقول لبيسّي إنّ ذيُود كان راقدًا في سريرها. فما كان أيّ فرد من أفراد الأسرة لِيكلِّمَها إلّا إذا أراد أن يقول لها أن تزيح من الطريق، أو أن تكفّ عن أكل الخبز واللحم.

ومضى ذيُود وبيسّي إلى فراشهما واضطجعا عليه. وحاوَلَت الأخت بيسّي أن تتحدث إلى ذيُود، ولكنّ ذيُود كان مُتعبًا ناعسًا. فلم يُجِبْها بكلمة. وظلّ الفراش المحشوّ بأوراق الذرة اليابسة، يخشخش معظمَ ساعات الليل.

Twitter: @ketab_n

- 15 -

كرع جيتر كأسه الثالثة من نقيع الهندباء، وتنحنح. وكان دْيُود قد غادر المطبخ، قبل ذلك، ومضى إلى الفِناء، بينا كانت الأخت بيسّي واقفة على السقيفة الخلفيّة تمشّط شعرها. وهبط جيتر الدرجات الخلفيّة واستند إلى البئر، ثم قال:

ـ «في استطاعتي أن أقوم بصفقة حسنة جدًّا إذا نقلتُ حملًا من الحطب إلى أوغوستا، اليوم. إنّ عندي، أنا ودْيُود، كومةً ضخمة منه تنتظر من يَنقلها. والآن، لو وضعنا هذا الحطب في السيارة الجديدة فلن نحتاج إلى وقت طويل حتى ننقله إلى المدينة، أليس كذلك يا بيسّي؟»

وأنجزت تسريح شعرها، وغرزت فيه نصفَ دزينة من الدبابيس ومشْطَها المرصّع بالماس الزائف المعروف بجواهر الراين، ثم تقدّمت مع جيتر نحو السيارة.

وقالت:

ـ «من الجائز أن تتّسع لحمل. ومع ذلك، فليس هناك فسحة كبيرة في المقعد الخلفيّ.»

Twitter: @ketab_n

ـ «إنّ سيارتي تتّسع لحمل كامل. وهي ليست أكبر من هذه. كلتا السيارتين من نوع واحد. الفرق الوحيد بينهما هو أنّ سيارتكِ تكاد تكون، الآن، جديدة تمامًا.»

وأدار دْيُود محرِّك السيارة، فهدر هديرًا معجِبًا كاملًا. كان التوتر الذي أزعج دْيُود، أمسِ، قد زال الآن، وكان المحرِّك يدور في سلاسة. ونَقَرَ الزمّورَ عدَّة مرّات مبتسمًا لجيتر.

وقالت بيسّي:

ـ «يبدو لي أني أحبّ أن أقوم برحلة حتى أوغوستا. لقد كنتُ أنا ودْيُود ذاهبَيْن البارحةَ إلى هناك قبل أن نغيِّر رأيَنا ونقصِدَ إلى ماك كوي.»

فقال جيتر:

ـ «لن نحتاج إلى وقتٍ طويل حتى نضعَ حملًا من الحطب في القسم الخلفي. وفي استطاعتنا أن نسافر بعد فترة قصيرة جدًّا. دْيُود، سُقِ السيارة عَبْرَ ذلك الحقل حتى تصلَ بنا إلى كومة الحطب التي قطعناها في الأسبوع الماضي، ولسوف آتي ببعض أسلاك البالات لأربط الحمل ربطًا شديدًا فلا يقع.

وامتطت بيسّي السيارة إلى جانب دْيُود، وانطلقا نحو غَيْضَة السنديان الأسود، عَبْرَ حقل القطن القديم. وكان الرَّتَم البالغ طولُه أربعة أقدام قد غطى صفحة الحقل في السنوات القليلة الماضية. لقد كان ذلك الحقل، في يومٍ مضى، أجمل بقعة من بقاع طريق التبغ في المنطقة كلّها.

وكانت أثلام المحصول الأخير لا تزال قائمة هناك. وفيما كانت السيارة تأخذ نصيبها من السرعة شيئًا بعد شيء، كانت وثباتها في تلك الأرض الوعرة لا تني ترفع دْيُود وبيسّي وتخفضهما على حين غرّة وفي

Twitter: @ketab_n

تعاقب كثير حتى لقد تعذّر عليهما الاحتفاظ بمقعديهما. وأمسك دْيُود بمقود السيارة، في شِدّة وإحكام، وقاوم تلك الخضّات أكثر ممّا استطاعت بيسّي أن تفعل. كانت بيسّي تقفز كالكرة فيما كانت السيارة تنطلق من ثَلْم إلى ثَلْم، في حقل القطن القديم، فيرتطم رأسُها بغطاء السيارة عند كلّ صدمة. وكانا قد اجتازا ربع ميلٍ تقريبًا، وكادا يبلغان حافة الغيضة حيث كانت كومة السنديان الأسود، عندما سُمع صوت كسرٍ مدوٍّ توقَّفَتْ معه السيارة عن الحركة توقفًا تامًّا.

وقُذِف بديود فوق مِقود السيارة، ودُفعت بيسّي إلى أمام فارتطم رأسُها بالحاجز الواقي من الريح والمطر. وحيث أصابت جبهتها الزجاج انتشرت شقوق تبلغ المئة أو تزيد، وتفرّعت مثل نسيج عنكبوت رطب في وضح النهار. ومع ذلك فقد ظلّ الزجاج متماسكًا لم يتناثر، وظلّ الحجاب الواقي سليمًا. ولم تدرِ بيسّي ما الذي حدث.

وصاحت وهي تنهض من على أرض السيارة حيث طرحتْها الصدمة:

ـ «ليكن المجد لله. ما الذي فعلناه هذه المرَّة يا دْيُود؟»

فقال دْيُود:

ـ «أظنّ أننا اصطدمنا بساق شجرة منقصف. لقد نسيت كلّ شيء عن هذه الجذوع الميْتة في هذا المكان. أنا لم أستطع أن أرى شيئًا على الإطلاق وسط الرَّتَم. إنه يغطّي كلّ شيء فوق هذه الأرض.»

وترجّلا من السيارة وهرعا إلى مقدّمتها. كان جذع شجرة يابس يبلغ طوله قدمين هو الذي عاقهما عن المسير.

كانت أرومة الصنوبر الضاربة إلى السواد، المحجوبة عن النظر بجدار الرَّتَم البالغ طولُه أربعة أقدام، قائمةً تجاه المِحور تمامًا. وكان الفساد قد دبّ

Twitter: @ketab_n

فيها بعض الشيء، ولولا قلبها المتماسك لكان في وُسْع السيارة أن تسحقها وتتابع سبيلها من غير ما انزعاج. ولم يُصَب المِحور بالتواء كبير. والواقع أنّ السيارة كانت تمضي بسرعة خمسة عشر ميلًا في الساعة فحسب، ولم يكن ثَمَّةَ قوة كافية لإصابة المِحور بعُطب خطير. لقد دُفعت الدواليب بضعة إنشات إلى الأمام، ولكن لم يكن هناك في ما عدا ذلك، ما يدعو إلى القلق. كانت السيارة لا تزال جيّدة وكأنها جديدة تقريبًا.

وفي تلك اللحظة بالذات أقبل جيتر ويداه وذراعاه مليئة بأسلاك الحديد الصدئة التي وجدها خلف عنبر الذرة.

وما كانا في حاجة إلى أن ينبئاه بالذي حدث، لأنه كان في استطاعته أن يرى، مثلهما، أنّ المِحور الأماميّ قد صدم أرومة الصنوبر، وأنّ العجلات تقدّمت إلى الأمام بضعَ بوصات.

وقال:

ـ «لا يبدو أنها أصيبت بأذًى كبير. ولعلّها لم تُصَبْ بأذًى على الإطلاق. يجب علينا أن ننقل حملًا من الحطب إلى أوغوستا اليوم، لأنه لم يبق في المنزل لا طحين ولا هندباء.»

وراقبت بيسّي ذْيُود وهو يدير المحرِّك ويبتعد عن أرومة الصنوبر متراجعًا إلى الوراء. ثم إنه دار من حولها وقاد السيارة في احتراس بقيّةَ الباردات القليلة التي كانت تفصله عن رُكام السنديان الأسود. وشرع جيتر يجمع قطع الحطب ويُلقي بها، وكأنها الحراب الخشبية التي يلعب بها الرياضيون، في المقعد الخلفي من السيارة.

وقال ذْيُود:

Twitter: @ketab_n

ـ «أظنّ أنّ علينا أن نُنزل غطاء السيارة. فهي لن تتسع لكثيرٍ من الحطب إذا تركنا الغطاء هكذا.»

وراح يحلّ البراغي التي تشدّ الغطاء إلى الحجاب الواقي من الريح والمطر، بينا كان جيتر وبيسّي يواصلان إلقاء الحطب على المقعد الخلفيّ.

وقال جيتر:

ـ «لن يكون هناك متّسَعٌ يمكِّننا من أن نأخذ إيدا معنا، أيضًا، أليس كذلك؟ ولسوف تستاء كثيرًا عندما ترانا ننطلق بالسيارة نحو أوغوستا من غير أن نقف ونصطحبها. ففي المرَّة الأخيرة التي ذهبتُ فيها، أنا ودْيُود، بسيارتي إلى هناك كاد أن يغمى عليها هي وإللي ماي، ولكنّ ذلك لم يُفِدْهما شيئًا، لأنّا كنا في حاجة إلى أن نملأ السيارة كلَّها بالحطب.»

فقالت بيسّي:

ـ «حسنًا، أنا لا أعتزم البقاء في البيت. سوف أذهب كما سيذهب غيري. ليس في استطاعتكما أن تُبقياني هنا.»

فقال دْيُود:

ـ «أنا ذاهب. ليس هناك مَن يستطيع أن يُبقِيَني هنا. أنا الذي سوف أسوق.»

وكان قد ردّ غطاء السيارة إلى وراء، وحاول أن يثبّته في وضعه ذاك. وكان قد طوى القسم الأعظم منه، ولكنّ جزءًا منه ظلّ متدلّيًا حتى المِحور الخلفي. لقد عجز عن أن يهتديَ إلى وسيلةٍ تبْقيه مَطويًّا، وهكذا تركه يتدلّى إلى وراء.

فقال جيتر:

Twitter: @ketab_n

ـ «أنا لن أدع هذه الرحلة تفوتني طبعًا. إنه حطبي أريد أن أبيعه. سوف أكون أوّل من يذهب.»

وكان حطب السنديان قد اقتُطع على أطوال متفاوتة في الأسبوع الماضي عندما قضى جيتر وذيُود نهارًا كاملًا في الغيضة وهما يجمعان حملًا من الحطب استعدادًا لبيْعه. كان طُولُ بعضه قدمًا، ولكنّ طُولَ بعضه الآخر كان يتراوح ما بين ثلاثة أقدام وستة أقدام. والحقّ أنّ الطول الذي اقتُطعت عليه كان طُولَ الأشجار الضعيفة النموّ بعد أن تعمل الفأس في جذوعها على غير هدى. فما تكاد إحدى تلك الشجرات تُقتطَع حتى يجرّدها جيتر من أغصانها، وعندئذٍ تصبح وقودًا جاهزًا للنقل. ولم يرتفع ذلك السنديان الأسود، في يومٍ من الأيام، إلى أعلى من قامة الإنسان. فقد كان نوعًا من البلّوط قزمًا يَصطنع عصارته الحيوية في تقسية الألياف بدلًا من أن ينمِّيَ بها طبقات جديدة، ويوسّع الطبقات القديمة كما تفعل سائر الأشجار. وكانت أعواد السنديان ضامرة يتراوح قطر كلٍّ منها ما بين بوصتين أو ثلاث بوصات، وكانت شائكة خشنة مثل قِطع الأسلاك الثقيلة، أو أنابيب المياه الحديدية الصغيرة.

وسلخا نصف ساعة تقريبًا في تعبئة المقعد الخلفيّ بالحطب. وبعد ذلك شرع جيتر يشدّ الحمل، بأسلاك البالات، إلى جسم السيارة لكي لا يقع شيء منه في بعض الطريق إلى أوغوستا. وكانت أطراف السنديان الأسود مُنْشَبةً في كلّ ناحية، ناتئةً بضعة أقدام من جانب، ومن وراء أيضًا. وكان بعض الحطب قد أُلقي فوق المقاعد المنجَّدة تمامًا فكان هذا القسم وحده، في ما يبدو، غير محتاج إلى ربط. وكانت أسلاك البالات الصدئة تنقطع كلّما حاول جيتر أن يشدّها إلى أيدي الأبواب، فكان يتوقف ويصل ما بين طرفي السلك فاتلًا إياهما حتى يتماسكا. واستغرق نقل الحطب إلى السيارة وشدّه

Twitter: @ketab_n

بالأسلاك نحوًا من ساعتين، ومع ذلك فقد كانت عدَّة قطع من الحطب تسقط على الأرض حين يمسّ واحدٌ منهم السيارة، أو يتكئ عليها.

حتى إذا تمّ ذلك كلُّه ارتدّ ڤيُود بسيارته المُثقلة، عَبْرَ الحقل، متجهًا نحو المنزل، مصطنعًا سرعةً لا تعدو سرعةَ السائر على قدميه. ومع ذلك فقد أصرّ الحطب على أن يتساقط من هنا وهناك. ومشى جيتر وبيسّي خلف السيارة، وأخذا يلتقطان ما وقع من الحطب ويحملانه إلى البيت.

وكانت إيدا وإللي ماي في الفِناء عندما انتهوا إلى هناك. وانتظرت الجدّة العجوز خلف شجرة أَزْدَرَخْت لترى ما الذي سوف يعملونه. ووقفت إيدا أمام السيارة مباشرةً، مرتقبةً أن تعرف في أيّ مكان سوف تقعد. ومضت الجدّة إلى زاوية البيت ووقفت هناك، وقد احتجبت كلُّها عن النظر ما عدا وجهها.

وقالت إيدا:

ـ «أين سأجلس وأركب؟ أنا لا أرى أيّ محلّ يستطيع أن يجلس فيه الإنسان بعد أن ملأتم السيارة بهذا الحطب كلِّه.»

وانتظر جيتر بِضْعَ دقائق راجيًا أن تتولى بيسّي الجواب عن سؤال إيدا. حتى إذا اعتصمت بالصمت امتطى مَتْنَ السيارة إلى جانب ڤيُود، وقال:

ـ «لم يبقَ لكِ مكان.»

ـ «لماذا لم يبقَ لي مكان ما دام هناك محلّ لكَ ولڤيُود ولتلك الساقطة؟»

فقال جيتر:

ـ «الأخت بيسّي ليست ساقطة. لا، ليست كذلك على الإطلاق. إنها مبشِّرة.»

Twitter: @ketab_n

ـ «كونها مبشِّرة لا ينفي أنها ساقطة. إنّ ذلك يساعدها على أن تكون ساقطة كبيرة. وهي لا تتصرف هذا التصرف إلّا لأنها ساقطة كبيرة عجوز.»

فقال جيتر:

ـ «ما الذي يجعلكِ تقولين ذلك عن بيسّي؟»

ـ «الليلة البارحة كانت تذرع الغرفة وليس عليها شيء من ثيابها. ولو لم أجبرك على أن تلبس وِزْرَتَك عندما فعلتُ ذلك، لَما كان في استطاعتي أن أحزر أيّ شيء يمكن أن تعمله. إنها امرأة ساقطة.»

فقال جيتر:

ـ «كفى، يا إيدا. يجب أن لا تتحدثي هكذا عن بيسّي. إنها مبشِّرة، وفوق ذلك فهي زوجة دْيُود أيضًا.»

ـ «هذا لا يغيّر شيئًا من الحقيقة. إنها ساقطة، على كلّ حال. فهي تضيع وقتها كلَّه حائمة حول الرجال. وهي لا تبقى في بيتها أبدًا لتنظّفه كما يجب عليّ أنا أن أفعل. إنها تحوم حول الرجال لأنها امرأة ساقطة. وحين تذهب للتبشير تجدها لا تعظ إلّا الرجال ولا تلتفت إلى النساء على الإطلاق.»

ـ «ليس عندي ما أقوله ضدّ الأخت بيسّي. إنها مبشِّرة، وهي لا تفعل إلّا ما يوحيه إليها الربّ. إنه هو الذي يوجّه خُطاها.»

فقالت بيسّي لجيتر:

ـ «إيدا مغتاظة لأني تزوجت دْيُود ولأني جئتُ لأسكنَ معكم. إنّ إقامتي معكم في الغرفة لا تعجبها.»

فقال جيتر:

Twitter: @ketab_n

ـ «إخرسي الآن، يا إيدا، واتركينا نذهب. يجب أن أبيع هذا الحمل اليوم، في أوغوستا.»

وأدار دْيُود المحرِّك، وامتطت بيسّي السيارة فجلست على حافة المقعد إلى جانب جيتر. وفي صعوبة بالغة اتسع المكان لثلاثتهم جميعًا.

واندفعت إيدا نحوهم، محاوِلةً أن تثب على عتبة السيارة، ولكنّ دْيُود ضاعف سرعة السيارة فلم تستطع اللحاق بها. حتى إذا عطف المِقودَ فجأة، لكي يغادر الفِناء في اتجاه طريق التبغ، كاد الدولاب الخلفيّ أن يدهس قدمَي إيدا. وصاحت إيدا خلفهم، ولكنّ السيارة كانت قد انطلقت آنذاك في سرعةٍ جعلت محاولة اللحاق بهم ومنْعهم من السير ضربًا من العبث. فانقلبت إلى الفِناء ووقفت هي وإللي ماي تشاهدان سحابةَ الغبار التي حجبت السيارة عن الأبصار. وأقبلت الجدّة العجوز من خلف زاوية البيت، وإذْ تناولت كيس الخيش العتيق مضت في اتجاه الغابة التماسًا للأغصان الميتة. كان الجوع قد عضّها من جديد، على الرغم من أنها شربت كأسًا من نقيع الهندباء منذ ساعتين أو ثلاث ليس غير.

وخفّف دْيُود السرعة عندما اقتربوا من مفرق الطرق حيث كان عليهم أن يغادروا طريق التبغ ليسلكوا الجادّة العامة إلى أوغوستا. بَيْدَ أنه لم يخفّف السرعة تخفيفًا كافيًا، وهكذا أمالت قوةُ التباعد عن المركز حِمْلَ الحطب إلى جانب، فسقطت ذروة الحمل كلُّها على الطريق...

وقضى جيتر ودْيُود نصف ساعة في إعادة الحطب المتساقط إلى مكانه. وبعد أن ساعدَتْهما بيسّي مساعدة طفيفة هي كلّ ما كانت قادرة عليه، صار في مَيْسورهما أن يشدّا الحمل إلى السيارة كَرَّةً أخرى. واجتاز جيتر الحقل إلى كوخٍ من أكواخ الزنوج واستعار حبلين من حبال المحاريث. حتى إذا رجع طرَحهما فوق الحطب وربط أطرافهما ربطًا محكمًا. ثم قال:

Twitter: @ketab_n

ـ «أظنّ أنّ هذا السنديان الأسود اللعين لن يسقط بعد الآن. ليس هناك شيء في العالم مثل حبال المحاريث، وأسلاك البالات. وإذا استطعنا أن نجمع الاثنين معًا كان ذلك خير ما نعمل به الأشياء. أعطني قليلًا من كلّ نوع تجدني قادرًا على القيام بجميع الأعمال على اختلافها.»

وانطلقوا من جديد، هابطين الجادّة العريضة نحو أوغوستا، في سرعة. كانت المدينة قد أصبحت الآن على بُعد اثني عشر ميلًا ليس غير.

وكان دُيُود سائقًا صالحًا من غير شكّ. كان يتخذ جانب الطريق الأيمن، في الوقت المناسب تمامًا، كلّما التقى سيارة أخرى. ومرّتين أو ثلاث مرّات فقط كان على وشك أن يشقّ طريقه إلى جوف بعض السيارات الأخرى. وكان شديد الانهماك في قرع الزمّور حتى لقد نسيَ أن يسوق السيارة إلى الجانب الأيمن من الطريق طَوالَ الرحلة. وكانت معظم السيارات التي التقوا بها تُفسح لهم سبيلَ المرور حين تسمع صوت زمّور دُيُود.

ولم يكن في وُسْع جيتر أن يتكلم لأنه كان منقطع النَّفَس معظمَ الوقت. لقد أوقعت سرعة السيارة ذعرًا شديدًا في فؤاده فهو لا يستطيع أن يجيب عن أسئلة بيسّي. وكانت تتطلع إلى الأمام، معظمَ الوقت، مقطِّبَةَ الجبين، فخورةً بسيارتها راجيةً أن يعرف الزنوج والمزارعون الذين رأوهم في الحقول القائمة على جانبي الطريق أنها ملكٌ لها وليست ملكًا لجيتر أو دُيُود.

وفي ما بين الظهر والساعة الواحدة بلغوا منتصف الطريق. كانت أوغوستا قد غدت الآن على بعد سبعة أميال أو أكثر قليلًا، ليس غير. ولَسوف يكون في مَيْسورهم، حين يبلغون قمة الكثيب الأخير، أن يروا إلى المدينة تحتهم، في الوادي، إلى جانب النهر الكبير الموحل.

وكانت التلة الأخيرة التي تعيّن عليهم ارتقاؤها قبل أن يبلغوا تلك النقطة طويلة جدًّا. وكان ثَمَّةَ نحوُ ميلٍ ونصف بين جدول الماء الجاري

Twitter: @ketab_n

في أدناها ومحطة البنزين القائمة في أعلاها. ولم يكادوا يجتازون نصف هذه المرحلة تقريبًا حتى تباطأت السيارة، فجأةً، فلم تزد سرعتُها على بضعة أميال في الساعة. كانت المياه تغلي في المحرِّك وفي جهاز التبريد، وانبجس البخار إلى ما فوق الحجاب الواقي من الريح. وكان المحرِّك يُحدث ضجةً كبيرة، ولقد بدا وكأنما كان يقرقع كما يقرقع محرِّك سيارة جيتر العتيقة، ولكنْ في صوتٍ أعلى بعضَ الشيء وأشدّ قسوة.

وقالت بيسّي وهي تُطلّ من الباب لترى ما حولها:

ـ «ماذا أصابنا؟»

فقال ذْيُود:

ـ «لقد حَمِيَ المحرِّك ونحن نصعد التلّ. ولست أدري ما إذا كانت هناك علّة أخرى.»

وتقدّموا مئة ياردة ثم توقّفت السيارة. واختنق المحرِّك، واندفع البخار من الأنابيب مطلِقًا صَفرة كتلك التي تطلقها مكابس المِضخّات في قُطُر الشحن، عند مستودع الفحم.

ووثب جيتر من السيارة وأقحم صخرة كبيرة تحت الدولاب الخلفي قبل أن يوفّق ذْيُود إلى إعمال المِكْبَح. ووقفت السيارة وكرّت إلى الوراء.

وقالت بيسّي من جديد:

ـ «ماذا أصابنا، يا ذْيُود؟ هل كُسِر شيء؟»

فقال:

ـ «أظنّ أنّ المحرِّك قد حَمِيَ، لا أكثر.»

Twitter: @ketab_n

ولـم يبذل أيَّ جهد للنزول من السيارة. لقد قعد وراء المِقْوَد، قابضًا عليه في إحكام ومديرًا إيّاه إلى أقصى مداه ذات اليمين وذات الشمال. ثم إنه راح يقرع الزمّور من جديد.

وقال جيتر:

ـ «هذا لن يفيدنا شيئًا، يا دْيُود. إنك سوف تُتلف هذا الزمّور اللعين من غير أن تعلم، إذا بَقِيتَ تنقرُه هكذا طَوالَ الوقت. لماذا لا تنزل وتحاول أن تفعل شيئًا؟»

ومـرّت بهـم عـدَّة سيـارات منطلقة في سرعة بالغة، بعضُها يصعد الكثيب وبعضُها يهبطه، ولكنّ أيًّا منها لم تتمهّل أو تقف وتبدي استعدادها للمساعدة.

وكانت سيارة أخرى تصعّد خلفهم في أناة. كانت تتقدم بطيئة جدًّا، وكان البخار ينبعث منها كما ينبعث من سيارة بيسّي الجديدة. وإذ مرّت بهم على رِسْلِها مقرقِعَةً مفرقِعَةً فقد أطلّ بعضُ الزنوج منها، وألقوا نظرةً على السيارة المتوقفة عن الحركة.

ونادى أحدهم جيتر وقال:

ـ «ما بالُ سيارتكم يا جماعةَ البيض؟ يبدو أنها لن تسيرَ بعد الآن.»

فقال جيتر مغضبًا:

ـ «بإسم الله واسم المسيح! ما اسمُك أيّها الزنجيّ؟ ومن أين أنت آتٍ؟»

فقال:

Twitter: @ketab_n

ـ «لقد جئنا من مقاطعة بورك. لماذا تريدون أن تعرفوا ذلك يا جماعة البيض؟»

وقبل أن يُوفّق جيتر إلى أن يقول كلمة إضافيّة كانت سيارة الزنوج قد واصلت تصعيدها في الكثيب، مبتعدة عنه مئة ياردة، وضاعفت سرعتها. وكان جيتر يعتزم أن يحملهم على دفع سيارة بيسّي إلى أعلى التلّ لو استطاع أن يوقفهم.

وأدار دْيُود المحرِّك وأعْمَلَ ناقل السرعة. ووثب جيتر وبيسّي على عتبة السيارة، في الوقت المناسب، لأنّ دْيُود ما لبث أن انطلق بالسيارة في سرعة. لقد برد المحرِّك، فهم يتقدّمون بأسرع ممّا تتقدّم سيارة الزنوج. وأدركوا السيارة التي أمامهم وكانوا يستعدّون لتخطّيها عندما أخذ المحرِّك يقرقع من جديد، قرقعةً ذات دويّ لم يصدر عنها أعنف منه في ما مضى، ثم توقفت السيارة عن الحركة.

وقال جيتر:

ـ «هذه ألعن سيارة شهدْتُها في حياتي. إنها لا تفعل الشيء نفسه مدّةً طويلة تمكّنني من أن أتعوّد طباعها!»

وكانوا قد توقفوا، هذه المرَّة، عند قمة الكثيب. وكان دْيُود على أُهبة أن يدع السيارة تكرّ نزولًا، عندما أبصر جيتر محطة البنزين، وقال لدْيود أن ينتظر لحظةً:

ـ «سوف آتي بقليلٍ من الماء وأصبُّه فيها.»

وعَبَر الطريق قاصدًا إلى محطة البنزين. وبعد بِضْع دقائق رجع حاملًا بيده دلو ماء. وأقبل الرجل المشرف على المحطة معه.

Twitter: @ketab_n

وفيما كان جيتر يكشف عن جهاز التبريد كان ذلك الرجل قد رفع غطاء المحرِّك ليقيس الزيت:

وقال الرجل:

ـ «أتدري ما هي العلّة أيّها الأخ؟ هي أنه ليس عندك قطرة واحدة من الزيت في سيارتك. إن «وسائد الآلات» قد حمِيَت. من أين أنت قادم؟»

وأخبره جيتر أنهم يعيشون قرب فولر، على طريق التبغ القديمة.

فقال:

ـ «لقد أتلفتَ سيارتك الجديدة. هذا شيء مَعيب. أكره أن أرى أناسًا لا يعرفون شيئًا أحسن من إتلاف السيارات.»

فقالت بيسّي:

ـ «وما علّتها الآن؟»

ـ «لقد تلِفَت سيارتكِ الجديدة، أيّتها الأخت. إنها تحتاج إلى غالون ونصف من الزيت حتى تسير من جديد. هل تريدين أن أملأها لكِ بالزيت؟»

فقالت بيسّي:

ـ «وكم يكلف ذلك؟»

ـ «دولارًا ونصف.»

ـ «ما كنتُ أعتزم أن أنفق عليها شيئًا إضافيًّا من المال.»

ـ «حسنًا، إنها لن تجري إلّا إذا وضعتِ الزيت فيها. ويبدو لي إنكِ لم تزوّديها بالمقدار الكافي من الزيت منذ البدء.»

فقالت بيسّي:

Twitter: @ketab_n

ـ «ليس عندي غيرُ دولارين اثنين. كنت أريدُ أن أشتري شيئًا من البنزين بالقسم الأكبر منهما.»

فقال جيتر:

ـ «أنا وذُيُود ليس عندنا فلس واحد. ولكن حين أبيع هذا الحمل من الحطب فقد يصبح معي دولار ونصف.»

فقالت بيسّي:

ـ «صُبَّ الزيت فيها. أنا لا أريد أن أُتلف سيارتي الجديدة. لقد اشتريتُها أمسِ في فولر، وكانت جديدةً مئة بالمئة.»

ـ «لقد تلِفَت وانتهتْ، أيّتها الأخت. ولكن يجب أن تصبّي الزيت فيها إذا كنت تريدين أن تذهبي إلى أوغوستا ثم تعودي إلى فولر من جديد.»

وانتظروا ريثما صبّ الزيت فيها، ثم أعطته بيسّي الثمن. كانت قد لفَّت الأوراق المالية بمنديل لها فاقتضاها حلّ العُقَد المُحكمة دقائق عديدة.

وأدار ذُيُود المحرِّك، فتقدمت بهم السيارة، وئيدةً، عَبرَ قمة الكثيب، ثم هبطت الطريقَ الطويل إلى أوغوستا. حتى إذا بلغوا أدنى التلّ كانت السيارة تجري كما قد جرت وهي بعدُ جديدة، ولكنّ المحرِّك أطلق ضجّة أكبر من تلك التي كان يُطلقها محرِّك سيارة جيتر. كانت «وسائد الآلات» و«أذرع الدافعات» رخوةً إلى حدٍّ جعلها تُحْدِثُ صوتًا مدوّيًا حين انطلقت السيارة، هابطةً الكثيب، بسرعة تزيد على خمسة عشر ميلًا في الساعة.

Twitter: @ketab_n

- 16 -

كان جيتر قد سلخ ثلاث ساعات، حتى الآن، وهو يحاول بيْع حمْل السنديان الأسود. فلم يكن ثَمَّةَ، في ما يظهر، رجل واحد في أوغوستا راغبٌ في أن يشتريه. وفي بعض المنازل التي قصد جيتر إليها قال الناس أولًا إنهم يريدون حطبًا، ولكنهم ما إن سألوه عن المال الذي يطلبه ثمنًا له حتى عراهم الشك. لقد قال لهم جيتر إنه لا يطلب غير دولار واحد، وعندئذٍ سألوه ما إذا كان يبيع حطب صنوبر مشقّقًا بهذا الثمن الزهيد. وكان عليه أنّ يوضح أن بضاعته من السنديان الأسود، وأنها لم تُنشر على قياس المَوْقد. وهكذا كانوا يوصدون الباب في وجهه، فيضطرّ للمضيّ إلى البيت المجاور، ويُعيد المحاولة من جديد.

وتجاوزت الساعة السادسة والحطب لا يزال مركومًا على مقعد السيارة الخلفيّ، ولم يظهر مشترٍ واحد للعيان. عندئذٍ شرع جيتر يوقف الناس في الشوارع محاولًا محاولةً أخيرة يائسة أن يغريَهم بشراء الحمل بنصف دولار. ولكنّ أولئك الرجال والنساء كانوا يُلقون نظرةً على السنديان الأسود المركوم في السيارة ثم يتابعون طريقهم، وقد حسِبوا من غير ريب أنّ المسألة لا تعدو أن تكون مزاحًا من ضربٍ ما. فلم يكن أيٌّ منهم من الخبَل

Twitter: @ketab_n

بحيث يشتري السنديان الأسود وهو يعلم أنّ حطب الصنوبر أحسن اشتعالًا، وأيسر تناولًا.

وقال جيتر لبيسّي:

ـ «لست أدري ما الذي سنعمله. ولقد كدنا نتأخر إلى درجة تجعل عودتنا إلى البيت متعذّرة، وليس هناك مَن يريد أن يشتري الحطب بعد الآن. لقد كنت أبيعه من غير جهد كلّما جئت بحمل إلى هنا، وفي أيّ وقت.»

وقال دْيُود إنه جائع، وإنه يودّ أن يذهب إلى مكان ما ويأكل. وكانت بيسّي تملك نصف دولار. ولم يكن مع جيتر شيء. ودْيُود طبعًا، لم يكن معه شيء أيضًا.

وكانت خطة جيتر تقضي بأن يبيع الحطب بدولار، ثم يشتري شيئًا من اللحم والطحين يعود به إلى البيت فتسدّ به الأسرة جوعها ولكنه لم يعرف أيّ شيء يجب أن يفعله الآن. فالتفت إلى بيسّي مستطلعًا رأيها، فقالت:

ـ «لعلّ من الأفضل أن نرجع إلى فولر. إنّ في استطاعتي أن أشتريَ غالونين من البنزين، وهو شيء يجب أن يكفينا.»

فقال دْيُود:

ـ «ألن نأكلَ شيئًا؟ إنّ أحشائي المسكينة جافّة كالقحط.»

وقال جيتر وهو ينظر إلى السيارة:

ـ «لعلّنا نستطيع أن نبيع شيئًا آخر. ولكنّي لا أدري ما الذي ينبغي أن نبيعه.»

فسارعت بيسّي إلى القول:

Twitter: @ketab_n

ـ «لن نبيع سيارتي الجديدة على كلّ حال. لقد كانت حتى البارحة فقط جديدةً مئة بالمئة. هذا شيء لن يفكّر أحد في بيعه.»

وأجال جيتر بصره في السيارة من مقدّمتها إلى مؤخّرتها، ثم قال:

ـ «لا، أنا لا أفكّر بالقيام بعمل مثل هذا. ولكن، تعرفين يا بيسّي، لعلّنا نستطيع أن نبيع قطعة صغيرة منها، كما يقولون.»

واستدار حول السيارة وجسّ بيديه دولاب التبديل، وهزّه هزًّا عنيفًا. ثم قال:

ـ «إنه على وشك أن يقع، على كلّ حال. ولن يكون في الاستغناء عنه ما يضرّ سيارتكِ الجديدة مطلقًا، يا بيسّي.»

فقالت في أناة:

ـ «حسنًا، يبدو لي أننا مضطرّون إلى ذلك. فهذا الدولاب لا يفيدنا شيئًا، على كلّ حال. فنحن لا نستطيع أن نركب على أكثر من أربعة دواليب في وقت واحد. ويُخيّل إليّ أنّ اقتناء خمسة منها هو إسراف كبير.»

وانعطفوا بسيارتهم حول الشارع حتى وجدوا مرأبًا. ودخل جيتر واستعلم. وفي الحال خرج رجلٌ فنزع الدولاب وكرّه عَبْرَ باب المرأب.

ورجع جيتر فَعَبَرَ الشارع في خفّة ونشاط وقد أمسك بيده عدَّة أوراق نقدية خضراء. وعدّها واحدةً واحدةً أمام بيسّي وديُود، ثم قال:

ـ «ألم نكن محظوظين، برغم ذلك؟»

فسألَتْه بيسّي:

ـ «بكم بِعْته؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «لقد قال لي: ثلاثة دولارات تكفي وزيادة، ولقد بدا ذلك في نظري مبلغًا ضخمًا جدًّا. وها هو ذا! أليست هذه الأوراق جميلة وجديدة؟ فهناك في فولر كانت جميع الأوراق النقدية التي رأيتها في حياتي بالية على وشك أن تتمزق. أمّا هنا في أوغوستا فعند الناس أوراق نقدية جديدة.»

وكانت وقفتهم الثانية عند دكّان بِقالة صغير. وترجّل جيتر واشترى كيسًا كبيرًا من البسكويت الرقيق ورطلين من الجبن الهولندي الأصفر. ثم انقلب إلى السيارة فقدّم الطعام إلى دْيُود وبيسّي. فقطع كلٌّ منهما شيئًا من الجبن، وحشا فمه بالبسكويت.

وقال جيتر:

ـ «كلي جيّدًا يا بيسّي. خذي كلّ ما تريدين. مدّي يدكِ إلى الكيس وكلي حتى تشبعي. إنّ دْيُود قد يلتهم البسكويت كلَّه إذا لم تأخذي حاجتَكِ أوّلًا.»

وكان جيتر مبتهج الفؤاد. فهو لا يذكر أبدًا أنه زار أوغوستا، قبل اليوم، وكان في استطاعته أن يأكل شيئًا ساعةَ يشاء. وابتسم لبيسّي ودْيُود، ولوّح بيده للسّابلة. حتى إذا اجتازت الشارع امرأة رفع لها قبّعته وانحنى.

وقال:

ـ «أوغوستا مدينة جميلة. إنّ جميع هؤلاء الناس هم مثلنا تمامًا. صحيح أنهم أغنياء ولكنّ ذلك لا يقدّم ولا يؤخّر عندي. أنا أحبّ كلّ الناس اليوم.»

وقالت بيسّي:

ـ «إلى أين سوف نذهب الآن؟»

فقال جيتر:

Twitter: @ketab_n

ـ «هناك مكان نستطيع أن ننام فيه فوق المخزن تمامًا. ولنفرض أنّا بتنا فيه هذه الليلة ثم بعنا حمل الحطب غدا صباحًا ـ أليس هذا ما يجب علينا أن نفعله؟»

وأعجب الاقتراح دْيُود، ولكن بيسّي تردّدت. لقد بدا لها أنّ المَبيت في الفندق، تلك الليلة، سوف يكلّفها غاليًا جدًّا، فقالت:

ـ «قد يكلّفنا ذلك غاليًا جدًّا. اصعد السُّلَّم واسأل كم يكلّفنا المبيت.»

وحشا جيتر فمه بحفنة أخرى من البسكويت والجبن، وارتقى السُّلَّم إلى الفندق. كانت على الباب لوحة صغيرة مضاءة إضاءة قاتمة، تقول إنّ ههنا فندقًا.

حتى إذا رجع جيتر قال:

ـ «سوف يسمحون لنا بأن ننام مقابل خمسين سنتًا لكلّ رأس. هناك كثير من الناس، وليس في الفندق غير غرفة واحدة شاغرة ولكن في استطاعتنا أن نبقى إذا شئنا. إنّ لي رغبة في ذلك، من غير شكّ. ألا ترغبين في ذلك أيضًا يا بيسّي؟ أنا لم أنم قَطُّ ليلة كاملةً في الأوتيل، قبل اليوم.»

وفي تلك الأثناء كانت بيسّي قد وطّنت النفس على أن تقضيَ ليلةً في أحد فنادق المدينة، وكانت على أتمّ الاستعداد لأن ترتقي السُّلَّم عندما قال جيتر إنّ المبيت يكلّف كلّ واحد منهم خمسين سنتًا.

وقالت بيسّي:

ـ «تشبّثْ جيّدًا بالمال الذي معك، يا جيتر. إنه مبلغ كبير لا يجوز التفريط فيه. أنت لن تدعه يفرّ من بين يديك.»

وارتقوا السُّلَّم الضيّق، فوجدوا أنفسهم في غرفة صغيرة مغبرّة. كانت تلك ردهة الفندق، وكانت في الغرفة المُنارة إنارة قاتمة نصف دزينة من

Twitter: @ketab_n

الكراسي ذوات الظهر المستقيم، وطاولة. وقادهم صاحب الأوتيل إلى الطاولة، وسألهم أن يوقّعوا على السجلّ. فقالوا إنهم لا يعرفون الكتابة، وإنّ في استطاعتهم أن يوقّعوا على شكل صليب كما يفعل الأمّيّون.

وسأل صاحب الأوتيل جيتر:

ـ «ما اسمك؟»

ـ «جيتر.»

ـ «جيتر ماذا؟»

ـ «جيتر ليستر، من هناك قرب فولر.»

ـ «وما اسم الصبيّ؟»

ـ «ذيُود يدعى ذيُود. إنّ اسمَه مثل اسمي.»

ـ «ذيُود ليستر؟»

ـ «أجل.»

فسأله صاحب الفندق وهو يرفع بصره إلى بيسّي:

ـ «وما اسمها؟»

وابتسمت بيسّي له، ونظر هو إلى رجليْها. ودفَعت كَتِفَها اليسرى إلى أمام، وطأطأت رأسها. وعاود صاحب الفندق النظر إليها.

وقال جيتر:

ـ «اسمها مسز ذيُود.»

وتطلّع الرجل إلى ذيُود ثم إلى بيسّي، وابتسم. كان يقدّم إليهما الريشة ليمسّاها فيما هو يرسم إشارة الصليب تجاه اسميهما.

Twitter: @ketab_n

وأعطاه جيتر المال، فصعد الرجل وإياهم إلى الدور الثالث.

كانت الأروقة مظلمة، والغرف معتمة فاسدة الهواء. وفتح لهم أحد الأبواب ودعاهم إلى الدخول.

وسأله جيتر:

ـ «في هذا المكان سننام؟»

ـ «نعم، هنا ستنامون. إنها الغرفة الوحيدة الباقية. لقد امتلأ الفندق بالزبائن هذا المساء.»

وقال جيتر:

ـ «هذا مكان جميل، من غير شكّ. أنا لم أكن أعرف أنّ الفنادق جميلة إلى هذا الحدّ. وكم أتمنى لو كان لوف هنا ليراني في هذه اللحظة.»

ولم يكن في الغرفة غيرُ سرير واحد. كان واسعًا، ممهَّدًا، حسن الارتفاع عن الأرض.

وقال جيتر:

ـ «أظنّ أنّ في إمكاننا أن نحشر أنفسَنا في السرير بطريقة من الطرق. أنا سوف أنام في الوسط.»

فقال الرجل:

ـ «هناك متَّسَعٌ لكم جميعًا، ولكن قد يكون في استطاعتي أن أجدَ فراشًا آخر لواحد منكم.»

وغادر الغرفة موصِدًا الباب خلفه.

Twitter: @ketab_n

وقعد جيتر على السرير، وخلع حذاءه الغليظ المغبرّ فسقط على أرض الغرفة العارية محدِثًا صوتًا قويًّا. وجلس دُيُود على الكرسيّ وأنشأ يقلّب بصره في الغرفة، والجدران، والسقف. كان بعضُ الجبس الأصفر قد تساقط في عدَّة مواضع، وكان بعضُه الآخر قد تدلّى في مواضع، فهو عُرضة للسقوط عند حدوث أقلّ ارتجاج.

وقال جيتر:

ـ «في استطاعتنا الآن أن نأوي إلى الفراش فلست أدري ما الذي يحملنا على أن نبقى قاعدين هكذا.»

وعلّق قبّعته المصنوعة من اللبد الأسود على يد السرير، واستلقى. وكانت بيسّي منهمكة في حلّ شعرها أمام المرآة.

وقال جيتر:

ـ «كان ينبغي أن تراني إيدا الآن! أنا لم أنم ليلة واحدة في الفندق طَوالَ سنوات حياتي. وأنا أراهن أنّ إيدا لن تصدّق أني أقول الحقيقة عندما أخبرها بذلك.»

فقال دُيُود:

ـ «لا داعي لأن تنام معي ومع بيسّي في فراش واحد. يجب أن تنزل وتنام على الأرض.»

ـ «والآن يا دُيُود، ينبغي أن لا تبخل عليّ بنومةِ ليلة واحدة، أليس كذلك؟ وهذه بيسّي هناك ترغب في ذلك، أليس هذا صحيحا يا بيسّي؟»

فقالت:

Twitter: @ketab_n

ـ «أغلِق فمَك، يا جيتر! إنك تجعلني أشعر أنّي بلهاء حين تقولُ أشياءَ مثلَ هذه.»

وقال جيتر:

ـ «لا يوجد غيري وغيرُكَ، يا دُيُود. وهذا يختلف عمّا لو كان هناك شخص آخر. ولقد رغبتُ في أن أنام معكَ ومع بيسّي منذ فترة طويلة جدًّا.»

وقرع شخص الباب، وقبل أن يتمكنوا من الردّ عليه دخل الرجل الغرفة وسأل بيسّي:

ـ «ما الاسم الذي قلتِ إنك تحملينه؟»

وتقدّم إلى طاولة الزينة حيث كانت تحلّ شعرها ووقف قربها تمامًا.

وقال جيتر:

ـ «مسز دُيُود... لقد قلتُ ذلك لك من قبل.»

ـ «أدري... ولكن ما اسمها الأول؟ أنت تعلم ما أعني ـ اسمها قبل أن تتزوج.»

وارتدت بيسّي ثوبها قبل أن تجيبه، ثم قالت:

ـ «بيسّي. لماذا تسأل عن ذلك؟»

فقال الرجل:

ـ «هذا حسَن، يا بيسّي. ذلك كلّ ما أردت أن أعرفه.»

وغادر الغرفة موصِدًا الباب خلفه.

وقال جيتر:

Twitter: @ketab_n

ـ «أهل المدن هؤلاء لهم طباع عجيبة جدًّا. أنت لا تدري أبدًا ما السؤال الثاني الذي سوف يوجّهونه إليك.»

ونزع ذُيُود حذاءه وسترته، وانتظر أن تأويَ بيسّي إلى الفراش. كانت قد قعدت على الأرض لتخلع نعليها وجوربها.

وجلس جيتر في السرير مترقّبًا أن تُنجز ذلك. وأوصِد بابٌ مجاور إيصادًا عنيفًا جدًّا جعل أجزاء من الجبس الأصفر تتساقط من السقف إلى السرير وأرض الغرفة.

وفجأة قُرع الباب كَرَّةً أخرى، وفُتح في الحال. كان الطارق هذه المرَّة رجلًا لم يروه من قبل.

وقال الرجل:

ـ «تعالي إلى الرواق، يا بيسّي!»

وانتظر خارجًا حتى نهضت بيسّي عن الأرض ومضت إلى الباب، قائلةً:

ـ «أنا؟ ماذا تريد مني؟»

ـ «تعالي إلى الغرفة الأخرى، يا بيسّي. هذه الغرفة مزدحمة أكثر ممّا ينبغي.»

وقال جيتر:

ـ «كان عليهم أن يأتونا بسرير آخر. ويبدو لي أنهم وجدوا أنّ عندهم من السُّرُر الفارغة أكثر ممّا ظنوا في بادئ الأمر.»

Twitter: @ketab_n

وراقب هو وذيُود الأخت بيسّي وهي تجمع ثيابها وتغادر الغرفة. لقد حملت ملابسها وحذاءها وجوربها في يد، وحملت قبّعتها في يد. وبعد أن أُغلق الباب رانَ السكون على البناء كَرَّةً أخرى.

وقال جيتر وهو ينقلب على جانبه الآخر ويغمض عينيه:

ـ «أهل المدن هؤلاء لهم أساليب عجيبة، أليس هذا صحيحًا يا ذيُود؟ إنهم ليسوا مثلنا نحن الذين نعيش هناك، حول فولر.»

فقال ذيُود:

ـ «لماذا لا تنام أنت في ذلك السرير؟ لماذا كلّف الرجل بيسّي أن تذهب؟»

ـ «ليس في استطاعتك أبدًا أن تفهم أساليب أهل المدن هؤلاء، يا ذيُود. إنهم يفعلون أغرب الأشياء وأصعبها على الفهم في بعض الأحيان.»

وظلّا كلاهما مستيقظَيْن طَوالَ نصف ساعة، ولكنّ أيًّا منهما لم يقل كلمة. كان الضوء ما يزال مشتعلًا، ولكنهما لم يحاولا أن يُطفئاه.

وأطّت أرض الرواق الخشبية، ودخلت بيسّي حاملة ثيابها بيديها.

وسألها جيتر، وقد استوى قاعدًا:

ـ «ألم يعجبكِ المكان الذي أفردوه لكِ في الغرفة الأخرى؟ ما الذي جعلكِ تعودين، يا بيسّي؟»

فقالت:

ـ «أظنّ أني أويت خطأً أو شيئًا مثل ذلك إلى سريرٍ لم يخصَّص لي. لقد كان فيه شخص آخر.»

وفرك ذيُود عينيه في وهج الضوء الكهربائي ونظر إلى بيسّي.

Twitter: @ketab_n

وقال جيتر وهو يرنو إليها:

ـ «بيسّي هي من غير شكّ مبشِّرة جميلة، أليس كذلك؟»

فقالت:

ـ «لم يكن عندي مُتَّسَعٌ من الوقت لألبس ثيابي من جديد. كان عليّ أن أغادر الغرفة في الحال، ولم يكن ثَمَّةَ وقت أرتدي فيه ملابسي.»

ـ «لا شكّ في أنّ ذلك الرجل كان يعرف ما الذي كان يفعله منذ البدء. فليس من داعٍ يحمله على أن يكلّف الزبائن أن ينتقلوا من فراش إلى فراش طَوالَ الليل. كان عليه أنه يُبقيَ كلّ إنسان في سريره دفعة واحدة، وأن يسمح لنا بالنوم قليلًا.»

وقالت بيسّي:

ـ «لا شكّ في أنّ الرجال يتصفون بالغرابة حين يكونون في الفنادق. إنهم يقولون أعجب الأشياء، ويفعلون أعجب الأفعال التي عرفتُها في حياتي. أنا سعيدة بمجيئنا إلى هنا لأني قضيت وقتًا طيبًا. إنه يختلف عمّا نعرفه هناك في طريق التبغ.»

وقُرع الباب من جديد، وفتحه رجل. وألقى الرجل نظرة على بيسّي وأومأ إليها قائلًا:

ـ «تعالي إلى هنا، يا بيسّي، هناك غرفة لكِ في الجانب الآخر من الردهة.»

وانتظر خارج الباب المفتوح نصف فتحة.

ـ «لقد ذهبتُ إلى غرفة أخرى منذ لحظة قصيرة، وكان في السرير رجل.»

Twitter: @ketab_n

ـ «حسنًا، لا بأس. هناك في الغرفة الأخرى يوجد سرير لكِ أيضًا. تعالي. سوف أذهب معكِ، وأدلّكِ على الطريق.»

فقال جيتر:

ـ «باسم الربّ، وباسم المسيح! أنا لم أسمع مثلَ هذا في حياتي كلِّها. إن الرجال في هذا الفندق سوف يُهلكون بيسّي وهم ينقلونها من سرير إلى سرير طُولَ ساعات الليل. ولا أظنّ أنّي سوف أجيء إلى مثل هذا النوع من الفنادق مرّةً ثانية. فلست أستطيع أن أنام في سلام.»

وجمعت بيسّي ثيابها وخرجت. لقد أُوصد الباب، وكان في مَيْسور جيتر ودُيُود أن يسمعا وقع أقدام الرجل وبيسّي وهما يمضيان إلى الردهة.

وقال جيتر:

ـ «أظنّ أنها سوف تستقرّ هذه المرَّة فلا تغيّر سريرها من جديد. أنا لا أستطيع أن أظلّ مستيقظًا لكي أتأكد من ذلك.»

واستسلم دُيُود، هو أيضًا، للنوم بعد بِضع دقائق.

•

ومع الفجر، نهض جيتر من فراشه، وارتدى ثيابه. ثم نهض دُيُود بعد دقائق معدودة، وقعدا في الغرفة نصف ساعة انتظرا بيسّي خلالها. وأخيرًا نهض جيتر من مقعده وتقدّم إلى الباب ملقيًا نظرةً على الرواق من جانبيه الاثنين، ثم قال:

ـ «يخيَّل إليّ أنَّ علينا أن نذهب ونفتّش عن الأخت بيسّي. لعلّها تاهت ولم تهتدِ إلى هذه الغرفة. كان الظلام شديدًا الليلةَ البارحة، وهنا في المدن تتغير هيئة الأشياء بعد أن يطلع النهار.»

Twitter: @ketab_n

وفتحا الباب ومشيا إلى نهاية الرواق. كانت الأبواب كلُّها موصدة، ولم يَدْرِ جيتر أيّها يجب أن يفتح. وكانت الغرفتان اللتان فَتح بابيهما، أوّلَ ما فتح، شاغرتين، ولكنّ الثالثة كانت آهلة. ودخل جيتر الغرفة، فألفى شخصين نائمين في السرير، ولكنّ المرأة لم تكن بيسّي. وتراجع جيتر إلى خارج الغرفة، وأغلق الباب. ثم تقدّم إلى الغرفة المجاورة. كان بابها غير موصد أيضًا، وكان على جيتر أن يمضيَ عَبْرَ الغرفة ويلقيَ نظرة على وجه المرأة قبل أن يقتنع بأنها ليست بيسّي. ولم يجد بيسّي في الغرف الأخرى التي دخلا إليها، ولم يَدْرِ جيتر أيّ شيء يجب أن يفعله. وكان في آخر غرفة من تلك الغرف سرير واحد، وكان جيتر على وشك أن يُغلق الباب عندما فتحت الفتاة عينيها واستوت قاعدةً. ووقف جيتر يتأملها، غير عالمٍ ما الذي يتعيّن عليه أن يعمله. حتى إذا غدت الفتاة في حال يقظة كاملة ابتسمت ونادت جيتر.

فسألها جيتر:

ـ «ماذا تريدين؟»

فقالت:

ـ «لماذا دخلتَ إلى هنا؟»

ـ «أنا أفتّش عن بيسّي. ويظهر أنّ من الأفضل لي أن أواصل تفتيشي. وإذا بقيتُ هنا أنظر إليكِ فقد أعرّض نفسي للعار.»

ونادت جيتر كَرَّةً أخرى، ولكنه أدار ظهره وولّى هاربًا من الغرفة. ولحق دْيُود بأبيه، فأدركه.

وقال جيتر:

ـ «باسم الربّ وباسم المسيح! أنا لم أرَ مثلَ هذا العدد من الفتيات والنساء الجميلات في حياتي كلِّها. إنّ هذا الأوتيل يغصّ بهنّ. وسوف

Twitter: @ketab_n

أخسر ديانتي من غير شكّ إذا بقيتُ هنا فترةً أخرى. يجب أن أنطلق إلى الشارع في هذه اللحظة.»

وعند أدنى السُّلَّم شاهدا الرجل الذي أجّرهما الغرفة، الليلة البارحة. كان يطالع جريدة الصباح.

فقال جيتر:

ـ «نحن مستعدّون لأن نذهب الآن، ولكنّا لم نهتدِ إلى الأخت بيسّي.»

ـ «المرأة التي جاءت معكما الليلة البارحة؟»

ـ «هي بعينها. إنها تدعى الأخت بيسّي.»

فقال الرجل وهو يمضي إلى السُّلَّم:

ـ «سآتيكما بها.» ثم أضاف:

ـ «ما علّة أنفها؟ أنا لم ألاحظْه مساء أمس، ولكنّي رأيتُه هذا الصباح. إنّ النظر إليه يُصيب جسمي بالخدَر.»

فقال جيتر:

ـ «لقد وُلـدَتْ هكذا. إنّ بيسّي ليست جميلة الصورة تفتن الناظر إليها، ولكنّها امرأة يسعد الإنسان أن يعيش معها. دْيُود يعرف ذلك، لأنه قد تزوجها.»

فقال الرجل وهو يرتقي السُّلَّم:

ـ «إنّ لها أقبح أنف شهدْتُه في حياتي. أرجو أن لا أُخدع بعد اليوم كما خُدعتُ أمس.»

Twitter: @ketab_n

وفي حوالى خمس دقائق هبط هو وبيسّي السُّلَّم. كان الرجل يتقدمها وكانت هي تتبعه.

وهناك في الشارع حيث غادروا السيارة تناول جيتر كيس البسكويت والجبن وراح يأكل أَكْلَ الرجل الذي عضّه الجوع. وأخذ ڈيُود حفنةً من البسكويت وحشا فمه بها. وعلى بِضْعِ خطوات منهم كان دكانٌ تقوم فوقه لوحة من لوحات الكوكاكولا، فقصدوا كلُّهم إليه ليشربوا بِضْعَ زجاجات.

وقال جيتر:

ـ «أنتِ لا يبدو عليكِ أنكِ نمتِ كثيرًا الليلة البارحة. ألم تستطيعي أن تنامي يا بيسّي؟»

وتثاءبت وفركت وجهها براحتيها. كانت قد ارتدت ثيابها على عجل، ولم تكن قد سرّحت شعرها، فهو يتدلّى على وجهها خُصَلًا شعثاء متصلّبة.

وقالت:

ـ «أحسِب أنّ الأوتيل كان مليئًا ليلة أمس. فلم تكن تنقضي فترة حتى يأتي رجل ويدعوني للانتقال إلى غرفة أخرى. وفي كلّ غرفة ذهبتُ إليها كنت أجد رجلًا نائمًا في السرير. لقد بدا وكأنّ أحدًا ما كان يعرف أين سريري. كانوا كلُّهم يقولون لي إن عليّ أن أذهب وأنام في سرير آخر. ولم تغمَض عيني قَطّ، إلّا ساعةً واحدة عند طلوع الفجر. لا شكّ أنّ عددًا كبيرًا من الرجال ينزل في هذا الفندق.»

وقادهم جيتر إلى الخارج، فركبوا السيارة ومضوا في اتجاه الأحياء الغنيّة من المدينة. وتثاءبت بيسّي، وحاولت أن تنعم بإغفاءة قصيرة في المقعد الأماميّ.

Twitter: @ketab_n

ولم يكن بيع حمل السنديان الأسود هذه المرَّة أيسر منه في أصيل أمس. فما كان أحد راغبًا في شراء الحطب، أو ذاك النوع من الحطب الذي كان جيتر يعرضه للبيع على الأقلّ.

وحوالى الساعة الثالثة من ذلك الأصيل قطعوا الرجاء من العثور على من يشتري ذلك الحمل من السنديان الأسود.

وكانت الأخت بيسّي تريد أن تعود إلى المنزل، وكذلك جيتر. كانت بيسّي ناعسةً متعَبة. وأخذ جيتر يسبّ ويلعن كلّما رأى رجلًا ماشيًا في الشارع. فقد غدا رأيُه في أهل أوغوستا أسوأ ممّا كان قبل الرحلة. لقد شتم كلّ دولار في تلك المدينة.

وكان دْيُود شديد التوق إلى العودة، لأنّ ذلك سيُتيح له فرصة التزمير كلّما استداروا حول المنعطَفات الطويلة في الجادّة الرئيسية.

واشترت بيسّي مقدارًا من البنزين، ودفع جيتر الثمن من البقيّة الباقية من ثمن الدولاب. ولم يطرأ أيّ عطل على المحرِّك، فانطلقوا في سرعة بالغة مسافةَ عشرة أميال تقريبًا.

وقال جيتر:

ـ «لنقف دقيقة.»

فأوقف دْيُود السيارة من غير سؤال، وترجّلوا جميعًا منها.

وأخذ جيتر يحلّ حبال المحاريث وأسلاك البالات التي كانت تطوّق حمل الحطب.

وسألتْه بيسّي وقد رأته يقذف قِطع الحطب على الأرض:

ـ «ماذا تريد أن تعمل الآن؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «سوف أُلقي بهذا الحمل اللعين كلِّه إلى الأرض وأُشعل فيه النار. فأنا أتشاءم من نقل شيء إلى المدينة رغبةً في بيْعه ثم العودة به إلى البيت. وليس من الحكمة أن أقوم بشيء مثل هذا. سوف أطرحه كلَّه على الأرض.»

وساعده دُيُود وبيسّي على ذلك، فما انقضت بِضْعُ دقائق حتى كان السنديان الأسود مركومًا في القناة القائمة إلى جانب الطريق.

وقال جيتر:

ـ «أنا لن أدع أحدًا يستفيد منه أيضًا. إذا كان أغنياء أوغوستا لا يشترون الحطب مني فلن أتركه ملقًى هنا حتى يأتوا ويأخذوه مجّانًا.»

وجمع حفنةً من الأوراق المَيْتة، وأقحمها تحت الركام، وأشعل عود ثقاب فأضرم فيها النار. والتهبت الأوراق، وارتفعت في الجوّ سحابة من دخان. وأذكى جيتر النار بأن هوّى لها بقبّعته، وانتظر حتى يلتقط الحطب النار ويشتعل.

وقال:

ـ «لقد كانت هذه الرحلة إلى أوغوستا مشؤومة. وأنا لا أذكر أني كنتُ سيئ الحظ إلى هذا الحدّ في وقتٍ من الأوقات. ففي جميع المرّات السابقة كنت أتمكّن من بيع حطبي بمبلغ من المال، بخمسة وعشرين سنتًا أو نحو ذلك. ولكنّ الناس هذه المرَّة رفضوا في ما تراءى لي، أن يشتروه مني بالمجّان.»

وقالت بيسّي وهي تقهقه:

ـ «أنا أحبّ أن أرجع يومًا من الأيام وأقضي ليلة أخرى في ذلك الفندق. لقد سُرِرْتُ سرورًا عظيمًا تلك الليلة. ولقد سعدتُ بالبقاء هناك تلك

Twitter: @ketab_n

الساعات القليلة. إنهم يعرفون، من غير شكّ، كيف يعاملون النساء معاملة جيّدة.»

وأرجأوا العودة إلى فولر ريثما يحترق السنديان الأسود. وحالت الأوراق اليابسة رمادًا، وخمدت النار. لقد أبى البلّوط القزم أن يشتعل.

وجمع جيتر ركامًا أكبر من الأوراق الميتة، وأضرم فيه النار وراح يُلقي بالعيدان فوقه. واشتعلت النار في اتقاد، طَوالَ دقائق معدودة، ثم خبت تحت ثِقل الحطب الأخضر.

ووقف جيتر مكتئبًا محزون الفؤاد بعد أن عجز عن إشعال السنديان الأسود. ثم إنّ ذيُود أخرج من خزّان السيارة مقدارًا من البنزين وصبّهَ على رُكام الحطب. فاندلعت منه نار هائلة ارتفعت عشرة أقدام أو اثني عشر قدمًا في الفضاء. وما هي إلّا فترة حتى خمدت تلك النار أيضًا، تاركةً كومة من العيدان المسودّة، في القناة.

وقال جيتر وهو يركب السيارة:

ـ «حسنًا، أظنّ أنّ هذا كلّ ما أستطيع أن أعمله لذلك السنديان الأسود الملعون. والذي يظهر أنه ليس هناك وسيلة للتخلص من هذا الحطب القذر. إنه يرفض أن يُباع، ويرفض أن يشتعل. ويبدو لي أنّ الشيطان يقبع في داخله.»

وانطلقوا بسيارتهم وسط تيار من الغبار الأصفر، ليقتربوا وشيكًا من طريق التبغ. وخفّف ذيُود السرعة عَبْرَ الرمل الأبيض العميق، قارعًا الزمّور طَوالَ الطريق إلى المنزل.

Twitter: @ketab_n

- 17 -

وبعد أن عاد جيتر من أوغوستا، وضع مشروع رحلة بالسيارة إلى مقاطعة بورك، ليرى ابنَه توم. فمن الأشياء التي كان قد سمعها على لسان كثيرين ممن كانوا في ذلك القسم من البلاد عرف أنّ توم كان يملك مصنعًا ناجحًا للعوارض الخشبية التي تُصطنع في دعم الخطوط الحديدية. ذلك بأنّ أولئك الذين حملَتْهم أعمالُهم إلى مواضع قريبة من مصنع العوارض الخشبية هذا رجعوا إلى فولر وأخبروا ذيُود أن توم يكسب من المال مقدارًا أعظم ممّا يكسبه أيّ رجل من معارفهم. وكان جيتر فخورًا بتوم بقدر ما كان فخورًا بِذيُود تقريبًا.

ولم يُعرف عن توم ليستر، باستثناء ذلك، غير نَزْر يسير. وكان هذا أحدَ الأسباب التي حملت جيتر على التفكير بالسفر إلى هناك. لقد أراد أن يعرف كم كان توم يكسب، قبل كلّ شيء، وأراد أن يسأل توم، بعد ذلك، أن يقدّم إليه مقدارًا من المال كلّ أسبوع.

ولم يكن ذيُود وبيسّي راغبَيْن هما أيضًا في البقاء في المنزل ما دامت السيارة قادرة على الانطلاق. فالرحلة إلى أوغوستا لم تُخمد حماستهما لركوب السيارة أكثر ممّا أخمدت حماسة جيتر. ونتوء المِحور الأمامي،

Twitter: @ketab_n

وتشقُّق الحجاب الزجاجي الواقي، وانجراح دهان الهيكل، وانتشار الثقوب في الوسائد، وبَيْع الدولاب الخامس ـ كلّ أولئك لم تُعتبر غير مخاطر عاديّة يتعرض لها كلّ من يقود سيارة. وكان انسحاق الحائل الأماميّ وانكسار النابض الخلفي قد خفّفا من قلق كلّ امرئ منهم على السيارة. فبعد الحادث الأول الذي وقع لهم، عندما صدم دْيُود مؤخّرة عربةٍ ذات حصانين قرب ماك كوي وقتل الزنجيّ، لم يعد أيُّما أذًى تصاب به السيارة يقضّ مضاجعهم كثيرًا.

وفي صباح اليوم التالي أشار جيتر إشارةً عَرَضيّة إلى أنه شديد الرغبة في السفر إلى مقاطعة بورك لرؤية توم.

وكان دْيُود يملأ، في تلك اللحظة، جهاز التبريد، فما كان منه إلّا أن كفّ عن ذلك ليسمع أيّ شيء ستقوله بيسّي. ولكنّها لم تقل شيئًا، فتناول دْيُود الدلو، كَرَّةً أخرى، وملأ جهاز التبريد حتى لقد فاض الماء من جنباته. وابتعد جيتر قليلًا لكي يُتيح لبيسّي فرصة التفكير. ومضى نحو مؤخَّر البيت وكأنما كان يريد أن يحتجب عن البصر ريثما تقرر بيسّي نهائيًّا ما إذا كانت تريد الذهاب أم لا. ولم يُمعن جيتر في الابتعاد إلى حدٍّ يَحولُ بينه وبين إبقاء عينه على السيارة. فقد كانت بيسّي جديرة بأن تعمل كلّ شيء عندما يدير هو ظهره، وما كان يريد أن يراهما ينطلقان ويخلّفاه في المنزل.

وهمست بيسّي، باهتياج، في أذن دْيُود، دافعةً إياه إلى السيارة:

ـ «إصعد ولنذهب في سرعة، يا دْيُود. عجِّل قبل أن يرانا أبوك.»

كان جيتر واقفًا قُرْبَ البئر مستغرقًا في النظر إلى المدى البعيد عَبْرَ غَيْضَةِ الرَّتَم، فلم يعرف أنهما كانا يستعدّان للسفر وحدهما.

Twitter: @ketab_n

حتى إذا سمع دْيُود يدير المحرِّك، اندفع نحو السيارة. ولكنَّ دْيُود كان قد أعمل ناقلَ السرعة فاجتازت السيارة، كالسّهم، فِناء الدار، متّجهة نحو طريق التبغ.

وكان قد فتل الدولابين الأماميّين فتلًا عنيفًا، مستديرًا حول شَجَرات الأَزْدَرَخْت وارتطم بالخندق واثبًا فوقه من غير أن يخفّف السرعة. وإنما تمّ ذلك كلُّه في بِضْعِ ثوانٍ، فلم يكن في مَيْسور جيتر أن يلحق بهما إلى الطريق. فوقف في مكانه وأنشأ يراقبهما.

وقال:

ـ «حسنًا، أنا لم أرَ مثلَ هذا من قبل. ولست أدري لماذا يريدان أن يفرّا ويتركاني هنا. لقد عاملتُ بيسّي دائمًا في إخلاص وعدل. يبدو أنّ الرجل حين يشيخ، يظنّ الناس أنه لا يبالي بركوب السيارات، فهم يذهبون ويتركونه في المنزل.»

وظلّ واقفًا يراقبهما حتى غابت السيارة عن البصر. ووقفت إيدا وإللي ماي على السقيفة الأماميّة ونظرتا إلى السيارة المختفية. لقد هرعتا إلى الباب حالما سمعتا هدير المحرِّك. وكانت كلٌّ منهما راغبةً في الذهاب إلى مكانٍ ما، أيضًا. فمنذ أن اشتُرِيَت تلك السيارة الجديدة لم يُسمَح لهما بالتمتع بركوبها.

وحمل جيتر كرسيًّا إلى السقيفة الأماميّة، وقعد عليها منتظرًا عودة دْيُود وبيسّي. كان عابسًا صامتًا طَوالَ النهار. وحين حان وقت الطعام، ودعتْهُ إيدا إلى أن يذهب إلى المطبخ ويأكل شيئًا من الجبن والبسكويت، لم يتزحزح من كرسيِّه. وانقلبت إيدا إلى البيت من غير أن تُلِحّ عليه في ذلك. فقد كان الطعام الذي لديها قليلًا إلى درجة جعلتْها سعيدة بعدم تلبيته دعوتها. كانت بقيّة الجبن والبسكويت التي رجع بها من أوغوستا لا تكاد تسدّ جوع شخص

Twitter: @ketab_n

أو شخصين، وإذ أبى جيتر أن يغادر السقيفة فسوف يكون في استطاعتها، هي وإللي ماي، أن تنالا نصيبًا أكبر. أمّا الجدّة العجوز، فلم تجشّما نفسيْهما عَناء دعوتها إلى الطعام لأنهما كانتا عازمتين على إعطائها قِشرَ الجبن وفُتاتَ البسكويت المتبقّي عنهما. وكان من دأب جيتر أن يأكل دائمًا في سرعة بالغة غير ممكّن أحدًا من أن ينال نصيبه من الطعام كاملًا. كان يأكل وكأنما كانت هي آخر مرّة سوف يقدَّر له فيها أن يذوق طعامًا منذ اليوم.

وجلست إيدا وإللي ماي لتناول الطعام، تاركتين جيتر وحده.

وفي ساعة متأخرة من ذلك الأصيل رجعت بيسّي وذُيُود إلى المنزل، فوجدا جيتر لا يزال ينتظرهما على الشرفة. حتى إذا أمسيا على مَقْرُبَةٍ منه نهض وتَبِع السيارة إلى موضعها قرب المدخنة. كان مُغضبًا أشدّ الغضب، ولكنه ما لبث أن نسيَ كلّ شيء في الحال. كان يريد أن يعرف ما إذا وجدا توم أم لا.

وسأل بيسّي:

ـ «هل رأيتِ توم؟ ماذا كان يعمل؟ هل بعث إليّ بشيء من المال؟»

وأقبلتْ إيدا لتسمع. واتخذَت الجدّة العجوز مكانها المألوف خلف إحدى شَجَرات الأَزْدَرَخْت، فهي تنظر وتسمع. أمّا إللي ماي فاتخذت لها موقفًا أقرب.

وقالت بيسّي وهي تهزّ رأسها:

ـ «لم يكن توم كما كان في السابق يومَ عرفتُه معرفةً أحسن. أنا لا أدري ما الذي أصاب توم.»

فسألها جيتر:

ـ «لماذا؟ لماذا فعل ذلك؟ ـ ماذا قال؟ أين المال الذي بعثه إليّ؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «توم لم يرسل إليكَ شيئًا من المال. وليس يبدو أنه يعتزم أن يمدَّ إليك يد المساعدة مطلقًا. إنّ توم ولد رديء.»

فقال جيتر:

ـ «كان ينبغي أن تأخذيني معك إلى هناك، يا بيسّي. أنا أعرف توم أحسن ممّا أعرف نفسي. كان ابني المفضّل دائمًا. وكنت أنا وهو متفاهمَيْن تفاهمًا تامًّا. كان سائر أولادي يتقاتلون معي دائمًا، ولكنّ توم لم يفعل ذلك في يومٍ من الأيام. كان ولدًا لطيفًا وهو صغير.»

وسمعت بيسّي إلى كلام جيتر، ولكنّها لم تُرِدْ أن تناقشه في أمر ذهابهما وحدهما وترْكه في المنزل. لقد قُضِيَ الأمرُ الآن. فالرحلة قد انتهت، وها هما قد رجعا.

وقال جيتر:

ـ «لماذا لم تأخذاني معكما لأرى توم؟»

فقال دْيُود، وقد ترك عددُ الثيران العاملة في مصنع أخيه أثرًا كبيرًا في نفسه:

ـ «توم يشغّل مئة ثور تقريبًا. لم أكن أعرف أنّ هناك مثلَ هذا العدد من الثيران في البلاد كلِّها.»

وتساءل جيتر:

ـ «ومتى قال توم إنه سوف يأتي إلى هنا ليراني؟»

فقال دْيُود:

ـ «لقد قال توم إنه لن يأتي إلى هنا مطلقًا. ولقد أخبرني أن أقول لكَ إنه سوف يبقى حيث هو الآن.»

Twitter: @ketab_n

فقال جيتر وهو يهزّ رأسه:

ـ «من المؤكد أنّ توم لا يقول كلامًا مثلَ هذا. لعلّ عنده شغلًا كثيرًا لا يمكّنه من مغادرة المصنع.»

فقالت بيسّي:

ـ «ليس الأمر كذلك. لقد قال توم نفس الكلام الذي نقله إليك ذُيُود. قال إنه لن يأتي إلى هنا مطلقًا. إنه لا يريد.»

ـ «توم لا يقول كلامًا مثل هذا. فأنا وتوم كنا دائمًا على اتفاق كامل حول كلّ شيء. ولم أقع أنا وهو، في يومٍ من الأيام، في متاعب كالتي كنتُ أعانيها مع سائر أولادي. كانوا يرشقونني بالحجارة، ويضربونني على رأسي بالعِصِيّ، ولكن توم لم يفعل شيئًا من ذلك قَطّ. كان توم دائمًا ولدًا مُمتازًا عندما كان هنا. وليس هناك سبب يحمله على أن يتغيّر، الآن، ويصبح مثل بقيّة أولادي.»

فقالت بيسّي:

ـ «لقد أخبرْتُه بالفقر الذي تعانيه أنتَ وأمُّه. أخبرته أنْ ليس عندكم لا طحين ولا لحم، في معظم الأيام، وأنه لم يعد في استطاعتكم أن تزرعوا الأرض بعد اليوم، فقال إنّ عليك وعلى إيدا أن تذهبا إلى مأوى العجزة، في المقاطعة، وتنزلا فيه.»

ـ «لقد أخطأتِ في إخبار توم أنّي لن أزرع الأرض بعد اليوم. سوف أزرع محصولًا كبيرًا من القطن هذا العام إذا استطعتُ الحصول على شيء من بزر القطن وسماد الطير. ولكنّ سائر ما قلتِهِ له صحيح على كلّ حال. إننا نجوع معك معظمَ الوقت. هذه ليست كذبة على الإطلاق.»

Twitter: @ketab_n

ـ «مهما يكن، فهذا هو الشيء الذي قلْتُه. لقد قال لي أن أخبركَ وأخبرَ إيدا أن تذهبا إلى مأوى العجزة في المقاطعة وتقيما هناك.»

ـ «هذا كلام لا يقوله توم، من غير شكّ. إنّ توم لم يقلْ لي شيئًا مثلَ هذا من قبل. ولست أفهم لماذا يريدني أن أذهب أنا وأمُّه، إلى مأوى العجزة. يُخيَّل لي أنّ من الأفضل أن يبعث إليّ ببعض الدراهم، بدلًا من ذلك. فأنا أبوه.»

فقالت:

ـ «أظنّ أنّ ذلك لا يقدّم أو يؤخّر عند توم الآن. إنه لا يفكّر إلّا في نفسه.»

ـ «كم أتمنى لو أرجع شابًّا! إذن، لَما سألتُ أحدًا أن يعطيَني فلسًا، حتى ولو كان ابني الذي من لحمي ودمي. ولكن توم لم يعد كما كان. لقد اعتقدتُ أنه سيبعث إليّ وإلى أمّه بشيء من المال.»

وقال دُيُود لجيتر:

ـ «قال لي توم أن أقول لك أن تذهب إلى الجحيم، أيضًا.» ووثبت بيسّي إلى أمام، وأمسكت بخناق دُيُود، وهزَّته حتى لقد بدا وكأنّ رأسه سوف ينفصل عن جسده ويقع على الأرض. وما زالت تهزّه حتى وُفّق إلى الإفلات من قبضتها.

وصرخت في وجه دُيُود:

ـ «ما كان ينبغي أن تُخبر جيتر ذلك. هذا شيء لا يجوز أن يُقال. وأنا لا أعرف إثمًا أكبر من هذا الإثم. إنّ الشيطان يحاول أن يُبعدك عني لكي لا أستطيع أن أجعل منك مبشِّرًا.»

وصاح في وجهها:

Twitter: @ketab_n

ـ «وحقِّ المسيح الكلِّيِّ القدرة، أنت على وشك أن تخنقيني! أنا لم أقل ذلك ـ توم هو الذي قاله. لقد كنتُ أخبرُه بالذي قاله توم، لا أكثر ولا أقلّ. أنا لم أقلْه! يجب أن تبتعدي عني. أنا لم أعمل لكِ شيئًا.»

فقالت بيسّي:

ـ «المجد للربّ. إنك لن تصبح مبشِّرًا في يوم من الأيام إذا تكلّمتَ هكذا. لقد ظننتُ أنك وعدتَني بأن لا تلعن وتجدّف بعد اليوم. لماذا لا تقلع عن ذلك؟»

فتوسّل إليها دْيُود، وقد تذكّر أنّ السيارة هي ملكها:

ـ «لن أعودَ إلى مثلِ هذا أبدًا. وما كان من الممكن أن يزلّ لساني هذه المرَّة لو لم تهزّي رقبتي هزًّا عنيفًا مؤذيًا.»

ومشى جيتر حول السيارة، محاولًا أن يجلوَ عن نفسه أثر الصدمة التي أصيب بها إثر سماعه ما نقله دْيُود من كلام توم. فلم يكن في مَيْسوره أن يصدّق أنّ توم قد انقلب إلى رجل يقول لأبيه: اذهب إلى الجحيم. وأدرك أنّ توم لا بدّ قد تغيّر تغيّرًا كبيرًا منذ فارق المنزل.

ووقف عند مؤخّرة السيارة، وراح ينظر إلى الكلّابة التي كانت تمسك بدولاب التبديل، فرأى انبعاجًا خطيرًا في هيكل السيارة. وظلّ يحدّق إلى ذلك المَوْضِع حتى كفّ دْيُود وبيسّي عن الكلام.

كانت بيسّي تقول:

ـ «لن تستطيع أن تُلقيَ خطبةً تبشيريّة، في الأحد القادم، إذا جدّفتَ هكذا. إنّ الصالحين من الناس لا يريدون أن يرسِل اللهُ المواعظَ إليهم على ألْسنةِ مبشّرين يلعنون ويجدّفون.»

ـ «لن أقول ذلك بعد اليوم. لن أجدّف بعد اليوم.»

Twitter: @ketab_n

ودعاهما جيتر إلى الاقتراب من مؤخّرة السيارة، وأشار إلى الأذى الذي أصاب الهيكل. كان في وسطه انبعاج يبلغ عمقُه عشرة إنشات أو اثني عشر إنشًا، ويقسم الهيكل إلى نصفين شبه متساويين.

وتساءل جيتر وهو لا يزال يومئ إلى مَوْضِع الإصابة:

ـ «مَن فعل هذا؟»

فأجابته بيسّي في تردّد:

ـ «كنا نرتدّ إلى الوراء عائدَيْن من مصنع توم عندما اصطدمنا فجأةً بشجرة صنوبر كبيرة. ولست أدري ما الذي أدّى إلى ذلك. يبدو وكأنّ كلّ شيء يعمل على إتلاف سيارتي الجديدة. إنها لم تعد تشبه، مطلقًا، ما كانت عليه يومَ اشتريْتُها من فولر بثمانمئة دولار في مطلع هذا الأسبوع.»

وأمرّ ذُيُود يده فوق الهيكل المنبعج. فتساقط الدهان المتشقّق على الرمل الأبيض. لقد حاول أن يجعل الانبعاج يبدو أصغر ممّا هو بأن أخذ يفركه ويسوّيه.

فقال جيتر:

ـ «ولكنّ هذا لا يعطّل سَيْرها، أليس كذلك؟ إنّ هيكلها هو الذي انبعج، لا أكثر. وهي لا تزال تمشي مشيًا حسنًا، أليس كذلك؟»

فقالت بيسّي:

ـ «أظنّ ذلك. ولكنّها تُطلع ضجةً كبيرةً جدًّا وهي تهبط التلال ـ وتصعد في التلال أيضًا.»

Twitter: @ketab_n

واقتربت إيدا من السيارة، وألقت نظرة على هيكلها المنبعج. ثم أمرّت يديها عليه وأنشأت تفركه حتى تساقط مزيدٌ من الدهان المتشقّق على الرمل الأبيض، عند قدميها.

والتفتت إلى بيسّي وسألتْها:

ـ «كيف يبدو توم الآن؟ أنا أظنّ أنّ هيئته لم تكن كما كانت من قبل.»

فأجابتها:

ـ «إنه يشبه جيتر كثيرًا. وليس هناك أيُّ شبه بينكِ وبينه.»

فقالت إيدا:

ـ «همْمْمْ! لقد جاء وقتٌ أعلنتُ فيه عكس ذلك تمامًا.»

ونظر جيتر إلى إيدا، ثم إلى بيسّي. إنه لم يستطع أن يفهم عمّ كانت إيدا تتحدث.

وقال جيتر:

ـ «ماذا قال توم عندما أخبرتماه أنكِ أنتِ وذُيُود صرتما زوجين؟»

ـ «إنه لم يقل شيئًا. لقد بدا لي أنه لا يبالي بذلك على الإطلاق.»

فقال ذُيُود:

ـ «لقد قال إنها كانت امرأة قَذِرة تُشتَرى بخمسة وعشرين سنتًا عندما عرفها منذ زمن طويل. لقد قال ذلك لها مباشرةً، ولكنّها لم تقل شيئًا. وأظنّ أنه كان يعرف ما يقول، لأنها لم تقل إنّ ذلك كذب...»

Twitter: @ketab_n

وأمسكت الأخت بيسّي بخناق دُيُود، كَرَّةً أخرى. وهزته هزًّا عنيفًا. ووقف جيتر وإيدا إلى جانبهما يشهدان المُشادّة. وكانت إللي ماي قد سمعتْ كلَّ شيء، ولكنّها ظلّت في مكانها ولم تقترب أكثر.

وأفلتَ دُيُود من بين يدَي بيسّي بأسرع ممّا فعل في المرَّة الأولى. لقد تعلّم كيف يفرّ منها في مزيد من اليسر.

وصاح ضاربًا وجهها بجُمع يده:

ـ «لعنةُ الله عليكِ! لماذا لا تظلّين بعيدةً عني؟»

فتوسّلت إليه بيسّي في رقّة:

ـ «والآن، يا دُيُود لقد وعدْتَني بأن لا تجدّف بعد اليوم. إنّ أهل الله الصالحين لا يريدون أن يذهبوا ويسمعوا إلى موعظة يتلوها عليهم مبشِّر مجدِّف.»

وهزّ دُيُود كَتِفَيْه، ومضى لسبيله. لقد أخذ يَضيق بهجوم بيسّي عليه وأخْذِها بخناقه كلّما قال شيئًا لا تريد سماعه.

وسألها جيتر:

ـ «متى سيصبح دُيُود مبشِّرًا؟»

ـ «سوف يُلقي موعظةً صغيرة، يومَ الأحد القادم، في قاعة المدرسة. لقد بدأتُ أعلّمه ما الذي يجب أن يقولَه حين يبشّر.»

فقال جيتر:

ـ «يُخيَّل إليّ أنّ عليه أن يعرف ذلك بنفسه معرفة جيّدة. وليس عليكِ أن تعلّميه كلَّ ما يجب أن يعمله، أليس كذلك؟ ألا يعرف شيئًا؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «حسنًا، إنه لم يألف التبشير كما أَلِفْتُهُ. أنا ألقّنه ما يجب أن يقوله وهو يتعلّم كيف يقوله بنفسه. ولن تنقضي فترة طويلة حتى يفهم كلَّ شيء، وعندئذٍ أكفّ عن تعليمه. لقد قال لي زوجي السابق ما يجب أن أقوله، في ليلة سبت، وفي أصيل اليوم التالي ذهبتُ إلى المدرسة وألقيتُ موعظةً استغرقتْ ثلاث ساعات تقريبًا من غير انقطاع. إنها ليست مهمّة عسيرة إذا فهمْتَها. ولقد حدّثني دُيُود عن الموضوع الذي ستدور عليه موعظتُه، يومَ الأحد. وهو يعرف الآن ما الذي يجب أن يقوله في الموعد المقرر.»

ـ «ما الموضوع الذي سيبحثه في خطبته التبشيرية؟»

ـ «سيتحدّث عن الرجال الذين يلبسون قمصانًا سوداء.»

ـ «قمصان سوداء؟ ولماذا؟»

ـ «إسأله أنت. إنه يعرف.»

ـ «القمصان السوداء ليست، في اعتقادي، موضوعًا صالحًا لموعظة دينية. أنا لم أسمع بمثل هذا من قبل.»

ـ «تعالَ إلى قاعة المدرسة، بعد ظهر الأحد، تسمع الموعظة وتدرك الموضوع الذي تدور حوله.»

ـ «هل يعتزم أن يبشّر مع القمصان السوداء، أم ضدّ القمصان السود؟»

ـ «ضدّها.»

ـ «ولماذا أيّتها الأخت بيسّي؟»

ـ «ليس من واجبي أن أحدّثك عن مواعظ دُيُود. يجب عليك أن تذهب بنفسك إلى قاعة المدرسة وتستمع. إنّ المبشِّرين لا يحبّون أن تنتشر

Twitter: @ketab_n

أسرارُهم في طُول البلاد وعرْضها سلفًا. لأنهم إن فعلوا ذلك لَما تجشّم أحدٌ عَناء الذهاب والاستماع إليهم.»

ـ «قد لا أعرف شيئًا عن التبشير، ولكنّي لم أسمع قبل اليوم أنّ مبشِّرًا تحدّث في موعظته عن الرجال اللابسين قمصانًا سوداء... مهاجمًا هذه القمصان. وأنا لم أرَ أيّ إنسان لابسًا قميصًا سوداء، على كلّ حال.»

ـ «على المبشِّرين أن ينفّروا في مواعظهم من شيء. وليس لهم أيّ مصلحة في أن يبشّروا بشيء من الأشياء. يجب أن يكونوا ضدّ أمرٍ من الأمور، دائمًا.»

فقال جيتر:

ـ «أنا لم أفهم المسألة على هذا الشكل من قبل. ولكنْ قد يكون في ما قلْتِهِ كثير من الصواب. ومع ذلك، خذي مثلًا الربّ والجنة ـ أنتِ لا تستطيعين أن تنفّري الناس منهما، أليس كذلك أيّتها الأخت بيسّي؟»

ـ «المبشِّرون الصالحون لا يبشِّرون بالله والجنة وأشياء من هذا القبيل. إنهم يرهّبون الناس دائمًا من شيء من الأشياء، كالجحيم والشيطان. تلك هي الأمور التي ينبغي أن يكونوا ضدّها. والتبشير بالله لا يعود على المبشِّر بأيّ نفع. يجب عليه أن ينفّر الناس من الشيطان وجميع الأشياء الشرّيرة الآثمة ويرهّبهم منها. ذلك ما يحبّ الناس أن يسمعوه من أفواه المبشِّرين. إنهم يريدون من الوُعّاظ أن يحدّثوهم عن الأشياء الرديئة.»

فقال جيتر:

ـ «أنتِ من غير شكّ امرأة قوية الحجة، أيّتها الأخت بيسّي. وينبغي أن يكون الربّ فخورًا بأن تعمل تحت رايته مبشِّرةٌ مثلكِ. ولكنّي لا أعرف ما سيكون رأيُه في دُيُود، وخاصة حين يأخذ في التبشير ضدّ الرجال اللابسين

Twitter: @ketab_n

قمصانًا سوداء. أنا لم أرَ في حياتي كلِّها رجلًا يلبس قميصًا أسود، على كلّ حال، ولستُ أظنّ أنّ شيئًا مثلَ هذا موجود في البلاد.»

وانحنى جيتر وراح يفرك جانب السيارة المنبعج بيديه، وقشرَ الدهان الظاهري بأظافره حتى تساقط معظمهُ على الأرض.

وقالت بيسّي:

ـ «متى ستنتهي من اللعب بسيارتي؟ أليس عندك فهم على الإطلاق؟ لقد نزعتَ أنت وإيدا بأعمالكما هذه جميع الدهان عنها تقريبًا.»

فسألها جيتر:

ـ «بيسّي، أنتِ لا تتحدثين معي بهذه اللهجة، أليس كذلك؟ أنا لم أؤذِ سيارتكِ أكثر ممّا آذاها الاصطدام بشجرة الصنوبر.»

ـ «حسنًا، أَبْعِدْ يديك عنها، على كلّ حال.»

وابتعد جيتر، فاستند إلى زاوية البيت ونظر إلى بيسّي نظرة مغضبة، ولكنه لم يقل شيئًا.

وقالت بيسّي:

ـ «كدتُ أُتلف سيارتي الجديدة نتيجةً لسماحي لك بالعبث بها. كان يجب أن أكون أعقل من أن أدعك تقترب منها. إنّ نَقْل حِمْل السنديان الأسود إلى أوغوستا قد مزّق المقعد الخلفيّ تمزيقًا كبيرًا.»

فسألها وقد وقف منتصب القامة عند زاوية المنزل:

ـ «تنوين أن لا تسمحي لي بركوبها على الإطلاق؟»

Twitter: @ketab_n

ـ «لا يا سيدي! أنت لن تركب في سيارتي الجديدة بعد اليوم. هذا هو السبب الذي جعلني لا آخذك معي لترى توم هذا الصباح، وأنا أريد أن لا تقترب منها أيضًا.»

فقال جيتر وهو يحوّل ثقله عن إحدى قدميه إلى الأخرى، جاذبًا الألواح الخشبية المتهرّئة من خلفه:

ـ «وحقِّ الربّ وحقِّ المسيح، إذا كانت هذه نيّتكِ ففي استطاعتِكِ أن تغادري أرضي. أنا لستُ مرتاحا جدًّا لوجودكِ هنا على كلِّ حال.»

ولم تدرِ بيسّي ما تقول. وتلفّتت تبحث عن دْيُود، ولكنّها لم تجده.

ـ «تريد أن تطردني؟»

ـ «لقد بدأتُ بذلك فعلًا. لقد قلتُ لكِ الآن أن تخرجي من أرضي.»

ـ «إنها ليست ملكك. إنها أرض الكابتن جون. إنه هو صاحبها.»

ـ «إنها ملك ليستر القديم. وليس للكابتن جون حقوق في هذه الأرض أكثر من أيّ إنسان آخر. إنّ جماعة الأغنياء المقيمين هناك في أوغوستا يأتون إلى هنا وينتزعون من الإنسان كلّ ما يملكه، ولكنهم لن يستطيعوا أن ينتزعوا هذه الأرض مني. وحقِّ الإلّه وحقِّ المسيح، لقد كان أبي يملكها، وكان أبو أبي من قبله، ولسوف أبقى فيها ما دمتُ على قيد الحياة. ولكنّي أريد أن أطردكِ ـ أُخرجي من هنا!»

ـ «أنا ودْيُود ليس عندنا مسكن نذهب إليه. لقد تهرّأ سقف منزلي كلُّه، وأَوْشك أن يسقط.»

ـ «سيّان عندي. أنا لا يهمّني أين تذهبان. ولكنكما سوف تخرجان من هذه الأرض. إذا لم تسمحا لي بركوب السيارة الجديدة عندما أشاء فلن

Twitter: @ketab_n

أسمح لكما بالبقاء هنا. لقد تعبتُ من النظر إلى الثقبين القذرين اللذين في أنفكِ، على كلّ حال.»

فصاحت بيسّي وقد هجمت عليه وراحت تخدش وجهه بأظافرها:

ـ «يا ابن الساقطة! أنت لستَ إلّا ابن ساقطة قذر عجوز. وأسأل الله يذهب بكَ إلى جهنّم مباشرةً، ولا يسمح لك بالخروج منها على الإطلاق!»

وحين سمعت إيدا صياح بيسّي، أقبلت تركض حول زاوية البيت. فما إن رأت إلى وجه جيتر الدامي حتى اجتاحتها عاصفة من حنق لا يقاوم. فراحت تضرب بيسّي بجُمع كفَّيْها، وترفسها بقدميْها.

وأقبل دْيُود يعدو أيضًا. ثم وقف يشهد المعركة فيما كان ثلاثتهم يتضاربون ويخدش بعضهم وجوه بعض. وابتسمت إللي ماي من وراء إحدى شَجَرات الأَزْدَرَخْت.

وانسحبت بيسّي. كانت إيدا وجيتر قد اجتمعا على ضربها، ولم يكن في مَيْسورها أن تقاوم. وانطلقت نحو السيارة ووثبت إليها. وتناول جيتر إحدى العِصِيّ وراح يضربها بها عدَّة مرّات قبل أن تنتزعها إيدا منه وتشرع

Twitter: @ketab_n

في وكز أضلاع بيسّي بها. والواقع أنّ طرف العصا الحادّ آذاها أكثر ممّا آذتْها ضربات جيتر على الرأس والكتفين، فصاحت من الألم صياحًا شديدًا.

وأقبلت كلٌّ من إللي ماي والجدّة العجوز من وراء شجرتي الأَزْدَرَخْت وشهدت كلّ ما كان جاريًا.

ووثب ذِيُود إلى السيارة وارتدّ بها نحو الطريق بأسرع ما يستطيع. لقد آثر الانضمام إلى جانب الأخت بيسّي. ذلك بأنه كان يحبّ أن يقود إحدى السيارات حبًّا عظيمًا جعله لا يتركها تمضي لسبيلها بسببٍ من مُشادّة صغيرة كهذه.

وركضت الجدّة العجوز، التي كانت تراقب المعركة منذ البدء، عَبْرَ الفِناء لكي تختبئ خلف شجرة أَزْدَرَخْت أخرى حيث تستطيع أن ترى ما الذي كان يجري، على نحوٍ أفضل. ولم تكد تنتهي إلى نقطة متوسطة ما بين شجرَتَي أَزْدَرَخْت حتى صدمَتْها مؤخّرة السيارة، فطرحَتْها أرضًا، وجرت فوقها.

وأطلتّ بيسّي من السيارة، هازّةً قبضتيها، ساخرةً من إيدا وجيتر. ولحق الاثنان بالسيارة حتى طريق التبغ.

وصاحت بيسّي بأعلى صوتها الجهوري:

ـ «كلُّكم يا أبناء ليستر أولاد زنا قذرون!»

وتناولت إيدا صخرة كبيرة وقذفتها إلى السيارة أقوى ما تستطيع القذف. ولكنّ بيسّي وذِيُود كانا قد ابتعدا بِضْعَ مئاتٍ من الأميال، فلم تنتهِ صخرة إيدا إلى أبعدَ من ثلاثة أرباع المسافة، وبذلك سقطت دون الغاية. وكان عليها أن تدرك أنها عاجزة عن قذف مثل هذه الصخرة الكبيرة. لقد كانت في حجم غطاء الموقد.

Twitter: @ketab_n

- 18 -

وبعد أن خمد ثائر الغبار، انقلبت إيدا وجيتر إلى الفِناء. وكانت الجدّة لا تزال منطرحةً هناك، وقد رُضّ وجهُها وعُفِّر بالرمل الأبيض القاسي. ومن زاوية المنزل رأت إللي ماي إلى ما حدث.

وتساءلت إيدا وهي تنظر إلى جيتر:

ـ «هل ماتت؟ إنها لا تُطلع صوتًا، ولا تتحرك. ولا أظنّ أنها ستبقى حيةً ما دام وجهُها قد رُضّ على هذه الصورة.»

ولم يُجِبْها جيتر بكلمة. كان مستغرقًا في التفكير بكراهيته لبيسّي إلى درجة جعلتْه لا يبالي بشيء. ثم إنه ألقى نظرةً أخرى على أمّه ومضى عَبْرَ الفِناء واحتجب عن الأبصار خلف المنزل. وتقدّمت إيدا نحو الشرفة، ووقفت هناك ملتفتةً إلى الجدّة بِضْعَ دقائق، ثم تابعت سبيلها، وأوصدَت الباب.

وحاولَت أمّ جيتر أن تستدير لكي تتمكّن من النهوض والذهاب إلى المنزل. ولم تستطع أن تحرّك يديْها أو رجليْها من غير ألم لا سبيل إلى احتماله، واستشعرتْ وكأنّ رأسَها قد فُلق فَلْقًا. كانت السيارة قد صدمتْها في قوّة جعلَتْها لا تدري بأيِّ شيء ارتطمت. وكان الدولابان اليساريّان قد دارا فوقها، أحدهما عَبْرَ طَرَفِها، والآخر على رأسها. ولم تدرِ ما الذي

Twitter: @ketab_n

أصابها. ولكنّها كانت ترجو قبل كلّ شيء أن تُوفَّق إلى النهوض والاستلقاء على سريرها. وبذلت جهدًا أخيرًا لرفع رأسها وكتفيْها عن الرمل الصلب، وحاولتْ أن تستدير، وبعد ذلك انطرحت وليس فيها حراك.

وحين انتهى جيتر من تجرُّع شربةٍ من الماء، عند البئر، تقدّم نحو غَيْضَة الرَّتَم، رافسًا الأرض بأصابع رجليْه ليرى مقدار جفافها. كان يعتقد أنّ الأرض كانت على رطوبة ملائمة للحراثة، ولكنه أراد أن يستوثق من ذلك لأنه كان على يقينٍ من أنه قادر على أن يستعير بغلًا من مكانٍ ما، ويشرع في حرْث الأرض وزرعها في مطلع الأسبوع التالي.

وفيما كان جيتر يمشي حول شَجَرات الرَّتَم المرتفعة ارتفاع خصر الإنسان، ركض لوف على طريق التبغ، لاهثًا وليس على رأسه قبّعة. ولم يكد يبلغ الفِناء الأماميّ حتى صاح مناديًا جيتر، فهرع هذا من مجتمع الرَّتَم ليلقاه، وليستطلع حقيقة البلاء.

كان لوف مرتديًا وِزْرته القَذِرة السوداء، تلك الوِزْرة التي اعتاد لبْسَها في المستودع حين يجرف الفحم. وكانت قبّعته قد طارت عن رأسه حين أقبل يعدو الى بيت جيتر فلم يشأ أن يضيّع الوقت في الارتداد والبحث عنها. وكان شعر لوف الأحمر الناري قد قفّ من الذعر، وكان في العادة يتدلّى على جبينه ويغشى عينيه.

وبَصُر بالجدّة العجوز منطرحةً في الفِناء، فتمهّل ليرى إليها، ولكنه لم يُطِل الوقوف، بل استأنف العَدْوَ حتى انتهى إلى جيتر.

وقال جيتر:

ـ «ماذا تعمل هنا في هذه الفترة من النهار، يا لوف؟ لماذا تركتَ العمل في مستودع الفحم؟»

Twitter: @ketab_n

وصمت لوف بِضْعَ دقائق. كان مضطرًّا إلى الانتظار حتى يستعيد أنفاسه المبهورة، فقعد على الأرض، وجلس جيتر القرفصاء إلى جانبه.

ولم يكونا بعيديْن عن البئر. وكانت إللي ماي واقفةً قُرْبَ البئر تشرب من الدلو عندما التقى لوف عمَّه، ولكنّها لم تفرّ في الحال. لقد انتظرتْ حتى قعد لوف، وهكذا كان في استطاعتها أن تسمع ما الذي كان يريد أن يقوله لجيتر.

وسأله جيتر:

ـ «ما القصة يا لوف؟ ما الذي حصل في مستودع الفحم حتى ركضْتَ إلى هنا بمثل هذه السرعة؟»

ـ «بيرل ـ بيرل ـ لقد هربَت!»

فقال جيتر في رباطة جأش، وقد ساءه أن لا يكون الخبر أكثر إمتاعًا:

ـ «هربتْ، إلى أين هربتْ بيرل، يا لوف؟»

ـ «هربتْ إلى أوغوستا!»

فقال جيتر متصدّرًا:

ـ «ذهبتْ إلى أوغوستا؟ ظننتُ أنها اكتفت بالذهاب إلى الغابة لتقضيَ فترةً قصيرة هناك، كما تعوّدت أن تفعل دائمًا. هل تعرف لماذا فرّت إلى أوغوستا؟»

فقال لوف:

ـ «لست أدري. ولكنّي أظنّ أنها فرّت والسلام. ولا أعرف سببًا آخر لذلك. فأنا لم أؤذها هذا الصباح، ولم أعمل لها شيئًا. كلّ ما عملْتُه أني ألْقَيْتُها على السرير، فتملّصَتْ من بين يَديّ ولم أرَها منذ ذلك الحين.»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ «ماذا كنتَ تحاول أن تعمل لها؟»

ـ «لا شيء. كنت أحاول أن أربطها ببعض الحبال لأرى ما إذا كنتُ أستطيعُ ذلك، ليس غير. فقد تصوَّرْتُ أنها ستبقى في السرير إذا شَدَدْتُها إليه. وكنت أعتزم أن أفكَّ وِثاقَها في أقرب وقت.»

ـ «كيف عَرَفْتَ أنها فرّت إلى أوغوستا؟ لقد ذهبتْ إلى مكانٍ ما في الغابة، لا أكثر. هل أخبرَتْكَ هي أنها عازمة على الفِرار إلى أوغوستا؟»

ـ «إنها لم تقل لي شيئًا.»

ـ «وإذن فما الذي يحملكَ على الاعتقاد بأنها ذهبت إلى هناكِ لا إلى مكانٍ ما في الغابة؟»

ـ «أنا لم أعرف شيئًا عن فِرارها إلّا بعد أن جاء جونز بيبودي إلى مستودع الفحم وأخبرني أنه لَقِيَها قُرْبَ أوغوستا وهو عائدٌ إلى فولر بسيارة شحن فارغة. لقد قال لي إنه وقف وسألها إلى أين كانت ذاهبة، وما إذا كنتُ أعرف أنها قد غادرت المنزل ولكنّها لم تُجِبْه بكلمة. لقد قال إنها بدت مذعورة حتى الموت. وعندئذٍ جاء في الحال وأخبرني بالأمر، قائلًا إنه يعرف أنني لا أعلم شيئًا عن الحادث.»

فقال جيتر وهو يفرقع أصابعه، ويردّ رأسه إلى جانب:

ـ «كانت بيرل مثلَ ليزي بيلّ تمامًا. فقد ذهبتْ ليزي بيلّ إلى أوغوستا هكذا. ولم أعرف شيئًا عن الحادث إلّا بعد أن رأيتُها مَرَّةً في أحد الشوارع هناك. فسألْتُها ما الذي حملها على الفِرار من غير أن تحدّث أمَّها وتحدّثني في ذلك، ولكنّها لم تُجِبْ بكلمة. وكنتُ أظنّ أنها قصدت إلى الغابة لتقضيَ فترةً هناك ولكنّي عرفتُ أنها ليزي بيلّ حالما نظرتُ إليها. كانت ترتدي ثوبًا على الزيّ الحديث وقبّعة، ولكن الثوب والقبّعة لم يتمكّنا من خداعي. لقد عرفتُ أنها ليزي بيلّ، حتى بعد أن رفَضَت التكلم معي. كانت تعمل طُولَ

Twitter: @ketab_n

تلك المدَّة في مَصنعٍ من مصانع القطن على الضفة الأخرى من النهر، وبعد ذلك عرفتُ لماذا فرّت من المنزل، لأنّ إيدا أخبرَتْني. لقد قالت لي إيدا إنّ ليزي بيلّ تريد أن ترتدي ثوبًا على الزيّ الحديث وقبّعة، ففرّت إلى هناك لتشتغل في أحد مصانع القطن لكي تستطيع أن تشتريَ هذه الأشياء كلَّها بنفسها.»

فقال لوف:

ـ «بيرل لم تقل لي مطلقًا إنها تريد فستانًا على الزيّ الحديث وقبّعة. أنا أكسب في مستودع الفحم دولارًا واحدًا يوميًّا، ولقد كان في استطاعتي أن أشتريَ لها فستانًا وقبّعة لو قالت لي إنها تريدهما. ولكنّ بيرل لم تقل لي شيئًا في يوم من الأيام ـ إنها لم تقل شيئًا لأحد من الناس. كانت تنام على الأرض في حشيّة القشّ الملعونة تلك، ولا تلبّي مطالبي كلّما سألتُها أن تعمل شيئًا أريدها أن تعمله.»

ـ «أظنّ أنّ أفضل شيء تستطيع أن تعمله يا لوف هو أن تتركها حيث هي. إنها لم تكن قانعة بالحياة هنا، على طريق التبغ، وإذا حاولتَ أن تعيدها إلى منزلكَ فلا شكّ في أنها سوف تفرّ من جديد بسرعة مضاعفة. إنها مثل ليزي بيلّ، وكلارا، وسائر بناتي تمامًا. أنا لا أستطيع أن أتذكّر جميع أسمائهن الآن، ولكنهنّ كنّ جميعًا مثلَ بعضهنّ. لقد أردن جميعًا فساتين على الطراز الحديث، ولم تعجبهنّ ثياب الشيت الجميلة والثياب القطنية المخطَّطة التي كانت أمُّهن تخيطها لهنّ. حسنًا، وإيدا ليست قانعة أيضًا، ولكنّها لا تستطيع أن تفعل شيئًا من هذه الناحية. إنها لا تتحدّث بعد اليوم عن شراء قبّعة وفساتين على الزيّ الحديث، باستثناء فستان تموت وهو على جسدها، وتُدْفَن وهو على جسدها. إنها تتحدث عن فستان على الزيّ الحديث تموت فيه، ولكنّها لن تحصُل عليه، وهي تعرف أنها لن تحصُل عليه. سوف تموت وتُدْفَنُ في التراب وهي لابسة ثوب الشيت الأصفر الذي

Twitter: @ketab_n

ترتديه الآن. لقد حُلْتُ بين إيدا وبين الفِرار، ولكنّي لم أستطع أن أفعل ذلك مع بناتي الصغيرات. فقد كان هناك عدد كبير منهن يجعل الإنسان عاجزًا عن إخضاعهن. وهكذا حملنَ أنفسهنّ وذهبن.»

وقال لوف:

ـ «لعلّها تعود. هل تظنّ أنها سوف تعود، يا جيتر؟»

ـ «مَن ـ بيرل؟ حسنًا، لو كنتُ في مكانكَ لما علَّقْتُ أيَّ أمل عليها. لقد هربَتْ ليزي بيلّ ولم تعدْ في يومٍ من الأيام. بل إنّ أيًّا من بناتي الباقيات لم تَعُدْ على الإطلاق.»

ـ «لست أدري لماذا، ولكنّي لا أحبّ أن أخسرها على هذه الصورة. إنها فتاة صغيرة جميلة ـ كانت غدائرها الذهبية الطويلة المتدلّية على ظهرها تجعلني دائمًا أكره الساعة التي ستكبر فيها وتصبح عجوزًا. ولقد كنتُ أقعدُ على الشرفة وأراقبُها من خلال النافذة وهي تمشِّط شعرها وتفرْشيه في غرفة النوم.»

فقال جيتر:

ـ «من المؤكّد أنّ ما تقوله صحيح. كان لبيرل أروع شعر ذهبيّ رأيتُه في حياتي. ومن العار أن تكون عندها تلك العادة التي تحملها على الانعزال دائمًا، لأني كنتُ أحبّ أن أبقيَها أمامي. وكم أتمنى لو كانت إيدا جميلة إلى هذا الحدّ. ولكنّها كانت، حتى في صباها، بَشِعةً إلى حدٍّ لعين جعلها خطيئة من الخطايا. أنا لم أرَ في حياتي امرأة أبشع منها في البلاد كلِّها، باستثناء تلك المبشِّرة الملعونة، بيسّي. فهذان الثقبان القذران اللذان في وجهها لا يعودان على من ينظر إليهما بخير على الإطلاق.»

ـ «كانت بيرل دائمًا تُضيع وقتًا كثيرًا في الزينة والتبرج، كما تفعل النساء. وكنتُ أحبّ أن أقول لها إنه ليس في البلاد كلِّها فتاة واحدة في مثل

Twitter: @ketab_n

جمالها، ولكنّها ما كانت تصغي إليّ. ولقد عشت معها فترةً طويلة إلى درجةٍ جعلتْني أتعوّد رؤيتَها كُلَّ يوم، ولست أدري ما الذي سوف أفعلُه الآن بعد أن ذهبتْ إلى أوغوستا لتقيم فيها. سوف أفتقد تلك الغدائر الذهبية الطويلة المتدلّية على ظهرها، ووجهها الجميل أيضًا. وعلاوةً على ذلك، فأنا لا أعرف شيئًا أحلى من النظر إلى عينيها الزرقاوين الشاحبتين في الصباح الباكر، قبل أن ترتفع الشمس ارتفاعًا يُلقي كثيرًا من النور فيهما. كانت عيناها، أجمل شيء يطمع المرء في أن يراه، في الصباح الباكر. ولكنهما كانتا جميلتين في أيّ لحظة من أوقات النهار، وفي بعض الأحيان كنت أجلس ويرتجف جسمي كلُّه بدافع رغبتي في أن أضمَّها إلى صدري ضمًّا شديدًا. ولا أظنّ أنّي سوف أنسى في يومٍ من الأيام كم كانت عيناها جميلتيْن في الصباح الباكر عند إشراق الشمس تمامًا.»

فاقترح جيتر:

ـ «لعلّك تحبّ أن تأخذ إللي ماي معك إلى بيتك، يا لوف؟ فإللي ماي لا زوج لها، ويبدو أنها لن تحصُل على زوج في يوم من الأيام، إلّا إذا أحبَبْتَها أنت. لقد عانقْتَها وعانَقَتْكَ، وهصَرْتَها وهصَرَتْكَ، أمام المنزل، في مطلع الأسبوع الماضي. ولعلّك تريد أن تقوم بمثل ذلك مرّةً أخرى؟»

فسأله لوف:

ـ «إذا ذهبتُ إلى أوغوستا ووجدتُها فهل تظنّ أنها تسمح لي بأن أعيدَها إلى المنزل؟ هل تظنّ ذلك، يا جيتر؟»

فقال جيتر:

ـ «مَن ـ بيرل؟ لا، أنا لا أنصحك بذلك. سوف تُضيع ساعات عملك في مستودع الفحم بالبحث عنها. وكما قلتُ لك منذ البدء، إنّ بيرل مثل ليزي بيلّ وكلارا وسائر الفتيات تمامًا. كانت فكرة الحصول

Twitter: @ketab_n

على فساتين مَخيطة على الزيّ الحديث تُفقدهنّ عقولهنّ. وما كانت واحدة من بناتي تحبّ أن تلبس ثياب الشيت والثياب القطنية المخطّطة التي خاطَتْها إيدا.»

ـ «ولكن بيرل... إنها قد تصاب بأذًى، هناك، في أوغوستا.»

ـ «لقد انتبهتْ ليزي بيلّ وكلارا لنفسيهما انتباهًا حسنًا، أليس كذلك؟ إنهما لم تصابا بأذًى على الإطلاق. والآن، فلنعدْ إلى إلْلي ماي. في استطاعتك أن تأخذها إلى بيتك، يا لوف. إنها لن تطمع بأكثر من الذهاب إلى هناك، والبقاء طُولَ الوقت في المنزل، وهي لن تنام في يومٍ من الأيّام في حشيّة القشّ الملعونة المطروحة على الأرض، أيضًا.»

ـ «كان منظر تلك الغدائر الذهبية الطويلة المتدلّية على ظهرها يحملني على البكاء في بعض الأحيان. وكنت أحدِّق إلى شعرها الجميل وإلى عينيها تحديقًا طويلًا جعلني أخشى أن أُجَنّ إذا لمْ أمسّها أو أنظر إلى أعماق عينيها. ولكنّها ما كانت تسمح لي بالاقتراب منها، وهذا ما جعل الدموع تسيل من عينيّ، في ما أظنّ. لقد كنتُ أكثرَ الرجال شعورًا بالوحدة، في البلاد كلِّها، ومنذ عهد طويل جدًّا. كانت بيرل جميلة جدًّا إلى حدٍّ يجعل عملها ذلك خطيئة من الخطايا.»

ـ «إنّ على إللي ماي أن تبحث عن رجل في مكانٍ ما. إنها لا تستطيع أن تبقى هنا العمرَ كلَّه. فحين أموت أنا وإيدا فلن يكون هناك إنسان يتولّى أمرها. وإذا بقيَت في هذا المنزل، وحدها، فعندئذٍ يستعدّ الزنوج ويأتون إلى هنا بالعشرات. إنها سوف تقع تحت رحمة الزنوج إذا بقيت وحدها في هذا المكان.»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ «إنّ آخر هديّة حملْتُها إلى بيرل كانت بعضَ الخرز الأخضر المنظوم في سلك طويل. لقد جئتُ به من أجلها، فوضعَتْه حول عنُقها، وأُقسم بالله أنه جعلها أجمل فتاة صغيرة رأيتُها أو سمعتُ بها في البلاد كلِّها.»

فقال جيتر:

ـ «إذا أردت أن تأخذ إللي ماي معك الآن فسأقول لها أن تتزيّن وتستعدّ للذهاب.»

ـ «قد آخذ إللي ماي فترةً من الزمان، وقد لا آخذها. ولكنّي لا أزال أجهل ما الذي يجب أن أعمله في مسألة بيرل. ليتني أستطيع إقناعها بالعودة.»

ـ «إنّ إللي ماي لها...»

فقال لوف:

ـ «إللي ماي لها ذلك الوجه البشع. لست أدري ما إذا كنتُ سأحبّ النظرَ إليها طُولَ عمري.»

فقال جيتر:

ـ «لا بدّ أن تتعوّده شيئًا بعد شيء. إنّ شفتها ما عادت تزعجني الآن، لقد اعتدتُ النظر إلى ذلك الشَّرْم ولم أعدْ ألحظه على الإطلاق.»

ونهض لوف واستند إلى البئر. واعتصم بالصمت فترةً طويلة، وراح يُجيل طَرْفه الشارد في غَيْضَة الرَّتَم. وراقبه جيتر، وقطع بمِدْيَتِه عودًا صغيرًا.

وكانت إللي ماي واقفة، آنذاك، خلف إحدى شَجَرات الأَزْدَرَخْت. كانت قد انتقلت من واحدة إلى أخرى فيما كان لوف وجيتر يتجاذبان أطراف الحديث. وكانت قد انتهت آخِرَ الأمر إلى مكان قريب يمكّنها من سماع ما يقولان.

Twitter: @ketab_n

وفجأةً استدار لوف ونظر إلى إللي ماي. فأشاحت بوجهها محتجبةً خلف شجرة الأَزْدَرَخْت قبل أن يوفّق إلى رؤيتها.

وقال:

ـ «صار ينبغي أن أرجع إلى المستودع. إنّ قطار الشحن على وشك أن يأتي، وهو يستهلك دائمًا جميع صناديق الفحم. يجب عليّ أن أعود وأملأها قبل أن يأتيَ قطار المسافرين. إنهم يغضبون غضبًا جنونيًّا حين يجدون الصناديق فارغة لأنّ معنى ذلك أن يبقى القطار منتظرًا حتى أتمكّن من تعبئتها.»

وانعطف هو وجيتر حول المنزل قاصدَيْن إلى الفِناء الأمامي. إنّ أحدًا منهما لم يتذكر الجدّة العجوز إلّا عندما بَصُرا بها منطرحة على الرمل. كانت منبطحةً على بطنها، وكان وجهُها مرضوضًا معفَّرًا بالتراب، ولكنّها كانت قد تقدّمت بضعةَ أقدام نحو المنزل.

وقال لوف:

ـ «ماذا حدث لها؟»

ـ «لقد دهسَها دْيُود وبيسّي وهما يرجِعان بالسيارة إلى الوراء ساعةَ غادرا المنزل. كانا يحاولان الفِرار قبل أن أتمكّن من ضرب بيسّي مرّةً ثانية، فمشت الدواليب فوقها. لقد صرتُ أكره تلك المبشِّرة حتى الموت، الآن، ولن أدَعَها تضع قدمها على أرضي بعد اليوم. لقد عاملتني معاملة سيئة في ما يتعلق بركوب السيارة. إنها لم تسمح لي بأن أركبها على الإطلاق.»

وتقدّم لوف إلى حيث كانت الجدّة العجوز ملقاةً على الرمل الأبيض القاسي. كان الدم السائل من جرحها قد انقطع. ولم يكن يُسمع لها صوت.

وقال:

ـ «هي تبدو وكأنها ميْتة. أهي ميْتة، يا جيتر؟»

Twitter: @ketab_n

وخفض جيتر بصره وحرّك إحدى ذراعيْها بقدمه:

ـ «إنها لم تتصلّب بعد، ولكنّي لا أظنّ أنها ستعيش. ساعِدْني على حَمْلها إلى الحقل، ولسوْفَ أحفر لها حفرة وأدفنها فيها.»

وحملا الجثة من يديْها ورجليْها، ووضعاها في غَيْضَة الرَّتَم. ومضى جيتر إلى ما وراء عنبر الذرة يلتمس مِجرفة.

وقال جيتر:

ـ «فكِّرْ في ما قلتُه لك حول إللي ماي. سوف أبعث بها إلى منزلك، في الوقت المناسب، لكي تطبخ لك عشاءك هذه الليلة. إنّ إللي ماي لن تعاملَك معاملةً سيئة مثل بيرل. إنها لن تنام على فراش من قشّ مطروح على أرض الغرفة.»

وهبط لوف طريق التبغ عائدًا إلى مستودع الفحم. لقد جرجر قدميْه على طُولِ الطريق، مالئًا حذاءه بالرمل. ولم يلتفت إلى الوراء قَطّ.

ومضى جيتر إلى الحقل حاملًا المِجرفة، وشرع يحفر قبرًا يدفُن فيه أمّه. وظلّ يحفر نحوًا من عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، ثم نادى إللي ماي، وكانت واقفة في الفِناء، خلف إحدى شَجَرات الأَزْدَرَخْت، منتظرةً أن يدعوَها جيتر للذهاب إلى منزل لوف.

وقال لها وهو يتكئ مُجْهَدًا على ذراع المِجرفة:

ـ «تزيّني واذهبي إلى منزل لوف وقومي بشؤونه كلِّها. سوف يعود لتناول طعام العشاء الليلة، فاطبخي له ما يطلبه منكِ.»

وانطلقت إللي ماي إلى المنزل قبل أن يتمكّن من إتمام تعليماته إليها. إنها لم تستطع أن تنتظر فترةً أطول.

ورفع مقدارًا إضافيًّا من التراب جاعلًا الحفرة أطول بعض الشيء.

Twitter: @ketab_n

وفي أقلّ من خمس دقائق خرجت إللي ماي من المنزل، وراحت تعدو نحو الطريق. واطّرح جيتر المِجرفة وأنشأ يركض خلفها ويخاطبها صائحًا:

ـ «إرجعي إلى هنا في الصباح بعد أن يذهب لوف إلى العمل واحملي معكِ شيئًا نأكله، هل تسمعين؟ إنّ لوف يكسب دولارًا كلّ يوم في مستودع الفحم، وعنده طعام كثير لا يحتاج إليه. أنا وأمّكِ ليس عندنا شيء هنا. نحن نجوع في بعض الأحيان. تذكّري ذلك.»

كانت إللي ماي قد اجتازت الفِناء كلَّه عَـدْوًا، وكانت تنطلق نحو منتصف طريق التبغ، بأقصى ما تستطيع من سرعة. وقبل أن يتمكن جيتر من أن يقول شيئًا آخر لها كانت قد أمست على بُعد مئة ياردة. كان يريد أن يقول لها أن تأتيه في الصباح التالي، مع الطعام المطبوخ، بوِزرة من وِزرات لوف أيضًا. ولكنّها كانت تتعجّل الوصول إلى منزل لوف تعجّلًا كبيرًا فلم يشأ أن يؤخّرها. إنّ في استطاعتها أن ترجع مرّةً ثانية، بعد غد، وفي يدها تلك الوِزرة.

Twitter: @ketab_n

- 19 -

لقد انقضى موسم الحراثة، وطَـوالَ الأسبوعين الأخيرين من شباط كان الجوّ جافًّا، وكانت التربة سهلة التفتت. ولم يعرف الناس في مدى ست سنوات أو سبع سنوات موسمًا أكثر ملاءمة للحرث والزرع من ذلك الموسم. ففي مثل ذلك الوقت من كلّ عام كان من عادة السماء أن تمطر كلّ بضعة أيام، فإذا الأرض رطبة مبلّلة على نحوٍ موصول. أمّا هذه السنة فقد بدأ الموسم في منتصف شباط بسماء صافية، وهبّتْ نسائم عليلة فعملت على تجفيف التربة منذ انقطعت أمطار الشتاء عن التهطال.

وكان مزارعو فولر المعتزمون إنتاج القطن هذه السنة قد أنجزوا حراثة أراضيهم في أواخر الشهر. وفي مثل هذه البداءة المبكرة أمّل الناس أن يعطيهم كلُّ أكرٍ من الأرض بالةً من القطن، حين يُقبل الخريف، شرط أن يظلّ الجوّ حارًّا خلال موسم النماء. وكان جميع المزارعين يغذّون الأرض بكلّ ما استطاعوا شراءه من سماد الطير، ولم يكن ثَمَّةَ حدٌّ لعدد أرطال القطن التي يمكن للأكر الواحد أن يُنتجها إذا استطاعوا شراء مقادير من السماد الكيميائي، واستعملوها في سخاء. وكان استنبات بالةٍ من كلّ أكر هو أقصى ما يطمع فيه مزارعو القطن في منطقة فولر. ولكنّ دودةَ القطن وأمطارَ الصيف الغزيرة كانت تُتلف، عادةً، نصفَ المحصول. ومن ناحية ثانية، فلو

Twitter: @ketab_n

قد كان الموسم خصبًا، فعندئذٍ ينزع السعر إلى أن يهبط عمّا كان عليه من قبل. ولم يكن هناك كثيرٌ من الناس يحبّون أن يشتغلوا طُولَ السنة ليبيعوا القطن، عند الخريف، بستة سنتات أو سبعة سنتات.

وسلخ جيتر موسم إحراق الرَّتَم وشُجَيْرات الصنوبر، وموسم حراثة الأرض من غير أن يأتيَ عملًا ما. ولم يكن الأوان قد فات بالكلّيّة، ولكنّ جيتر لم يكن عنده بغل، ولم يكن ثَمَّةَ مَن يكفله فيشتري بزر القطن وسماد الطير من مخازن البلدة. وكان قد عاش، حتى تلك السنة، على رجاء أن يحدث شيء في اللحظة الأخيرة يزوّده بالبغل الذي يريد وببزر القطن وسماد الطير. أمّا الآن فقد بدا له أنّ من العبث الاعتقاد بإمكان الحصول على شيء من ذلك بعد اليوم. كان لا يزال في استطاعته أن يتطلّع إلى السنة الجديدة آمِلًا أن يزرع محصولًا من القطن، ولكنّ هذا الأمل انتهى إلى أن يكون أقلّ اتّقادًا من ذي قبل. لقد استشعر أنه ينحدر من سيِّئ إلى أسوأ، عامًا بعد عام، حتى لقد بلغت ثقته بالله وبالأرض، الآن، تلك المرحلة التي يفقد فيها المرء عقله وروحه إذا ما مُنِيَ بخيبة أمل جديدة. وكان لا يزال عاجزًا عن أن يفهم لماذا كان مُعْدِمًا لا يملك شيئًا، ولن يملك شيئًا. ولم يكن ثَمَّةَ أحدٌ يدري أو يستطيع أن يُفهمه. كان ذلك لغز حياته المستعصي على الحلّ.

ولكن حتى ولو لم يستطع أن يزرع شيئًا من القطن تلك السنة، ففي مَيْسوره أن يُعِدَّ العدّة لذلك على الأقلّ. في مَيْسوره أن يحرق الرَّتَم وغياض السنديان الأسود وشُجَيْرات الصنوبر الغضّة. في مَيْسوره أن يُعِدّ الأرض للحراثة لعلّ أمرًا ما قد يحدث فيمكّنه من أن يزرع بعض القطن. يجب أن يُعِدّ الأرض، فلعلّ...

وكان ذلك في ساعة متأخرة من الأصيل في اليوم الأول من شهر آذار. لقد اجتاز حقل القطن القديم، وسطَ شُجَيْرات الرَّتَم المرتفعة إلى خصره

Twitter: @ketab_n

تقريبًا، موجِّهًا وَجْهَه نحو غَيْضَة السنديان الأسود القائمة في مؤخّرة المنزل. وراح يرفس بقدمَيْه التربة السريعة التفتُّت البادية للعيان بين باقات الرَّتَم، قائلًا في ما بينه وبين نفسه إنه لا يزال ثَمَّةَ فسحة لاقتراض شيء من بزر القطن وسماد الطير من بعض المحالّ التجارية في فولر. كان يعلم أنّ ميقات التحريق والحراثة قد انتهى أمسِ، ولكنّ شيئًا من الموسم الجديد لا يزال متخلّفًا في هواء آذار الحارّ. وكانت ريّا التربة المحروثة منذ قريب وعبير دخان الرَّتَم والصنوبر لا يزالان يرفّان على وجه الأرض حتى بعد انقضاء أعمال الإحراق والحراثة. وأخذَ نفسًا عميقًا، مالئًا رئتيه من رَوائح النباتات العطريّة المُحيية.

وقال:

ـ «لعلّ الله أن يهيّئ لي وسيلة تمكّنني من أن أزرع محصولًا من القطن. إنه هو الذي خلق الأرض، والشمس، والمطر... فينبغي أن يبعث إليّ ببزر القطن وسماد الطير بطريقة من الطرق.»

واعتقد جيتر اعتقادًا جازمًا بأنّ شيئًا لا بدّ أن يحدث فيساعده على أن يبقي جسده وروحه على قيد الحياة. إنه لمّا يقطع الرجاء بعد.

كانت شمس الأصيل الجانحة إلى الغروب لا تزال دافئة، وكان الهواء عليلًا. ومنذ أسبوع تقريبًا لم يشهد الناس أيّ ليلة من الليالي الباردة. ولقد صار في مَيْسور الناس الآن أن يقعدوا، عند هبوط الليل، على الشرُفات أو السقائف الأماميّة، من غير أن يستشعروا برودةَ هواء شباط في الأمسيات.

كانت النسائمُ تهبّ من جهة المشرق. وكان الدخان الأبيض المنبعث من نار الرَّتَم ينعقد مرتفعًا إلى أعلى فتحمله النسائم في اتجاه المغرب، قبالَة البيت وطريق التبغ، بحيث كان في مَيْسور جيتر أن يراه. ووقف جيتر يراقب الدخان الأبيض وهو يبتعد عنه في تؤدة، ويشهد النار وهي تزحف

Twitter: @ketab_n

على الأرض تحت شُجَيْرات الرَّتَم الأسمر. كان ثَمَّةَ عدَّة مئات من أكرات الأرض يجب أن تُحرق، وكانت الحقول التي لم تُحرَث منذ مدة طويلة ـ بلغت بالنسبة إلى بعضها عشر سنوات، وبالنسبة إلى بعضها الآخر خمس عشرة سنة ـ مغطاةً بالعشب اليابس. ووراء الحقول كانت غابات الصنوبر الجيورجي الأصفر، والسنديان الأسود. ومن الجائز أن تضطرم النار وتشتعل من غير دخان ثلاثة أيام أو أربعة قبل أن تخمد هناك، على جنبات الجداول البعيدة.

وقال جيتر:

ـ «لو كان توم وبعض أولادي الكبار هنا لكان من الممكن أن يساعدوني في الحصول على شيء من بزر القطن وسماد الطير بطريقة من الطرق. أنا أعرف من أين أستعير بغلًا لو كان عندي بزر القطن وسماد الطير. ولكن البغل لا يفيدني شيئًا بدون سائر الأشياء. ولن يطلع في الأثلام الجديدة شيء غير الرَّتَم وغير بعض النبتات الصغيرة من السنديان الأسود.»

وانقلب إلى منزله ليقعد فترةً على درجات السُّلَّم الخلفيّة قبل أن يأوي إلى الفراش، وليراقب خطّ النار الأصفر الطويل في غَيْضَة الرَّتَم.

وكان الليل قد هبط منذ فترة طويلة عندما دخل إلى المنزل. ومن نافذة حجرة النوم حيث وقف يخلع نعليه الثقيلين، راقب جيتر، في افتتانٍ وذهول، النار البعيدة التي أحالها هبوط الليل حمراء لاهبة. كان جزء منها قد سما إلى ما فوق التلال فليس يُرى منه غيرُ الوهج البرتقالي الباهت الذي يضيء السماء. وكان جزء آخَرُ منها قد تحلّق حول الحقول مثل أفاعٍ محاصَرة لا تجد سبيلًا إلى الفِرار، واشتعل على جانبَي البيت الاثنين. وفي الوسط، حيث وقف في ذلك الأصيل وأشعل عود الثقاب، كان في الأرض ثقبٌ مظلم عميق. ولسوف تظلّ الأرض سوداء حتى تعاودها السماء بمطر جديد.

Twitter: @ketab_n

واستلقى في فراشه، بعد أن نامت إيدا، فترةً طويلة لم تغتمض فيها عيناه. كان الهدوء مخيّمًا على المنزل بعد أن لم يعدْ ثَمَّةَ شخص آخر يشاركهما الإقامة فيه.

وتقلّب جيتر. واستدار وقد استرْوَح عبير دخان الصنوبر والرَّتَم في نسيم الليل. وفي الوقت نفسه، انتهت إليه رائحة الأرض المحروقة حديثًا من مكان غير قريب. فرفع بصره إلى السقف الأسود وأقسم في وقار وخشوع لينهضنّ صباحَ اليوم التالي ويستعيرنّ بغلًا من البغال. كان يعتزم أن يحرث قطعة صغيرة من الأرض ويزرعها قطنًا، إذا لم يقدَّر له أن يعمل أيّ شيء آخر بقيَّةَ عمره.

واستسلم للنوم عندئذٍ وذهنه حافلٌ بالأفكار الدائرة حول أرضه وعبيرها الزكيّ، وبعزْم جديد على أن يثير التربة ويستنبتَها شيئًا من القطن.

واشتعلت النار متّقدةً طَوالَ الليل. وامتدّت أكثرَ فأكثرَ في اتجاه الغرب حيث نمتْ شُجَيْراتُ الصنوبر الغضّة، واضطرمت خلال غَيْضَة السنديان الأسود تاركةً شجراتها قائمةً سوداء محترقة نصف احتراق. لقد امتنعت على الموت، أمّا الصنوبرات الغضّة فلم تمتنع.

وكان الضحى قد أخذ يرتفع، من ناحية المشرق، وانحرفت الريح نحو الشمال، سائقةً آخِرَ نسمة من نسمات الليل قبل طلوع النهار. وأمدّت الريح تلك النار المضطرمة في الرَّتَم القائم عند جانبَي البيت بعزم جديد، وردّتْها إلى الوسط حيث بدأت من قبل. حتى إذا بلغتْ تلك النقطة التي انتهى عندها الرَّتَم قرب حافة الأرض المسودّة، خمدت جذْوَتها. وفي الوقت نفسه، جاء دور الحقول المحيطة بالمنزل من كلّ جانب، في الاحتراق. وبعدئذٍ لن يبقى من طعام للنار غير الأرض المترامية هناك، في الغابات وعلى التلال حيث ارتفع الدخان الأزرق وألْسنة النار الحمراء فوق رؤوس الأشجار.

Twitter: @ketab_n

وإلى جانب المنزل أمعنت نيران الرَّتَم في الارتفاع بعد أن أذكتْها نسائمُ الصباح الباكر. واقتربت من المنزل أكثر فأكثر ولم يعدْ يفصِلها عن البناء غيرُ رُقعة ضيّقة من الأرض الرملية. ولو أنّ ريحًا قويّةً أدركَت النار في اللحظة التي اشتعلت فيها أعظمَ اشتعال إذن لكانت خليقة بأن تعصف بجمرات العشب وتذروها على البيت، من تحته ومن فوق سطحه.

حتى إذا أشرقت الشمس أذكت الريحُ النار، وأدارتْها عَبْرَ العشب اليابس. وأُمطِر البيت بسوق العشب المشتعلة التي اجتثّتها الريح، وكان بعضُها يخمد بعد أن تأتي النار عليه، وبعضُها يترك جذوةً متوهّجة مطمورة تحت الألواح الخشبية الجافّة السهلة الاشتعال التي غطّت المنزل طَوالَ خمسين عامًا أو تزيد. وكانت في السطح شقوق حيث عبثتْ رياح الخريف القوية بالألواح الأكثر اهتراء فاقتلعتها وقذفت بها إلى بعيد. وفي تلك الشقوق انتشرت الجمَرات انتشارًا سريعًا.

وكان من عادة جيتر وإيدا أن يستيقظا مع الشمس. وها قد حان موعد ذلك الآن. بَيْدَ أنْ أيًّا منهما لم يتقدّم إلى النافذة، أو يفتح الباب هذه المرَّة. كانا كلاهما غارقيْن في النوم.

وما هي إلّا فترة حتى غدا السطح الأحمر الناريّ كتلةً من الجمر عاصفةً منهمرة. واشتعلت الألواح الجافّة التي أبلاها مطر الخريف والشتاء، وشوتها شمس الربيع والصيف طَوالَ جيلين اثنين ـ اشتعلت كالفحم الحجري في الكور. وفي بِضْع ثوانٍ كانت ألْسِنةُ النار قد اندلعت في السطح كلِّه، ولم تبقَ غيرُ دقائق حتى تتداعى العوارضُ الخشبية الجافّة القاطرُ منها زيتُ الصنوبر وتسقط على أرض البيت وفوق السُّرُر. وبعد نصف ساعة من اشتعال السطح انتهى المنزل إلى أن يصبح رُكامًا من الرماد الأسود الداخن. ولم يدرِ جيتر وإيدا ما الذي حدث.

Twitter: @ketab_n

وكان عددٌ من المزارعين المجاورين قد رأَوا الدخانَ وأَلْسِنَةَ النار فيما كانوا ينهضون من رُقادهم مع الشمس المشرقة. وسارع معظمُهم إلى طريق التبغ، واجتازوا الحقول إلى بيت ليستر وفي نيّتهم أن يساعدوا على إنقاذ شيء من الأثاث. ولم يدركوا مدى السرعة التي احترق بها البيت ذو العوارض الصنوبريّة القاطر منها الزيت إلّا بعد أن انتهوا إليه.

وكان عشرون أو ثلاثون رجلًا واقفين حول الرماد حين وصل لوف وإللي ماي ثم بيسّي وذُيُود إلى المكان. كان كلُّ شيء قد انتهى، ولم يكن ثَمَّةَ ما يمكن إنقاذه. كانت سيارة جيتر العتيقة قد أمست رُكامًا من حديد محطّم صدئ اللون.

وأمسك بعضُ الرجال بِعِيدانٍ طويلة من السنديان الأسود وراحوا يقلّبون كُتَلَ الرماد رجاءَ أن يعثروا على الجثّتين فيُخرجوهما قبل أن تأتيَ عليهما النار. ولكنّ حرارة الرماد صدّتهم جميعًا فترةً من الزمان.

وقالت بيسّي:

ـ «لقد أنزل الله لعنته على هذا المنزل. إنه لم يُرد له أن يظلّ قائمًا مدّةً أطول. المجدُ لله.»

ولم يُلقِ أحدٌ بالًا إلى بيسّي.

وقال أحد المزارعين:

ـ «جيتر هو اليوم أسعد حالًا ممّا كان. كان يجوع حتى الموت معظمَ أيام عمره ولم يكن قادرًا على زرع شيء من القطن. يُخيَّل إليّ أنه كان على أولاده أن يبقَوا في أرضهم ويساعدوه على زرعها.»

Twitter: @ketab_n

وكان أوّلُ ما خطر في بال لوف عند رؤية الرماد الداخن توسُّلات جيتر الحارّة الشبيهة بالصلاة، حول ضرورة العناية بجسده بعد الوفاة. ولكنّ ذلك لم يعد له أهمّيّة الآن، لأنّ النار لم تبقِ من ذلك الجسد غير القليل.

حتى إذا برد الرماد بعض الشيء، تقدّم الرجال، وأخرجوا الجثتين، ومدّدوهما تحت شجرة الأَزْدَرَخْت القائمة إلى جانب الطريق. كانت أغصان تلك الشجرة الخضر قد احترق ظاهرُها ولكنّها كانت بعيدةً عن البيت إلى درجة صانتها من الاشتعال. أمّا سائر شَجَرات الأَزْدَرَخْت التي في الفِناء فكانت أقرب إلى البيت، فاشتعلت في سرعة تكاد تعدل تلك التي اشتعل البيت فيها.

وفي الحال اتخذ القوم الاستعدادات لحفر القبر. وخلف عنبر الذرة المنتفخ المحترق الظاهر، وجد الرجال مِعولًا ومِجرفتين أو ثلاثًا محترقةً بعضَ الشيء، مكسورةَ المقابض، وسألوا لوف أين يريد أن يحفروا القبر. وقرّروا أن يحفروه في غابة السنديان الأسود، حتى إذا اعتزم أحد أن يفلح الأرض في تلك السنة، أو في السنوات التالية، لم يكن ثَمَّةَ خطرٌ من أن يُحرَث القبر في وقت قريب.

وشقّ الرجال القبر، وحملوا رُفات الجسديْن ممدّدًا على ألواحٍ من السنديان الأسود، إلى الغيضة. ثم إنهم أَنزلوا الجثتين إلى باطن الأرض. وسأل بعضُ الرجال بيسّي أن تتلو صلاة قصيرة قبل أن يَحْثوا الترابَ عليهما، ولكنّها رفضت أن تقول شيئًا من أجل جيتر أو إيدا، وعندئذٍ لم يبقَ غيرُ حَثْوِ التراب على الجثتين وتسوية الرمس بأعقاب المجارف.

وأسرع معظمُ المزارعين إلى بيوتهم لتناوُل طعام الصباح. كان كلّ شيء قد انتهى وليس ثَمَّةَ شيء آخرَ يعملونه.

Twitter: @ketab_n

وقعد لوف قرب شجرة الأَزْدَرَخْت المتوحّدة وأنشأ يتأمّل كتلة الرماد الضاربة إلى السواد. ومكثت بيسّي وديُود لحظةً أيضًا. كان عليهما أن يُعنَيا بأمر لوف. وكانت إللي ماي تحوم حول المكان، مراقِبةً المشهد، ولكنّها لم تقترب قَطُّ إلى نقطة يستطيع لوف أو أيّ امرئ آخر أن يراها منها.

وقال لوف:

ـ «أحسِبُ أنّ جيتر العجوز انتهى أحسن نهاية ممكنة. كان يقتل نفسَه طُولَ الوقت بالتفكير في زرع شيء من القطن. ذلك كان كلّ ما أراده في حياته ـ فقد كان زرع القطن أحسن شيء عنده في العالم. وأظنُّ أنه لم يَبْقَ هناك كثيرٌ من أمثاله. فمعظم الناس اليومَ لا يهتمّون بشيءٍ غير الحصول على عمل في بعض مصانع القطن. ولكنهم لا يستطيعون كلّهم أن يشتغلوا في المصانع، فعليهم أن يبقوا هنا مثلَ جيتر حتى اللحظة التي يُؤخذون فيها، هم أيضًا. إنه ليس من العقل أن يفكروا بزرع المحاصيل. فليس في استطاعتهم أن يكسبوا أيّ مال من ذلك، بل ليس في استطاعتهم أن يكسبوا مجرّد القُوت. ولو أنهم أنتجوا شيئًا من القطن لجاء بعض الرجال إلى هنا وسلبوهم إياه. ويبدو لي وكأنّ الربّ لم يعدْ يهتمّ بأن يُزرع القطن كاهتمامه السابق، وإلّا لكان أكثر مساعدةً للفقراء. إنّ في استطاعته أن يُجبر الأغنياء على أن يعيروا الفقراء أموالهم بدلًا من أن يحبسوها. ولا أستطيع أن أتصوّر كيف استولوا على جميع المال الذي في البلاد، على كلّ حال. يبدو لي أنّ من الواجب أن يُوزّع بالتساوي على جميع الناس.»

وبحث ديُود وَسْط الرماد رجاءَ أن يجد فيه شيئًا، ولم يكن في المنزل أيُّ شيء ذي قيمة، ولكنه أراد أن يقلّب الرماد ويُخرج منه صحونَ المطبخ الصفيحية الملتوية، وتفّاحات الباب الخزفية. وكانت هناك تلك الدواليب الحديدية الصغيرة الباقية من السُّرر الخشبية، وقد احترقت احتراقًا طفيفًا

Twitter: @ketab_n

وعلتْ صفحاتِها قشرةٌ لامعة، وبعضُ المسامير والبراغي. وكانت بقيّة الأشياء التي حواها المنزل مصنوعةً كلّها تقريبًا إمّا من الخشب أو القُماش.

وقال لوف:

ـ «لقد تحققت أمنية من أمنيات جيتر. إنها لم تتحقق كاملةً، ولكنّها تمّت بطريقة من الطرق كما أراد، على كلّ حال. كان يقول لي إنه لا يريدني أن أُغلق عليه باب عنبر الذرة ثم أمضي تاركًا إياه، عندما يموت. إنّ ذلك هو ما وقع لأبيه من قبل. فعندما مات أبوه حمله جيتر والرجال الذين اجتمعوا حول جثمانه إلى عنبر الذرة وأغلقوا عليه الباب ليلًا ريثما يذهبوا إلى فولر ليجلبوا شيئًا من التبغ والشراب. لقد وضعوه في العنبر لكي لا يصيبه شيء أثناء غيابهم. وعندما راحوا يدفنونه في اليوم التالي وثبت فأرة كبيرة من التابوت. كانت قد قرضت النعش ودخلت إليه حين أُغلق باب العنبر على الجثمان وكانت قد أكلت عنق ليستر العجوز وجانبًا كاملًا من وجهه. وكان ذلك هو ما خاف جيتر أن يحدث له، وكان يسألني أن أعاهده مرّتين أو ثلاثًا في اليوم على أن لا أغلق عليه باب العنبر حين يموت. ولم يكن في حاجة إلى أن يقلَق على هذه الصورة لأنّ العنبر لم يعرف أيّ فأرة منذ عدَّة سنوات، إلّا في بعض الأحيان عندما كانت الفيران تعود إلى هناك لترى ما إذا كان قد وُضع فيه شيء من الذرة.»

فقالت الأخت بيسّي:

ـ «أنا لا أظنّ أنّ الربّ أحبّ جيتر كثيرًا. ولا أشكّ في أنه كان في شبابه آثمًا كبيرًا، لأنّ الربّ لم يكن كريمًا معه كما كان كريمًا معي. إنّ الربّ يعرفنا كلَّنا معرفةً جيّدة. إنه يعرف متى نكون صالحين ومتى نكون ضحيّة الشيطان.»

فقال لوف:

Twitter: @ketab_n

ـ «حسنًا، هذا لا يقدّم ولا يؤخّر الآن. لقد مات جيتر وانتهى، ولن يشغَل بالَه بعد اليوم بالرغبة في حراثة الأرض وزرع القطن. ذلك ما كان يحبّ أن يفعله أكثر من أيّ شيء آخر، ولكنه لسببٍ من الأسباب لم تسنح له الفرصة للقيام بذلك كثيرًا. ولا شكّ في أنّ جيتر كان يفضّل مئة مرّة أن يزرع محصولًا كبيرًا من القطن على أن يدخل الجنة.»

ـ «لو ذهب إلى أوغوستا واشتغل في مصانع القطن كما عمل سائر الناس لكان في حالٍ جيّدة. فعندما لا يجد الرجل مَن يقدّم إليه البزر والسماد بالدَّين فلن يكون في استطاعته أن يكسب المال إذا أصرّ مثلَه على البقاء في مزرعته.»

فأجابها لوف:

ـ «أظنّ أنّ جيتر كان على صواب. فقد كان رجلًا يحبّ أن يُنبِتَ بعضَ الأشياء في الأرض. والمصانع لا تصلح محلًّا لرجلٍ تجري تلك الرغبة القويّة في دمائه. فالمصانع تشبه السيارات بعض الشبه ـ إنها صالحة لقضاء فترة من الوقت يلهو فيها الإنسان، ولكنّها لا تزوّده بالحُبِّ الذي تُغدقه الأرض عليه. فالأرض تسهر بشكلٍ من الأشكال على مصلحة الناس الذين يُبقون أقدامهم فوقها. وحين يقف الناس طُولَ الوقت على الألواح الخشبية المنصوبة في الأبنية ويمشون في الشوارع المفروشة بالإسمنت فعندئذٍ تفقد الأرض اهتمامها بالإنسان.»

وخرج دْيُود من وسط الرماد، نافضًا الذرّات السود عن حذائه ووِزْرته. ثم إنه قعد على الأرض وحدّق إلى المدى من غير أن ينطق بكلمة... وكانت إللي ماي لا تزال تحوم في ناحيةٍ بعيدة، وكأنما كانت تخشى أن تقترب من رماد المنزل.

وقال لوف:

Twitter: @ketab_n

ـ «وفوق ذلك، فإنّ إيدا لم تفز بثوب جديد على الزيّ الحديث تُدفَن فيه. لقد كنتُ أرجو، على شكلٍ من الأشكال، أن تفوز بذلك أيضًا. هذا شيء مؤسف، ولكنه لا يقدّم أو يؤخّر الآن. لقد احترق ثوبها العتيق وهو على جسدها، ودُفنت كما خلَقها الله تمامًا. ومن يدري، فلعلّ هذا أفضل من لبْس الثوب على الزيّ الحديث. ولو أنها ماتت بسبب الشيخوخة، أو أيّ شيء مثل ذلك، لَما كان عندها ثوب على الزيّ الحديث، على كلّ حال. وعندئذٍ كان يتحتّم علينا أن ندفنها في الثوب العتيق الذي تلبسه. وعندي أنّ هذه المِيتَةَ قد ناسبَتْها. فهي لم تدرِ أنه ليس عندها ثوب على الزيّ الحديث تُدفَن فيه. ولم يعد لِطول الثوب، وكوْنِه ملائمًا أم لا، أيّة أهمّيّة على الإطلاق.»

ولم يُشِرْ أحد بكلمة إلى الجدّة العجوز، ولكنّ لوف كان سعيدًا بموتها في اليوم السابق. فلم يجد أنّ من الحق أن تُدفَن جثّتُها قي قبر واحد مع جيتر وإيدا، بل لم يجد من الحقّ أن تُدفَن وإياهما في الحقل نفسِه. فقد أبغضاها إلى درجةٍ جعلَتْ وَضْعَ جثّتها إلى جانبهما نوعًا من الاستغلال لموتها. وكانت قد عاشت في البيت، مع جيتر وإيدا، دهرًا طويلًا انتهى بها إلى أن لا تُعتبر أكثر من مِصراع نافذة، أو لوح من ألواح الخشب. ولكن من الإنصاف لها أن يُقال ـ كذلك فكّر لوف ـ إنها لم تتشكّ يومًا المعاملةَ التي عومِلَت بها. وحتى في حالات جوعها أو مرضها، لم تَنِدَّ كلمةٌ واحدة من بين شفتَيْها. لقد عاشت مع جيتر وإيدا فترةً متطاولة أقنعتْها بأنّ الاحتجاج عبثٌ غير مُجْدٍ. ولو أنها قالت شيئًا، إذن لكان جيتر (أو إيدا) خليقًا بأن يضربها بجُمع كفّه فيطرحها أرضًا.

وسبق ذُيُود الجماعة كلَّها إلى امتطاء السيارة، وتبعته الأخت بيسّي على جناح السرعة. وانتظرا لوف ليصطحباه إلى منزلهما ويُعِدّا له طعام الصباح. حتى إذا اتخذ مكانه على المقعد الخلفيّ أقبلت إللي ماي فجلست إلى

Twitter: @ketab_n

جانبه. وقاد ذْيُود السيارة مبتعدًا عن الفِناء، واستدار هابطًا طريق التبغ في اتجاه مستودع الفحم المسودّ، والنهر الأحمر الموحل.

وفي الحال، تقريبًا، شرع ذْيُود يقرع الزمّور.

وحين انتهوا إلى قمّة التلّة الأولى تلفّتَ ذْيُود وألقى نظرة على بيت ليستر من خلال الستارة الخلفيّة. كانت المدخنة الآجرّيّة الطويلة التي ما تزال قائمة، وقد علاها السواد، وبدت أشبه شيء بشاهد قبر، هي كلّ ما استطاع أن يراه.

ورفع ذْيُود يده عن زر الزمّور ونظر إلى لوف.

وقال ذْيُود:

ـ «مِن رأيي أن أستعيرَ بغلًا من مكان ما، وشيئًا من بزر القطن وسماد الطير، وأزرع محصولًا من القطن هذا العام. يُخيَّل إليّ أنّ موسم القطن هذه السنة سوف يكون طيّبًا. ولعلّي أستطيع أن أجنيَ بالة من كلّ أكْرٍ من الأرض كما كان أبي يودّ دائمًا أن يفعل.»

انتهت

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

عن الكتاب والكاتب

" اسمع يا لوف، ما هكذا يتحدّث النّاس. إنّ عيني لم تقع على قرص لفت جيّد منذ عام كامل. كلّ أقراص اللفت التي أكلْتُها كانت تعجّ بتلك الدّيدان الملعونة ذات الأمعاء الخضر، و أنا على ثقة من أنّي أحب أنْ أحصل على بعض اللّفت الجيّد الآن. إنّ الأقراص المدوّدة، كالتي أكلْتُها من قبل، لا تصلح طعاماً للبشر... اسمع يا لوف، أنت تعرف أنّي لا أملك فلساً، وأنّي لا أدري من أين أحصل على المال. إنّ عندك وظيفة طيّبة تقدّم إليك كومة من المال، فينبغي أن تعقد معي صفقة حتى يكون عني شيئ آكله، و لا أجوع حتّى الموت..."

بهذا الأسلوب السّلس النّابض بالحياة يُصَوِّر آرسكين كالدويل حياة المعذّبين في الأرض، هناك على طريق التبغ بولاية جورجيا الأميركية، في هذه القصّة الخالدة التي تُرجمت إلى معظم لغات العالم و مُثّلت على المسرح و أُخرجَت على الشّاشة وبلغ عدد النُّسَخ التي طُبِعْت منها في الولايات المتّحدة خمسة وعشرين مليون نسخة.

أمّا آرسكين كالدويل فأحد عمالقة القصّة المُحدَثين ذوي النّزعة الإنسانية. وُلد سنة ١٩٠٣ و عمل قبل أن يلمع نجمه في سماء الأدب لاعب كرة محترفاً، و حاصد قطن، وميكانيكيًّا، وخادم مقهى، وطاهيًا، و صحفيًا.

www.malayin.com

978-614-63-0011-2 01102

9 786146 300112